



كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر



ISBN: 978-9922-612-32-4

دراسات في اللغويات المحضارية

تأليف

الأستاذ الدكتور علي زوين

الطبعة الأولى / 2021

منشورات

مركز البحوث والدراسات والنشر
كلية الكوت الجامعة



٤٠١ / ٧

ز ٩٩٩ زوين ، علي .

دراسات في اللغويات الحضارية / علي زوين

. . - بغداد : مطبعة الرفاه ، ٢٠٢١ .

٤٣٠ ص . . ٢٤ سم .

١ - اللغويات - تاريخ - أ - العنوان .

م . و .

٢٠٢١ / ١٢٧٢

تصميم الغلاف : رائد مهند امير

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

١٢٧٢ لسنة ٢٠٢١ م

مطبعة الرفاه
07902823204

فهرس الموضوعات

- 5 -مقدمة .
- 7 -المبحث الأول : علم اللغة الحضاري مقدمة في المبادئ والأصول .
- 21 -المبحث الثاني : المعايير الحضارية للغة .
- 51 -المبحث الثالث : (الرمز) ودلالته الحضارية والثقافية .
- 93 -المبحث الرابع : اللغة والدلالة الرمزية والايحائية للأسطورة .
- 141 -المبحث الخامس : صراع اللغات (المقدمات والنتائج) .
- 185 -المبحث السادس : علم اللغة السياسي .
- 229 -المبحث السابع : أسس علم اللغة الجغرافي .
- 247 -المبحث الثامن : اللغة و (العولمة) قراءة في التوظيف اللغوي .
- 307 -المبحث التاسع : كلمة (عراق) في أصولها العربية والسامية .
- 333 -المبحث العاشر: مصطلحات جغرافية مختارة في مقدمة ابن خلدون.
- 367 -المبحث الحادي عشر : تقسيم الألوان في العربية ، دراسة في ضوء علم اللغة الحديث .
- 385 -المبحث الثاني عشر : ألفاظ ومصطلحات ولهجات محلية في كتاب (سفرنامه) لناصر خسرو القبادياتي المروزي .
- 417 -المصادر والمراجع .

مقدمة :

يتناول هذا الكتاب مباحث لغوية ذات صلة بالحضارة ، منها ما هو جديد ، ومنها ما هو مستجد . ويعتمد من حيث المنهج على الترابط الوصفي والتحليلي للعلاقة المنظورة والمستترة بين الظاهرة اللغوية ومختلف الظواهر الحضارية ، ولذلك كانت السببية الحضارية في تفسير أي ظاهرة لغوية من أهم الأسس التي تبناها الكتاب في مجمل محاوره ؛ فالجامع بين فصوله أو مباحثه هو أن ينظر الى اللغة بمنظار الحضارة.

وقد يبدو من هذا المنظور أن يكون للدلالة القدر المعلى ، ولكنه لا يخفى على المتطلع أن لعناصر الصوت والصرف والتركيب نصيب لا يستهان به؛ فهي أن بدت في ظاهر الحال مجزأة ولكنها في حقيقة الأمر مترابطة ؛ فالهدف هو الكشف عن التناغم الدلالي بين ما هو داخل اللغة وما هو خارجها .

ولا أستبعد اليقين إذا قلت أن اللغة بمحتواها الاجتماعي والثقافي والنفسي سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات إنما تمثل المضامين الحضارية المختلفة للإنسان منذ نشأة الحضارات في تأريخ البشرية.

المبحث الأول

علم اللغة الحضاري* (مقدمة في المبادئ والأصول)

* نشر هذا المبحث في مجلة الحكمة التي تصدر عن بيت الحكمة في بغداد: العدد (٥٠) سنة ٢٠١١ م .

علم اللغة الحضاري : المصطلح والعلوم المساعدة:

يمكن تعريف (علم اللغة الحضاري) بأنه (العلم الذي يتناول اللغة من حيث علاقتها بالحضارة) . وتترتب على هذا التعريف جملة من المسائل :

١- مفهوم (الحضارة) وما يرتبط بها من (الثقافة) و (المدنية) ؛ فعلى الرغم من تداخل هذه المصطلحات الثلاثة واختلاف مفهومها لدى علماء الحضارات والانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع فان بالامكان فهم الحضارة فهماً عاماً يشتمل على المعارف والعلوم والعقائد والاديان والظواهر الاجتماعية المختلفة والسلوك الاجتماعي في بيئة لغوية واجتماعية معينة. وترتبط (الثقافة) بهذا المفهوم من حيث الخصائص الفردية والجماعية ، على أن للثقافة خصوصية مغايرة تتسع لما للشعوب من سمات فكرية واجتماعية وعقائدية ، وهي بذلك تشمل المجتمعات البدائية والمتحضرة وتلك التي تتوسطهما.

وأما (المدنية) فقد تعني مرحلة متقدمة من الحضارة كما ذهب اليه بعض الفلاسفة الغربيين ، وقد تعني المظاهر المادية للحضارة التي يستوجبها السكن في المدن والسلوك الاجتماعي العام المرتبط بذلك .

٢- أن (اللغة) من حيث كونها (ظاهرة اجتماعية) أو (سلوك اجتماعي) مرتبطة بالمجتمعات على نحو غير مباشر كالسلوك الفردي .

ويعد (الإيصال) من جملة الاغراض الاساسية للظاهرة اللغوية بما في ذلك تناقل الافكار والمشاعر والانفعالات سواء أكانت على مستوى الافراد أم الجماعات .

ولما كانت (الحضارة) تتضمن عناصر الفكر والمعرفة والسلوك الاجتماعي والتعامل مع المظاهر المادية على اختلاف مستوياتها ظهرت اهمية اللغة في الايصال والتواصل لأنها من أهم أنظمة الاشارات تطوراً ودقة ؛ إذ لا يمكن تصور (حضارة) من غير (لغة) كما لا يمكن تصور (معمل) من غير (آله) ؛ فاللغة بهذا المفهوم الذي ينبغي أن ينظر اليه على أنه أحد أوجه نشاطها - آلة للحضارة تستعين بها لاثبات كينونتها ووجودها بانجاز مظاهرها المادية والمعنوية .

٣- أن علم اللغة الحضاري بناء على ما تقدم ذكره يبحث في الظواهر اللغوية التي تكون أسبابها المباشرة وغير المباشرة عوامل حضارية ؛ فهو يتناول العناصر غير اللغوية المؤثرة في الحدث اللغوي بغض النظر عن نوع هذا الحدث كلاماً كان أم نصّاً.

ويستفيد علم اللغة الحضاري من بعض المناهج اللغوية والعلوم الاجتماعية. وفيما يأتي أهم المناهج والعلوم ذات الصلة به:

١- علم اللغة التاريخي :

يتناول علم اللغة التاريخي دراسة لغة ما في فترات زمنية مختلفة ، وهو بذلك يتيح لعلم اللغة الحضاري الاستفادة من المنهج التاريخي من حيث المنهج

والنتائج التي يصل إليها. والعلاقة بين الحضارة والتاريخ لا تحتاج الى استدلال ، فهي واضحة للعيان .

وهناك حقل من حقول التاريخ يطلق عليه (تاريخ الحضارات) ، وينبغي لعلم اللغة الحضاري أن يستوعب هذا الحقل تماماً ليربط الظواهر اللغوية بالمفاهيم الحضارية ، ولا يقتصر ذلك على حضارة واحدة بل يشمل حضارات العالم جميعاً القديم منها والحديث، ويتضمن ثقافات الشعوب على اختلاف أنواعها وأوصافها وأجناسها، ولا يأخذ بالحسبان فترة زمنية محددة بل يتعداها الى فترات زمنية متعددة متلاحقة .

وخلاصة القول : أن المنهج التاريخي كفيل بمنح علم اللغة الحضاري وسيلة من اهم وسائل البحث والنظر في تاريخ الحضارات والاستفادة منها في توضيح فكرة الترابط السببي بين اللغة والحضارة .

ولما كان المنهج التاريخي يعنى باللغة عبر مراحلها الزمنية المختلفة فهو يعتمد على الوثائق والنصوص المدونة. وهذه الوثائق والنصوص تتصف بانها تتقل الينا اللغة الانموذجية لا الكلام الشفوي لانعدام وسائل التسجيل قديما، وان كان هذا الأمر يعد نقصاً في معطيات المنهج التاريخي بيد أنه يعد استكمالاً لعلم اللغة الحضاري لانه يقدم ما هو الانموذج الذي يمكن الاعتماد عليه في رسم صورة ذهنية ترابطية .

٢- علم اللغة المقارن :

يبحث علم اللغة المقارن في (الأسر اللغوية) أي توزيع اللغات بحسب أصولها اللغوية، وغايته الوصول الى الأصل الذي انحدرت منه كل مجموعة لغوية ولو افتراضاً. ولكي يحقق هذه الغاية يستعين علم اللغة المقارن بعدة وسائل ، من أهمها مقارنة اللغات المنحدرة من أصل واحد بعضها مع بعض من حيث البنى الصوتية والصرفية والنحوية والدالية لإيجاد الدلائل اللغوية التاريخية على افتراض انحدار تلك اللغات من أصل واحد بجمع الاشباه والنظائر في بناها اللغوية والوصول الى عناصرها القديمة والتأليف بين هذه العناصر لتكوين (اللغة الأم) أو ما يقاربها ويشابهها ولو على سبيل التخمين والظن. وجملة ما يفيد المنهج المقارن في بيان العلائق الحضارية بالغة يتأتى من هذه المقارنات التاريخية بين لغات منحدرة من أصل واحد ، وهذه المقارنات غالباً ما تؤدي الى اظهار اوجه عديدة للحضارات القديمة ، وان كان الهدف من المنهج المقارن ليس ذلك . وبذلك يمكن فهم ما يستفيدة علم اللغة الحضاري من هذا المنهج ، فهو رديف في الاستفادة للمنهج التاريخي المذكور سابقاً .

٣- علم اللغة الانثروبولوجي :

(الأنثروبولوجي) أو (علم الإنسان) يعنى بحسب مفهومه الضيق بثقافات الشعوب البدائية . ويتسع عند بعض المدارس الأنثروبولوجية ليشمل ثقافات

الشعوب المختلفة بدائية كانت أو قطعت أشواطاً متفاوتة في الرقي الحضاري؛ فالعناية بثقافات الشعوب - إذن - هي الهدف الأساس لهذا العلم .
ومن هنا يمكننا فهم ما يستفيدة المنهج اللغوي الحضاري من معطيات الأنثروبولوجي الحضاري لأنه يظهر أفكار الشعوب تجاه الطبيعة وعاداتها وتقاليدها وأديانها وعقائدها وسلوكها العام وأعمالها وأشغالها ومهنها وحرفها ومعالم تطورها ... الخ .

٤- علم التاريخ:

أن العلاقة بين علم اللغة والتاريخ لا تحتاج الى إثبات أو استدلال . ولعلم التاريخ مناهجه في فهم الاحداث ووصفها وتحليلها واستنتاج أسبابها ومسبباتها وبيان نتائجها . وهو يعتمد أساسا على الوثائق والمدونات والنصوص . وهذه كلها دونت بلغات ؛ فاللغة - إذن - عنصر محوري في المنهج التاريخي لأنها الوسيلة الوحيدة لوصول الوثائق ، ولولاها لما كانت هناك مدونات عبر مراحل التاريخ البشري ولما وصلتنا آثارها ولحرمانا معرفة تاريخ الإنسان على هذه البسيطة ، أو قل لا نعدم التاريخ فحوى ومعنى واصطلاحاً .

هذا كله من الأمور البديهية التي لا تحتاج الى إثبات . أما عن كيفية الاستفادة من التاريخ في علم اللغة الحضاري فتتضح الفائدة من مجمل عناصر التاريخ وأقسامه وفروعه ولاسيما الجوانب السياسية والثقافية

والاجتماعية التي تعد جميعها مصادر لا يمكن الاستغناء عنها في تفسير الكثير من الظواهر اللغوية المتأثرة بالحضارة أو العكس.

٥- علم الاجتماع :

هذا العلم من أهم العلوم المؤثرة في علم اللغة عموماً؛ فلقد تبنى أصحاب منهج (علم اللغة الاجتماعي) فكرة مفادها أن اللغة (ظاهرة اجتماعية) أو (سلوك اجتماعي) شأنها في ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى . ومن هذا الطرح يمكن النظر الى أهمية علم الاجتماع ؛ إذ عدّ بعضهم علم اللغة فرعاً من فروع علم الاجتماع على الرغم من منافاة ذلك للواقع اللغوي.

ولما كان علم الاجتماع معنياً بالمجتمعات الإنسانية على اختلاف مستوياتها برزت أهميته لما نحن بصدد في أمرين ، أحدهما: علاقة علم اللغة بمناهجه المختلفة بعلم الاجتماع، والآخر : علاقة علم اللغة الحضاري من حيث كونه منهجاً مقترحاً من مناهج علم اللغة بعلم الاجتماع؛ فالتأثير بذلك يكون تأثيراً مزدوجاً .

أسس علم اللغة الحضاري :

يعتمد علم اللغة الحضاري على أسس لا بد من توافرها ليستقيم منهجه العام في البحث اللغوي. ويمكن اختصار هذا الأسس في القضايا الآتية :

١- الأساس الثقافي والمعرفي:

تعد الثقافة والمعرفة من أهم الأسس التي يعتمد عليها علم اللغة الحضاري فتقافات الشعوب والأمم على مختلف مراحلها في سلم التطور الحضاري

معين خصب لتفسير كثير من المفردات والعبارات اللغوية ، وعلى قدر أقل
البنى الصوتية والصرفية . ولعل دلالة الألفاظ وما تشير إليها من مدلولات
اهم ما في الظاهرة اللغوية في هذا المجال ، لأن الأفكار والعقائد والأديان
والأمثال وغيرها من العناصر الثقافية والمعرفية تصاغ - عادة - في مفردات
وجمل وعبارات وكيونات تركيبية ومدلولات تفسرها وتعبّر عنها .
وينبغي في هذا المجال أن ينظر الى معيار الشيوخ ؛ فكلما كانت المدلولات
الثقافية والمعرفية تتسم بالشيوخ في مجتمع ما اكتسبت على نحو نسبي وربما
في بعض الأحيان على نحو ثابت مدلولاتها التي يمكن تفسيرها من خلال
العوامل الحضارية .

وذهبت بعض الفرضيات الى الربط بين الكلمات والأشياء الدالة عليها من
خلال المنظور الفكري والثقافي ؛ فالأشياء في عالم الواقع يعبر عنها باللغة،
وتلك الأشياء تكون محدودة باللغة على رأي هؤلاء ، وثمة من ذهب الى أن
عالم الأشياء الواقعي أو طبيعة النظرة الى الوجود المادي وعالم الأفكار
المجردة (تتأطر) باللغة وتتأثر بها ، ولذلك اختلفت الشعوب في فهم حقائق
المادة والمعنى لاختلاف لغاتها . وتأخذ الأساطير والعقائد الشعبية أهميتها
من خلال هذا التأطير اللغوي .

أن القائلين بالعلاقة السببية بين الكلمات والأشياء يفرضون نظاماً لغوياً
صارماً يتحدد بموجبه العالم الخارجي بالمنظور اللغوي ؛ فهؤلاء ينظرون الى
الأشياء من خلال اللغة وليس العكس . وخلافاً للنظرة السابقة ذهب آخرون

الى أن الأشياء هي التي تحدد اللغة و (تؤطرها) ، فلغتنا على وفق هذا المنظور تتأثر بعالم الأشياء الخارجي . وهؤلاء على عكس ما تقدم ذكره ينظرون الى اللغة من خلال الأشياء .

٢- الأساس الاجتماعي :

إذا أخذنا بمقولة علم اللغة الاجتماعي وأن اللغة ما هي إلا سلوك اجتماعي اتضحت لنا أهمية الأساس الاجتماعي معياراً لمنهج علم اللغة الحضاري ، لأن المجتمع أساس الحضارة ، فلا حضارة من غير مجتمع . وينبغي للمرء أن يخضع مظاهر السلوك الاجتماعي وينظر الى الأفكار والعقائد والأديان والعادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية... الخ على إنها جميعاً وحدة مترابطة قابلة للتغير من جيل الى آخر . وتعد اللغة أهم وسيلة لإيصال هذه العناصر عبر مراحل التطور ، يضاف إليها عناصر الإشارات الأخرى الأقل أهمية كالفنون التصويرية والإشارات والعلامات العضوية للإنسان واستعمال الدخان والرموز الصيفية وقرع الطبول والأبواق وما شابه ... الخ .

٣- الأساس الديني:

اللغة والدين يعدان العنصرين الأساسيين لكل حضارة . وبهما تتخذ الحضارات أنماطها ومزاياها وصفاتها . وبهما أيضاً وبغيرهما يحصل التفاوت بين الحضارات من حيث الأصالة والتبعية والديمومة والاضمحلال والتكامل والتنافر والتوافق والتصادم .

أن عقائد الشعوب وأديانها وأفكارها عن الطبيعة والكون وما وراء الطبيعة والمجتمع والخير والشر والعقاب والثواب والعمل والمكافأة والحقوق والواجبات وغيرها من العناصر الحضارية والاجتماعية تتصهر كلها في أنماط للتعبير بوساطة اللغة أساساً وانظمة الإشارات الأخرى . وتعد اللغة في هذا المجال أهم وسيلة للتعبير والإيصال ونقل الأفكار والانفعال والتفاعل على المستويات كلها ، وللأفراد والجماعات على حد سواء .

٤- الأساس اللغوي:

يترتب على الأساس اللغوي الاستفسار عن مدى تأثر اللغة بمستوياتها المختلفة بالحضارة . أياكون التأثير على مستوى الأصوات والبنية الصرفية والتركيبية والدلالية على نسق واحد؟ أم تختلف هذه المستويات من حيث تأثرها بالعوامل الحضارية ؟

للجواب عن هذين السؤالين ينبغي الالتفات الى الشكل اللغوي والمضمون اللغوي والتفريق بينهما من حيث التأثير ؛ فاللغة من حيث الشكل أي البنى الصوتية والصرفية والنحوية لا تكون على نسق واحد مع المضامين الدلالية أي المعنى ، ولا داعي للاستدلال على ما يطرأ على المعنى من تغير وتطور بفعل العوامل الحضارية لأنه أمر ظاهر بيّن. والكلمات والعبارات ذات المضامين الحضارية حصلت بفعل التأثير هذا وهي شائعة في اللغات ولاسيما المتفوقة منها حضارياً وثقافياً ، والأمثلة عليها كثيرة مطردة متنوعة، وتمثل أكثر المستويات اللغوية تأثراً.

وأما المستويات الأخرى فهي دون المستوى الدلالي ، وبعضها عصي على التغيير ولا يحصل إلا بعد مراحل طويلة . وتتفاوت هي أيضاً من حيث قدر التغيير وأنواعه وأنماطه . والملاحظ على سبيل المثال أن التغيير في البنية الصوتية أكثر منه في البنية الصرفية والنحوية ، يليه التغيير في البنية الصرفية . وأما النحو أو النظم فالتغيير فيه بطيء وقليل ، وغالباً ما يكون في أنماط الجمل والأساليب دون المساس بالقواعد الصرفية والنحوية الأساسية.

مبادئ عامة في علم اللغة الحضاري :

١- مبدأ التأثير والتأثر:

يعد هذا المبدأ ركيزة علم اللغة الحضاري . وإذا أخذنا مفهوم هذا المنهج اللغوي بنظر الاعتبار وعلى أنه يتعاطى مع اللغة من حيث التأثير الحضاري كان لا بد من الإشارة الى المدرستين اللغويتين الحديثتين اللتين تبنتا العلاقة بين اللغة والعالم الواقعي.

وقد سبق القول بأن أحد الفريقين نظر الى اللغة على إنها هي المؤثرة في تكوين الأفكار تجاه العالم ، وذهب الفريق الآخر الى العكس من ذلك . ويترتب على هاتين الأطروحتين سؤال مهم ، وهو ماذا يختار الباحث ؟ وهل يجب عليه الاختيار ؟

الجواب: على الباحث أن يختار ، وهنا ينبغي له أن يختار ما يمكن أن يقوم له سبل البحث . وفي موضوع علم اللغة الحضاري لا يمكننا الاكتفاء بإحدى

المدرستين السابقتين ، لأن الأولى عليها مآخذ كثيرة وربما ذهب بعض الآخذين بها الى الغلو والمبالغة . وأما الثانية فهي أقرب الى واقع الظواهر اللغوية ذات السمة الحضارية ، ولكنها لا تخلو أيضاً من بعض المآخذ. والسبيل الأمثل أن ينظر الى هذه المسألة وفقاً لمبدأ التأثير والتأثر المتبادلين. وهذا لا يعني حلاً توافيقاً للمشكلة بل هو حل مستمد من طبيعتي اللغة والحضارة ؛ وهذا ناجم عن إنها أفضل السبل في إيصالها والتعبير عنها إذ تعد مادة لها وإن كانت اللغة في حيز يختلف عن حيز الحضارة . أما عن تأثير الحضارة في اللغة فأمر له دلائل وأمثلة لا يمكن إغفالها؛ فالمجتمعات تتأقلم مع لغاتها في النظر الى العالم كما تتأقلم من حيث الطبيعة والمكان ، ولا غرابة أن نسمع من يتحدث عن عقلية الشعوب والأمم غابرها وحاضرها من خلال لغاتها. ولكننا يجب ألا نغالي في الأمور ونتجاوز حد الاعتدال الى التطرف.

٢- مبدأ الشيوخ:

للحضارات مظاهر عديدة ومختلفة ، منها ما يكون الأسس والأصول ويتصف بالثبات النسبي الى حين من الزمن يطول في أغلب الأحيان. ومنها ما هو فرعي لا يؤلف أصلاً وأساساً ويتصف بالتغير تبعاً لعوامل التغير الحضاري. ويفيدنا مبدأ الشيوخ في رصد المظاهر الحضارية ذات الشيوخ الأكثر. وهنا يجب ألاّ ننخدع بظاهر الحال ونحكم بأن مثل هذه المظاهر تمثل الأصول لحضارة ما ، بل ينبغي أن نتفحص الظواهر من حيث امتدادها الجماعي والزمني ، فإذا توافق (الشيوخ الجماعي) مع (الشيوخ الزمني) واكتسبا الثبات النسبي لفترات طويلة من الزمن أمكن أن نحكم على مثل هذه المظاهر بأنها من الأسس والأصول.

٣- مبدأ الحركة:

يعتمد علم اللغة الحضاري على علم اللغة التاريخي في النظرة التتابعية للغة، أي دراستها عبر مراحلها الزمنية، وهو بذلك لا ينظر الى حضارة ما في مكان وزمان معينين من غير التعرف على ماضيها وسيرها وتطورها. ودراسة كهذه تكون مقطوعة الجذور ولا تفي في تشخيص المحتوى الحضاري للغة.

٤- الغزو اللغوي الحضاري:

الغزو اللغوي والحضاري عنوان لمبدأ التأثير (الجبري) بين اللغات، فقد يحصل الغزو بين اللغات والحضارات بدوافع ووسائل مختلفة ويترك آثاره واضحة المعالم على كلا الجانبين: اللغة الغازية والأخرى المغزوة على حد سواء . وغالباً ما تؤثر اللغة ذات الحضارة المتطورة في اللغة التي دونها حضارة فتكتسب الثانية من الأولى ظواهر حضارية تنعكس في لغتها ولاسيما المفردات والعبارات ذات المدلول الحضاري والثقافي. وقد يحصل خلاف ذلك إذ تؤثر اللغة ذات الحضارة الهابطة في اللغة التي تعلوها حضارة ، ولكن هذا الأمر قليل الحصول وأمثله ونظائره قليلة جداً.

٥- التكامل اللغوي الحضاري:

قد يحصل الغزو بين لغتين تنتميان الى حضارتين ليس بينهما بون كبير . وفي هذه الحالة تتأثر كل واحدة منهما بالأخرى بمقدار يتناسب مع أصالة حضارتيهما. ومن الملاحظ أن العناصر الأساسية أو الأصول يجري فيها أو في بعضها تغيير وتبديل على مدى زمني متفاوت، وتبقى مظاهر التأثير شاخصة في كل منهما، وقد تحصل الغلبة لإحدهما على الأخرى.

٦- التكافؤ اللغوي الحضاري:

يحصل هذا التكافؤ حينما تغزو لغة لغةً أخرى وكلاهما تنتميان الى حضارتين متقاربتين أو متكافئتين مستوىً وأصالةً ؛ فترتد إحداها على الأخرى ويحصل بينهما صراع حضاري قد ينتهي الى تأثير متبادل أو الى استقلال كل واحدة عن الأخرى بعد توافر شروط الاستقلال وانتفاء الأسباب التي أدت الى الغزو اللغوي والحضاري.

المبحث الثاني

المعايير الحضارية للغة *

* نشر هذا المبحث في مجلة الحكمة التي تصدر عن بيت الحكمة في بغداد: العدد (٤٥) سنة ٢٠٠٧م.

اللغة والحضارة:

علاقة اللغة بالحضارة علاقة تتسع لمجالات متعددة وتقترن بجملة من المحفزات والاستجابات التي تكوّن عناصر التأثير والتأثر؛ فالحضارات البشرية القديمة منها والحديثة دونت بلغات شعوبها ، والبحث في تأريخ هذه الحضارات اعتمد على هذه المدونات ، واكتشاف مزايا الحضارات واختلاف بعضها عن بعض وصولاً الى خصائصها العامة ما كان ليحصل لولا اللغة، فاللغة مرآة عاكسة لثقافات الشعوب وعاداتها ونظمها وسلوكها وأديانها ومعتقداتها... الخ ، ولذلك نجد كثيراً من علماء الأنثروبولوجي يستعمل ((اللغة نموذجاً نظرياً لدراسة الحضارة عامة))^(١) . وذهب فريق منهم الى إنها تمثل وحدات حضارية واضحة تعين على فهم الخصائص العامة والمشاركة والمزايا الخاصة والفروق وصراع الحضارات وتوافقها. قال كلوكهون: (نحن لا نملك وحدات حضارية واضحة متميزة يمكن مقارنتها بالذرة في علم الفيزياء أو بالجينات في علم الحياة إلا في مجال اللغة)^(٢) . والحضارة عرضة للتبدل والتغير ، ويعد عنصر الاستمرار عاملاً من أهم عوامل ديمومتها لذلك نلاحظ اختلاف الحضارات في سيرها عبر القرون ومدى صمودها تجاه التغيرات الطارئة عليها واحتفاظها بمزاياها وخصائصها، فقد يستمر بعضها الى أجيال متلاحقة وقد يفنى بعضها الآخر ويبعد ويبقى

١ - كلوكهون : الأنثروبولوجي الحضاري : ٧٦ .

٢ - الأنثروبولوجي الحضاري : ٧٦ .

سجلاً في التاريخ. ووفقاً لهذا النظام تختلف الحضارات من حيث الديمومة بعضها عن بعض؛ فالأصيل منها يستمر أو يترك آثاره شاخصة لتلد منها حضارة أخرى أو تدخل مكوناً من مكونات المستجد من الحضارات. ولكن الأمر الأهم أن ندرك أن التبدل الذي يعتري الحضارة يكون في بعض الأحيان بطيئاً. ويظهر هذا الأمر جلياً (في مجال اللغة ذلك الجانب الحضاري الذي يشاد بشكل لا شعوري ولا يعرف المجتمع بُناته أو مكوناته .. فلو فصل بين مجتمعين يتكلمان بلغة واحدة مدة الف عام لظلت (٦٦) في المائة من الألفاظ في لغتي المجتمعين متشابهة بشكل يسهل تعرفه) (١) .

واللغة ذات علاقة وثيقة بالتقسيم والتصنيف اللذين نتلمسهما في عالمنا الذي أوجدته عقولنا، ولا يرتبط هذا العالم بالعالم الحقيقي إلا عن طريق اللغة لأن التقسيم أو التصنيف (الذي نقره نحن لا يوجد في غير عالمنا؛ فتجاربنا في الواقع تأتي عن طريق المرونة أو الكيفية في الانطباعات التي تنظمها عقولنا بما يتفق والكيانات العامة التي نمت في حضارتنا أو التي تفضلها تلك الحضارة على غيرها؛ فالعالم الحقيقي مشيد لحدّ ما بصورة لا شعورية على العادات المستعملة في التعبير اللغوي في جماعة من الجماعات) (٢) . ولذلك كانت صلة اللغة بالحضارة صلة تأثير وتأثر؛ فهي تحدّد الحضارة

١ - الأنثروبولوجي الحضاري : ٦٨ .

٢ - الأنثروبولوجي الحضاري : ٧٩ .

وتتحدّد بها، وقد عبر عن ذلك سابير بقوله : (أن الانتقال من لغة الى أخرى يوازى نفسياً الانتقال من مقياس هندسي الى آخر)^(١) .

وتغلب على الحضارات الأصيلة خصائص موضوعية تميز بعضها من بعض وهي ألوان تتلون بها كل حضارة وتعرف بها . وتسعى الى الحفاظ عليها إذا كتبت لها الديمومة والاستمرار ؛ فالحضارة اليونانية -مثلا- يغلب عليها طابع العقل الفلسفي بخلاف الحضارة الرومانية التي اتسمت بطابع الادارة والتشريع والقانون . ونجد الحضارة الصينية القديمة تعنى بالاخلاق والسلوك في حين اتجهت الحضارة الفارسية القديمة الى فنون السياسة وادارة الدولة وشؤون الاقتصاد ولاسيما الزراعة والتجارة مع الاحتفاظ بعلم التاريخ والطب والفلك. أما الحضارة الاسلامية فاخذت اطيافا من الحضارات التي سبقتها وازافت اليها العلوم الدينية واللغوية والادبية وافادت من العلوم العقلية والفلسفية وبعض العلوم الصرفة العملية كالفلك والطب والهندسة والميكانيكا والكيمياء وغيرها . وصهرت ذلك كله في قالب اتسم بطابعها المخصوص بها .

ولما كانت اللغة أداة تدوين للحضارات برزت اهمية البحوث والدراسات التي اتخذت من علاقات اللغة بالتاريخ ولاسيما تاريخ الحضارة الانسانية هدفا لبيان وشائج الصلة بين اللغة والحضارة . وشهد بداية القرن العشرين هذا المنحى من البحث اللغوي القائم على مقولة الترابط بين الكلمات والاشياء

^١ - الأنثروبولوجي الحضاري: ٧٩.

(Words and Things) وصدرت اول صحيفة ألمانية مثل هذا العنوان ورفعت شعاراً مفاده أنه (لا يمكن الاستمرار في بحث تاريخ الكلمات منعزلاً عن تاريخ الحضارة) (١) .

ونسعى في هذا البحث المختصر الى أن نعالج ظواهر الترابط بين اللغة والحضارة من حيث المعايير الحضارية للغة بتقسيم هذه المعايير على ثلاثة اقسام :

الأول : المعيار الديني .

الثاني : المعيار الاجتماعي .

الثالث : المعيار الثقافي .

المعيار الديني :

يعد الدين من أهم العوامل التي تشكل الحضارات الانسانية ؛ فعقائد الجماعات والمجتمعات ونظراتها وافكارها تجاه العالم المادي وعالم ما وراء المادة وعلاقة الفرد بالمجتمع والسلوك الفردي المستمد من السلوك الجماعي والعادات والتقاليد والرسوم والاداب وغيرها تعد كلها نماذج واضحة وظواهر بيّنة لما تتركه العقائد والأديان من أثر مهم في تأليف حضارة ما من الحضارات وإقامة بنيتها الاساسية .

ونحن نلاحظ - على سبيل المثال - غلبة الدين على عوامل الحياة الأخرى عند شعوب الشرق الأدنى ، ومنها الشعوب السامية القديمة . وهذه الغلبة

١ - أولمان : دور الكلمة في اللغة : ١٩٤ .

تتضح في النظرة الى العالم وتفسيره على أنه (نظام متحد يدور حول الربوبية) ، قال موسكاتي : (هناك منحى ثابت من التفكير يتخلل الشرق الأدنى القديم كله ويحدد موقفه من الوجود . وهو غلبة الدين على بقية عوامل الحياة جميعا ، تلك العوامل التي تتخذ من الدين مصدراً مشتركاً للإلهام . وهذا الاتجاه العقلي يتمشى وفلسفة خاصة للتاريخ تفسر العالم على أنه نظام واحد يدور حول الربوبية) (١) .

وتظهر أهمية اللغة في هذه المسألة من حيث علاقتها بالدين لأن كثيراً من اللغات تقترن باديان معينة سواء أبقيت تلك اللغات حية مستعملة أم اختفت أم خالطتها لغات أخرى غيرتها بنسب متفاوتة عن أصولها القديمة . والأمثلة لذلك كثيرة ، منها اللغة العربية وارتباطها بالقرآن الكريم والعبرية القديمة والسريانية وارتباطهما بالكتاب المقدس واستعمالهما في الطقوس الدينية . وبقيت اللاتينية على الرغم من انقراضها مصونة في الطقوس الدينية في الكنيسة الكاثوليكية(٢) .

والعامل الديني يعد سببا مهما من اسباب وضع قواعد اللغات وصيانتها والحفاظ عليها عبر الاجيال ، ولعل السنسكريتية مثال واضح لذلك (٣) .

١ - الحضارات السامية القديمة : ٢٢٦ .

٢ - انظر: لوتز : علم اللغة (مجموعة آفاق المعرفة ص٢٩٨) .

٣ - علم اللغة : (مجموع آفاق المعرفة ص٣٠٤) .

ونجد تسرب العادات اللغوية ذات الدوافع الدينية الى بعض التقاليد الاجتماعية ومما يذكر بهذا الصدد أن (بعض المناطق الريفية في السويد تنزع الصفحة من كتاب المزامير وتغمس في العجين ثم تقدم الى الاغنام في صورة طعام أملاً في شفاؤها أو - قل - قصداً الى طرد الارواح الشريرة وإبعادها عنها) (١) .

وتشيع مثل هذه التقاليد في بعض المذاهب الدينية المحافظة وبين رجال الدين بخاصة ، وينقل عن الرهبان الترابيين (طريقة دينية) أن الجهر بالكلام متروك عندهم لعهد عاهدوا به أنفسهم (٢) .

وأهم مظهر من مظاهر أثر الدين في اللغة ما نجده من الألفاظ والعبارات والمصطلحات التي ظهرت في اللغات لأسباب دينية ؛ فقد شاعت في الفارسية الهخامنشية وهي الفارسية القديمة ألفاظ من هذا القبيل ن وتعد الأفسنتائية - وهي صنو الفارسية القديمة- لغة كتاب الأوستا المقدس عند الزردشتين ، وفيها كثير من الألفاظ والعبارات المختصة بالديانة الفارسية القديمة . ونجد في اليونانية القديمة ألفاظا تتضمن عقائدهم الدينية كأسماء الآلهة وأنصاف الآلهة والاساطير ذات الصفة الدينية . وخير ما يمثل الحضارات السامية القديمة ثلاث لغات هي العبرية والآرامية (ومنها السريانية) والعربية اذ

١ - انظر: أولمان : دور الكلمة في اللغة ص ١٧٥ .

٢ - علم اللغة : (مجموعة آفاق المعرفة ص ٢٩٤)

توافرت في كل منها ألفاظ وعبارات واصطلاحات دالة على عقائدهم واديانهم ولاسيما الديانات السماوية الثلاث : اليهودية والنصرانية والاسلام .
وفي العربية فيض من هذه الأشباه والنظائر فاقت به أغلب لغات العالم القديم، ونلاحظ ذلك على نحو مخصوص فيما يعرف بالألفاظ الاسلامية ، وهي طائفة من الكلمات التي تضمنت مفاهيم إسلامية في العقيدة والشريعة ظهرت في عربية ما بعد الاسلام كالإيمان والاسلام والكفر والنفاق والصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس والجهاد والقرآن والآية والسورة والأذان والإقامة والركوع والسجود ... الخ . قال ابن فارس : (كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم ؛ فلما جاء الله - جل ثناؤه - بالاسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع الى مواضع أخر بزيادات زيدت وشرائع شُرعت وشرائط شُرِطت ...) (١) ، الى أن قال : (فكان مما جاء في الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق ، وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والايمن وهو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وكذلك الاسلام والمسلم ، وإنما عرفت منه إسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء ، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر ... الخ) (٢) .

١ - الصاحبى : في فقه اللغة : ٧٨ .

٢ - الصاحبى : في فقه اللغة : ٧٩ .

ومن هذا القبيل ألفاظ كثيرة نجتزئ بأمثلة منها ^(١) ؛ فمن مصطلحات الصوم: الاعتكاف ((وهو لزوم المسجد والقعود عن المكاسب)) ، ومن مصطلحات الزكاة: الوَرِق -بكسر الراء- وهو الدراهم المضروبة ، ((وأما الوَرَق -بفتح الراء - فهو المال من دراهم أو إبل أو غير ذلك)) ، والنَّصَاب : ((ما وجبت فيه الزكاة من المال)) ، والزَّكَاز ((دفين الجاهلية)) . ومن مصطلحات الحج : القران : وهو ((أن ينوي العمرة مع الحج جميعاً)) ، والتمتع وهو ((أن يُحْرِمَ للعمرة قبل الحج)) ، والإفراد : ((أن يفرد فيه كل واحد منهما)) ، والاستلام : ((هو لمس الحجر الأسود) ، والهَدْيُ : ((ما يُهدى الى بيت الله الحرام من النَّعْم)) ، والبدنة : ((الناقة والبقرة تُهدى الى البيت)) . والتَّجْمِير : ((رمي الجِمار وهي الحَصَا ، واحدها : جَمْرَة ، وبها سميت جمرة العَقَبَة)) .

المعيار الاجتماعي :

ترتبط اللغة بالمجتمع ارتباطاً تكاملياً بمعنى أنه لا يتصور مجتمع إنساني ما خالياً من لغة تكون أفضل وسائل الاتصال بين أفرادهِ . واللغة بهذا المعيار من أهم العوامل في ظهور المجتمعات البشرية عبر التاريخ ، وهي لازمة لوجودها ولا يمكن أن تكون بمعزل عنها حتى من نواحيها ذات الصفات الفردية البحتة . قال لوتز : (أن الوجود البشري ملتحم باللغة وليس ثمة إنسان اعتيادي مجرد من هذه القابلية ولا يعرف أي نوع آخر من الكائنات

^١ - انظر: الخوارزمي : مفاتيح العلوم : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ .

تمتلكها اللهم إلا الطفل البشري الذي ينعم بغزيرة بدائية من هذا القبيل تؤهله للنطق (١) .

وتكتسب الألفاظ في أية لغة معانيها لعوامل مختلفة ، منها العامل الاجتماعي الذي يحدد مجموعات من الألفاظ ترتبط بشؤون المجتمع كالتطبقات الاجتماعية والمهن والحرف والعادات والتقاليد والتخصصات العلمية وشؤون الإدارة والصحافة ووسائل الاعلام والوظائف الحكومية فضلا عن الدائرة الضيقة للاستعمال اللغوي وأعني بها محيط الأسرة . ولكل من هذه الاتجاهات الاجتماعية ثروتها من الألفاظ واصطلاحاتها المخصصة بها . وقد أشار أولمان الى أهمية الألفاظ التي تتولد عن هذه المجموعات الانسانية بقوله : (كل مجموعة انسانية مهما صغرت لها لغتها الخاصة بها ؛ فهناك في دائرة الأسرة والمكتب والمصنع ومطاعم الجنود تتوالد الكلمات والعبارات والمعاني الهامشية والألغاز وطرق التعبير الأخرى التي تختص بهذه البيئات والتي يصعب إدراكها على من لا ينتمي إليها . وهذا هو الشأن أيضاً في المجموعات الأكبر والأوسع من تلك البيئات التي يربطها رباط المصالح المشتركة كالمهنة والحرفة والتجارة والانتماء الى مختلف فروع العلم والفن والصحافة والقوات المسلحة والكنيسة والهيئات الأكاديمية ... الخ ، فكل من هذه المجموعات ثروتها اللفظية الخاصة بها) (٢) .

١ - علم اللغة (مجموعة آفاق المعرفة ص ٢٩٣) .

٢ - دور الكلمة في اللغة : ١٥٠ .

وتتفرع اللغة الواحدة الى لهجات وتكتسب اللهجات خصائصها اللغوية بحسب المجموعات التي تستخدمها ، ومن العسير أن نضع حدوداً فاصلة واضحة بين لهجة وأخرى غير أن عامل التأثير والتأثر بين اللهجات من أكثر العوامل حسماً لمسألة العلاقات اللغوية الاجتماعية ؛ فالثروة اللفظية تنتقل من مجموعة الى أخرى ومن لهجة الى أخرى ، ولا يقتصر ذلك على الألفاظ العامة بل تتعدى حتى المصطلحات الفنية (حدودها الأصلية وتنفذ الى الثروة اللفظية العامة) (١) .

ومن المعروف في الدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة أن المجموعات الأساسية التي تكوّن الأسر اللغوية قد انحدرت من لغة واحدة مفترضة ؛ فالمجموعات الهندية الأوروبية - مثلاً - قد انحدرت من لغة واحدة هي اللغة الأم ، ومثلها المجموعات السامية . وافترض علماء اللغة المعنيون بهذه الدراسات التاريخية والمقارنة أن اللغة (الأم) تفرعت الى لهجات اختلفت بعداً وقرباً من لغة الأم التي انحدرت منها لأسباب مختلفة قد تكون إقليمية جغرافية نتيجة لهجرة الموجات البشرية ، وقد تكون حضارية أو دينية لتباين المجتمعات في حضارتها ومعتقداتها ... الخ ، ويكاد يتفق هؤلاء العلماء والباحثون على أن اللهجات تتحول الى لغات مستقلة بعد أجيال وحقب تاريخية غير أن الرابط بين الفروع والأصول لا ينفكي ولذلك بنوا دراساتهم

١ - دور الكلمة في اللغة : ١٥٠ .

على واقع ملموس من العلاقات اللغوية التي تثبت انحدار الفروع من أصل واحد تدعمه الوثائق التاريخية المتعددة .

ونلتمس من ذلك كله الوصول الى نتيجة مهمة مفادها أن العلاقات الاجتماعية بين المجتمعات التي تتكلم بلغات منحدره من أصل واحد تبقى من أهم الروابط التي تربط بين هذه المجتمعات . قال موسكاتي بصدد الشعوب السامية القديمة : (اللغة هي رباط الوحدة الأسمى ؛ فمن العسير تفسير الوحدة العضوية القوية بين اللغات السامية دون الإشارة الى الصلة الوثيقة بين الشعوب التي تتكلم بها) (١) .

ومن العوامل الاجتماعية المؤثرة في الاستعمال اللغوي ما يعرف اصطلاحات في علم اللغة الاجتماعي بـ (اللامساس) أو (حظر الاستعمال اللغوي) (taboo). وهذا المصطلح يطلق على منع استعمال ألفاظ وعبارات مخصوصة لأسباب دينية أو اجتماعية أو نفسية . ويشيع ذلك بين الجماعات أي إنها ظاهرة اجتماعية ليست فردية يلتزم بها مجتمع ما دفعا للضرر والخوف الناجمين عن استعمال مثل تلك الألفاظ وتلطيفا للكلام من باب حسن التعبير أو تقديسا لشيء ذي خطر أو درءاً لاشياء غير مقبولة في المجتمع أو عند الافراد من حيث الأثر النفسي السلبي (٢) .

١ - الحضارات السامية القديمة : ٢٢٥ .

٢ - دور الكلمة في اللغة : ١٧٧ .

ولا تقتصر هذه الظاهرة على المجتمعات البدائية كما قد يتوهم ذلك بل تتعداها الى المجتمعات الحضارية على اختلاف نصيبها من الحضارة (١) .
وأمثلة اللامساس كثيرة مختلفة متباينة في المجتمعات الانسانية نكتفي بذكر قليل منها فنجد قبيلة (النافاهو) Navaho - وهي قبيلة من قبائل الهنود الحمر تقطن بالجزء الشمالي الشرقي من ولاية أريزونا - تتجنب ذكر الميت خوفاً من الموت ولذلك عمدت في لغتها الى إضافة لاحقة الى اسم الميت كلما اضطر المرء الى أن يذكر اسمه (٢) . وفي مناطق استراليا البدائية يحظر الجهر بالقول على الأرامل لحرمة عليهم (٣) . وكان الأطفال في بلاد المجر في العصور الوسطى تطلق عليهم أسماء لتقيهم الأرواح الشريرة كأن يسمون (بالموت الصغير) أو (ليس حياً) أو (القذارة) أو (الوسخ) (٤) .
ونلاحظ مثل ذلك في بعض لهجات العامة العربية ولاسيما اللهجة العراقية اذ كانت تطلق تسميات من قبيل (زباله) و (جماله) و (بشبوش) و (لعبيي) و (خربيط) .. الخ دفعا للحسد أو لنذر التزمت به المرأة سعياً للإنجاب .

١ - دور الكلمة في اللغة : ١٧٤ .

٢ - الانثروبولوجي الحضاري (مجموع آفاق المعرفة ص ٧٧) .

٣ - علم اللغة (مجموع آفاق المعرفة ص ٢٩٤) .

٤ - دور الكلمة في اللغة : ١٧٥ .

ومن أمثلة اللامساس أسماء تجري وفاقا لفكرة الانتماء الطومبي (١) ؛ فحلت - مثلاً - محل الثعبان والذئب والثعلب والخنزير وغيرها من الحيوانات التي تعد طوطما لجماعة أو قبيلة ألقاها أخر خالية من مضمون الضرر والأذى في بعض اللغات (٢) . وربما كان (ابن عرس) من أكثر الحيوانات التي دلت عليه كلمات وعبارات في بعض اللغات الأوروبية من باب اللامساس وحسن التعبير تخوفا منه لأنه رمز الى الشر والشرير ؛ (فيطلق عليه الفرنسيون : (الجَمال الصغير) ، والألمان يسمونه (الحيوان الصغير الجميل) ، ويطلق عليه الايطاليون والبرتغاليون (السيدة الصغيرة) ، ويسمى عند الأسبان (اللقلاق) ، وعند الدانماركيين (الجميل) ، وكانت كلمة (اللطيف) في مرحلة تاريخية من مراحل اللغة الإنكليزية مرادفة للاسم (ابن عرس) (٣) .

ولاشك في أن العادات والتقاليد الاجتماعية لها تأثير مهم في استخدام بعض الألفاظ والعبارات ، فنلاحظ - على سبيل المثال - عناية قبيلة الونتو (من قبائل الهنود الحمر) بالتفريق بين الاسم الخاص واسم الجنس ، فأفراد هذه

١ - الطوطم (totem) شيء كحيوان أو نبات يتخذ رمزاً الى الأسرة أو العشيرة . أسرة أو عشيرة يجمع ما بينها افراد طوطم مشترك . والطوطمية (totemism) الايمان بوجود صلة خفية بين جماعة أو شخص وبين طوطم ما . نظام اجتماعي مبني على اساس الانتماء الطومبي .

٢ - دور الكلمة في اللغة : ١٧٦ .

٣ - دور الكلمة في اللغة : ١٧٦ .

القبيلة يهتمون بالتفريق بين (الرجل) أسماً خاصاً و (رجل) اسم جنس ، و (هذه البلوطات) و (البلوطات عامة)^(١) . ولا يعيرون اهتماماً يذكر بالتفريق بين المفرد والجمع كما نلاحظ ذلك في اللغة الانكليزية . ويظهر أن سبب ذلك ربما يعود الى أهمية التمييز بين الاسم الخاص واسم الجنس في العادات الاجتماعية للقبيلة المذكورة آنفاً .

وقد بالغت مجتمعات قبيلة بمركز الأبوة وسلطة الأب في الأسرة ولذلك تضمن اسم (الأب) عندها مدلولاً أوسع وأقوى مما تضمنه هذا الاسم في العصر الحديث^(٢) . وللعلاقات الأسرية أهمية مخصوصة في بعض اللغات ؛ فنجد - مثلاً - أن اللغة المجرية لم تستعمل قبل مائة عام اسماً واحداً يطلق على (الأخ) أو (الأخت) على حين استعملت ألفاظاً للدلالة على (الأخ الأكبر) و (الأخ الاصغر) و (الأخت الكبرى) و (الأخت الصغرى)^(٣) .

١ - الانثروبولوجي الحضاري (مجموع آفاق المعرفة ص ٧٧) .
٢ - دور الكلمة في اللغة : ١٩٩ .
٣ - دور الكلمة في اللغة : ١٩٩ .

المعيار الثقافي :

الثقافة تمثل أهم المظاهر للعلاقة بين اللغة والحضارة لأنها المضمون العلمي والعقلي للحضارة فضلا عن اكتساب الخبرة عن الآخرين ؛ فالعلوم والمعارف والفنون والخبرات البشرية بمختلف اتجاهاتها وأنواعها وأقسامها وأصنافها تدون باللغة وتصل الى الآخرين عن طريق اللغة ولولا التدوين والمواصلة والاتصال لما وصلت إلينا حضارات الأمم القديمة ولما حصل التمازج الحضاري بين الأمم ولما تأثرت ثقافات بثقافات أخرى أو أثرت فيها.

والثقافة من حيث مفهومها الاجتماعي معرفة مكتسبة من الآخرين ، ووفقا لهذا المفهوم نلاحظ عنصر الخبرة واكتسابها ، ولذلك ينظر الى الثقافة في علم اللغة الاجتماعي على أنها (نوع من المعرفة نتعلمها من الآخرين سواء من خلال التعليم المباشر أو مراقبة سلوك الآخرين) (١) ، وبعبارة مختصرة هي (معرفة مكتسبة اجتماعيا) (٢) ، و لذلك قسمت المعرفة الثقافية بحسب المنظور الاجتماعي على ثلاثة أقسام (٣) :

١- المعرفة الثقافية التي نتعلمها من الآخرين .

١ - هـسن : علم اللغة الاجتماعي : ١٤٢ .

٢ - علم اللغة الاجتماعي : ١٣٥ .

٣ - انظر : علم اللغة الاجتماعي : ١٣٧ .

٢- المعرفة المشتركة غير الثقافية ، وهي ضرب من المعرفة يشترك فيها الناس داخل الجماعة نفسها أو في العالم أجمع ولكنها ليست من المعارف التي نتعلمها من الآخرين.

٣- معرفة غير مشتركة وغير ثقافية ، وهي معرفة تقتصر على الفرد . وبناء على هذا التقسيم يظهر لنا أن جوانب من اللغة هي معرفة ثقافية أي الجوانب التي ينبغي أن نتعلمها من الآخرين ، أما الجوانب الأخرى فلا تمثل لنا معرفة ثقافية لأنها إما مشتركة غير ثقافية وإما فردية غير ثقافية . ورب سائل يسأل عن الجهود الفردية لاستحصال الثقافة ، هل تعد مشتركة؟ الجواب : نعم ، لاننا نستحصل ذلك عن معارف الآخرين وخبراتهم ، ويدخل الإبداع المتصف بالفردية أيضاً في هذا المجال لأنه لا إبداع من غير استحصال معارف الآخرين ويصح هذا الكلام إذا كان العلم اكتسابياً بخلاف العلوم الدينية .

وتنتقل العلوم والمعارف المختلفة بين جيل وآخر أو بين شعب وآخر عن طريق الثروة اللفظية للغة ؛ فاللغات التي لها رصيد وفير من هذه الألفاظ المتضمنة شتى المعارف والخبرات أكثر تأثيراً في غيرها من اللغات التي أقل منها رصيماً. وقد عبّر أولمان عن أهمية الثروة اللفظية للغة قائلاً : (... وقد اصبحنا الآن ننظر الى الثروة اللفظية للغة على إنها أشبه ما تكون بإطار أو نظام من النظم التي ورثناها عن أسلافنا والتي تشكل وجهات نظرنا الخاصة فيما يتعلق بالعالم وتعديل هذه الوجهات على حسب الظروف . إن

هذه الثروة هي نتاج جهود الأجيال العديدة ووسيلة من وسائل نقل القيم القومية والعقائد وطرائق الأشياء وتفسيرها عبر السنين) (١) . ولذلك يعد المستوى الدلالي أو جانب المعنى من اللغة من أبرز المظاهر الممثلة للعلاقة السببية المتبادلة بين اللغة والثقافة . ولدراسة المعنى سبل متعددة من أفضلها دراسته من حيث علاقته بالثقافة والفكر (٢) .

ومن المظاهر اللافتة للنظر أثر الثقافة في بعض الظواهر من الاستعمال اللغوي في المجتمعات أو الجماعات التي تتصف بصفات حضارية متفاوتة أو لها نصيب ولو قليلاً من التحضر ؛ فنحن نلاحظ - مثلا - في تاريخ اللهجات العربية خلافاً أو تناقضاً في بعض الأحيان في استعمال ظواهر لغوية بين القبائل البدوية وتلك التي استقرت وأخذت بنصيب من التحضر والتأقلم ، فظاهرة الأعراب التي تميزت بها العربية الفصيحة وهي عربية النصوص الصحيحة غير المشكوك بها للشعر الجاهلي وعربية القرآن الكريم التزمت قواعد الأعراب على أواخر الكلمات . وكان هذا الالتزام من صفات اللغة الأدبية ومقياساً لفصاحة التزمت به أغلب القبائل العربية المتبدية منها والمتحضرة على اختلاف لهجاتها في المحافل العامة والمناسبات الأدبية

١ - دور الكلمة في اللغة : ٢٠١ .

٢ - علم اللغة الاجتماعي : ١٣٠ .

وغيرها . ولم تكن تلك القبائل على التزام صارم بظاهرة الأعراب في لهجاتها الخاصة بل في كلامها الاعتيادي في غير المحافل والمناسبات (١) .

ويلاحظ على القبائل البدوية بعامة ميلها الى الضمة في الكلمات المروية بالضم والكسر معاً على حين مالت القبائل المتحضرة الى الكسر لان الضمة (مظهر من مظاهر الخشونة البدوية) (٢) . وظاهرة المد أكثر شيوعاً في القبائل البدوية منها في القبائل المتحضرة ، وهي ظاهرة صوتية في العربية أحد اسبابها الانسجام الصوتي (Vowel Harmony) كإمالة الألف الى الكسرة في نحو كلمة (كتاب) لكي ينسجم مع الكسرة التي تلي الكاف . والظاهر أن القبائل المتحضرة كانت تعنى (بتحقيق الأصوات ومنع تأثرها بعضها ببعض) (٣) .

والشدة والرخاوة ظاهرتان صوتيتان من صفات الوحدات الصوتية أو (الحروف) من حيث النطق، ويلاحظ على القبائل البدوية إنها أكثر ميلاً الى الأصوات الشديدة على حين فضلت القبائل المتحضرة الأصوات الرخوة، لأن الشدة في الصوت مظهر من مظاهر الغلظة وجفاء الطبع وتتصف الأصوات الشديدة بسرعة النطق والأداء . وهذا أليق بصفات الأعراب وميلهم في حين

١ - انظر : إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية ص ٨٤ .

٢ - في اللهجات العربية : ٩١ .

٣ - في اللهجات العربية : ٩١ .

فضلت القبائل المتحضرة الأصوات الرخوة لانسجام مثل هذه الأصوات مع البيئة الحضرية^(١) .

ومن هذا القبيل صفتان صوتيتان أخريان هما الجهر والهمس إذ مالت القبائل البدوية الى الأصوات المجهورة^(٢) ، وربما بالغوا بالجهر وعلو الصوت الى ما يشبه الصياح وهو خلاف التأدب ، ولذلك ورد النهي في القرآن الكريم عن مثل ذلك في الكلام مع النبي (ص) . قال الله تعالى في سورة الحجرات^(٣):
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * أَن الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)) ، لأن نقرأ من الأعراب كان ينادي رسول الله (ص) وهو في إحدى الحجرات بصوت جهوري عالٍ يقرب من الصياح وبعبارة (يا محمد)^(٤) خالية من صفة النبوة أو الرسالة ، فنهى الله تعالى المسلمين عن ذلك وحضهم على التأدب في كلامهم وسلوكهم مع النبي (ص) .

١ - في اللهجات العربية : ١٠٠ .

٢ - في اللهجات العربية : ١٠٨ .

٣ - الآيات : ٢ ، ٣ ، ٤ .

٤ - انظر: الواحدي النيسابوري ، أسباب النزول ص : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ (مطبعة هندية - مصر ١٣١٦ هـ) .

وخلافاً للجهر في الأصوات مالت القبائل المتحضرة الى الأصوات المهموسة لأنها تلائم البيئة الحضرية ، وربما كانت الصحراء سبباً آخر لميل الأعراب والقبائل المتبدية الى الأصوات المجهورة أكثر من الأصوات المهموسة لأنها تتسع للجهر بالقول وإيصاله الى البعيد لعدم البنيان والأسواق وازدحام الناس وما أشبه مما تتصف به البيئات الحضرية عادة.

وتفخيم الأصوات من عادات القبائل المتبدية لان التفخيم مظهر من مظاهر التعظيم والعنجهية والفجاجة التي اشتهرت بين الأعراب ، فمالت القبائل البدوية الى استعمال الأصوات المفخمة^(١) خلافاً لميل القبائل المتحضرة الى استعمال الأصوات المرققة لان الترقيق دليل على الحضارة والتمدن.

ومسميات الأشياء بما في ذلك مصطلحات العلوم والفنون المختلفة مظهر آخر من مظاهر العلاقة بين اللغة والثقافة ، وقد تأثرت اللغات بعضها ببعض منذ فجر الحضارات في تاريخ الإنسانية ؛ فالبابليون - مثلاً - أطلقوا على مجموعات من الكواكب أسماء من لغتهم اخذها عنهم فيما بعد اليونان . ومن ثم انتقلت الى حضارات أخرى^(٢) .

واستوعبت الآرامية ثقافة عصرها بعناصرها المعروفة في ذلك الحين ، وانتقلت هذه الثقافة الى اليونان والرومان . وللآراميين فضل التأليف بين العناصر الثقافية للبابليين والفرس والعبريين ، وعنهم أخذتها المسيحية وأوصلتها الى

١ - في اللهجات العربية : ١٢٥ .

٢ - الحضارات السامية القديمة : ٧٩ .

الغرب (١) . ووضع اليونان قواعد لغتهم بتأثير فلسفي ولغوي (٢) وأصبحت هذه القواعد فيما بعد مثالا يحتذى به في قواعد اللغة المدرسية الغربية . ونتيجة لعاملي التأثير والتأثر في تبادل الثقافات بين الحضارات أثرت لغات في لغات أخرى وتأثرت بها سواء من حيث المضامين الثقافية في الألفاظ عن طريق ما يسمى بـ(الاقتراض) اللغوي أم من حيث الكتابة باقتراض الأبجديات ، ولا نعدم حتى الأثر الصوتي والصرفي وبعض البنى النحوية التركيبية . ومن المعروف أن العربية كان لها النصيب الأوفى من بين اللغات في هذا المضمار بعد أن سادت لغة للثقافة والعلوم في الشرق الأوسط وأواسط آسيا وتعدتها إلى المغرب العربي وعبرت عن طريق إسبانيا إلى نواحي فرنسا وغيرها؛ فقد أثرت العربية في نحو (مائة لغة ولهجة في أنحاء أوربا وأميركا وأستراليا ، ونحو خمسين من شعوب آسيا وإفريقيا) (٣) . وكان تأثيرها أكثر وأبلغ في نحو (٣٧) (٤) لغة من حيث اقتراض الألفاظ منها واتخاذ هذه اللغات الأبجدية العربية في كتابتها. وتعد الفارسية الحديثة أي الفارسية التي ظهرت بعد الإسلام وحلت محل البهلوية من أهم اللغات تأثراً بالعربية إذ

١ - الحضارات السامية القديمة : ١٨٧ .

٢ - علم اللغة (مجموع آفاق المعرفة ص ٣٠٤) .

٣ - رفائيل نخلة اليسوعي : غرائب اللغة العربية : ١١٩ .

٤ - انظر : غرائب اللغة العربية : ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

كونت العربية ما يقرب من نصف كلماتها فضلا عن استعمالها الحروف العربية في الكتابة.

ومن هذه اللغات واللهجات سوى الفارسية : التركية والكردية والأفغانية والبلوشية والكشميرية والأذربيجانية والهندوستانية والسندية (الإقليم الشمالي من ولاية بومباي في الهند) والأزبكية (تركستان وآسيا المركزية) .

واقترضت لغات شرقية وغربية بعض الألفاظ المخصوصة بالعلوم والفنون والمعارف من العربية ، وكانت من أهمها في المشرق : الفارسية والطاجيكية والأفغانية والبلوشية ولغة الأردو والتركية . وتأثرت بالعربية لغات غربية بعيدة من حيث مواقعها الجغرافية عن مواضع نفوذ العربية في المشرق كالإيطالية والاسبانية والبرتغالية والفرنسية والإنكليزية . ونكتفي بذكر بعض الأمثلة من الألفاظ ذات الأرومة العربية اقترضتها اللغة الإنكليزية ، وهي ألفاظ ذات مدلولات علمية^(١) :

الإكسير = elixir

الإنبيق = alembic

الجبر = algebra

الخوارزمي = algorithm (= تدل الكلمة على ضرب من الحساب)

السّمْت = azminuth

العَضّادة = alidad

^١ - انظر : غرائب اللغة العربية : ص ١٣٢ وما بعدها .

الكيمياء = alchemy

ولم يقتصر الأمر على تأثير العربية في غيرها من اللغات بل تأثرت هي أيضاً بلغات واقتضت العشرات من الألفاظ ولاسيما الألفاظ ذات المضامين العلمية والعقلية والألفاظ المخصوصة بالحضارة المادية من قبيل المأكل والمشرب والملبس والدور والقصور وبعض الألفاظ المتعلقة بالمهن والحرف والصناعات والزراعة والتجارة والادارة .

وأثبتت البحوث والدراسات في هذا الميدان أن العربية اقتضت أغلب معرباتها من الفارسية تليها السريانية ، وبعدهما تأتي اللغات الأخرى كاليونانية واللاتينية .

ونكتفي بذكر بعض المعربات (١) ؛ فمن الألفاظ المعربة من الفارسية :

جُوداب = معرب (كُوداب) : حساء يعمل من الأرز واللحم ويؤدم بالخلّ

والدُّوشاب = (عصير الفاكهة المغلي الغليظ)

الجَلَّاب = معرب (غلاب = golab) : ماء الورد

ومن أنواع الحلوى : (جَوَزِينج) معرب (غوزينة = gawzena) ، و (لَوَزِينج)

معرب (لَوَزِينه) .

ومن المعربات الأخرى :

بهرامج = معرب (بهرامه) ، وهي صَفْصَاف المِسْك (نوع من اشجار المسك

أزهاره طيبة الرائحة) .

١ - انظر: المعربات الرشيدية : ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ .

أَنْبَجَ = معرب (أنبه) : فاكهة معروفة في الهند
 ساج = معرب (ساك) : وهو شجرة عظيمة معروفة في الهند
 راه نامج = معرب (راه نامه) ، وهو مكتوب ينظر فيه المعلم والربان ويقود
 السفينة في البحر
 برنامج = معرب (برنامه) ، وهو الورقة الجامعة للحساب .
 ومن المعرب السرياني (١) :
 أبيل = راهب (*abîla*)
 إصاح = قسم من التوراة أو الإنجيل (*Shaha*)
 أُنُوم = واحد الأقانيم الثلاثة في العقيدة المسيحية وهي الأب والابن وروح
 القدس (*qnoûma*)
 باعوث = صلاة في الثاني من أيام عيد الفصح عند بعض الطوائف
 (*ba'auta*)
 بيعة = كنيسة = (*bî'ta*) . وأصل معناها (البيضة) أو القبة لأن قبب
 الكنائس القديمة كانت تشيد على هيئة البيضة
 جليان = كشف ؛ اسم سفر الرؤيا للقديس يوحنا الرسول
 (*gueliana*) : وأصل المعنى : (رؤيا)
 شحيم = كتاب فرض الكهنة عند الموارنة والسريان (*chhîma*)
 وأصل المعنى : (بسيط)

١ - غرائب اللغة العربية : ص ١٧٢ وما بعدها .

ومن المعرب اليوناني (١) :

فلسفة = (filocofos)

هَيُولَى = المادة في المفهوم الفلسفي : (ili)

وبفعل الحضارة الاسلامية التي ظهرت بعد الاسلام وترسخت أصولها وجذورها في القرون الأربعة الأولى ظهرت في العربية مصطلحات المعارف والعلوم والفنون على شتى مناحيها واتجاهاتها ، وتضمنت ألفاظ عربية تعد بالمئات دلالات ثقافية علمية لم تكن معروفة من قبل ، ونكتفي بذكر الأمثلة الآتية :

من مصطلحات العلوم اللغوية (٢) :

الرَّفْع = ما وقع في أعجاز الكلم منوناً ، نحو قولك : زيدٌ

الضَمّ = ما وقع في أعجاز الكلم غير منون ، نحو : يفعلُ

التوجيه = ما وقع في صدور الكلم ، نحو عين (عَمَرَ) ، وقاف (قُنْم)

الحَشْو = ما وقع في الأوساط ، نحو جيم (رَجُلٌ)

النصب = ما وقع في أعجاز الكلم منوناً ، نحو : (زيداً)

الفتح = ما وقع في أعجاز الكلم غير منون ، نحو باء (ضَرَبَ)

الحَفْض = ما وقع في أعجاز الكلم غير منون ، نحو لام (الجَمَلِ)

الجَزْم = ما وقع في أعجاز الأفعال المجزومة ، نحو باء (اضْرَبَ)

١ - غرائب اللغة العربية : ٢٦٣ .

٢ - مفاتيح العلوم : ٦٥ ، ٦٦ .

التسكين = ما وقع في أوساط الأفعال نحو فاء (يَفْعَل)

ومن المصطلحات العروض (١) :

العُرُوض = الجزء الأخير من النصف الأول من البيت ، وبها سمي (علم العروض)

الصَّرْب = هو الجزء الأخير من البيت

السَّبَب الخفيف = حرفان أولهما متحرك والثاني ساكن ، مثل (قَدْ)

السبب الثقيل = حرفان متحركان

الوَتْد المجموع = ثلاثة أحرف الأول والثاني متحركان والثالث ساكن مثل (لَقَدْ)

الوتد المفروق = ثلاثة أحرف الأول والثالث متحركان وبينهما ساكن مثل (قال)

الفاصلة الصغرى = أربعة أحرف ثلاثة منها متحركة والرابع ساكن مثل (ولَقَدْ)
الفاصلة الصغرى = خمسة أحرف ، أربعة منها متحركة والخامس ساكن مثل (ضَرَبَكُمْ)

ومن مصطلحات النثر الفني (الكتابة الأدبية) (٢) :

الترصيع = أن يكون الكلام مسجعاً متوازن المباني والأجزاء التي ليست بآواخر كقول القائل: (حتى عاد تعريضك تصريحاً، وتمريضك تصحيحاً)

١ - مفاتيح العلوم : ١٠٢ ، ١٠٣ .

٢ - مفاتيح العلوم : ٩٦ ، ٩٧ .

التضريس = ضد الترضيع ، وهو الآ تراعي توازن الألفاظ ولا تشابه مقاطعهما
مثل كلام العامة

الاشتقاق = هو الذي يسمى في الشعر : (المجانسة) ، كقول القائل : (لا
ترى الجاهل إلا مُفْرِطاً أو مُفَرِّطاً) .

المضارعة = أن يكون شبيهاً بالاشتقاق ولا يكونه كقول القائل : (ما
خصصتني ولكن حسستني) .

التبديل = كقول بعضهم في دعائه : (اللهم أغنني بالفقر إليك ولا تفقرني
بالاستغناء عنك)

ومن مصطلحات علم المنطق والفلسفة (١) :

الكيفيات الأول = هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة

مكان الشيء = هو سطح تقعر الهواء الذي فيه الجسم ، أو سطح تقعر
الجسم الذي يحويه هواء

الزمان = مدة تعدها الحركة ، مثل حركة الأفلاك وغيرها من المتحركات

الجسم الطبيعي = هو المتكن الممانع المقاوم ، والقائم بالفعل في وقته ذلك ،

كهذا الحائط وهذا الجبل وذلك الإنسان

الجسم التعليمي = هو المتوهم الذي يقام في الوهم ويتصور تصوراً فقط

الحواس الخمس = البصر والسمع والذوق والشمّ واللمس

١ - مفاتيح العلوم : ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

الْكُمُون = هو استتار الشيء عن الحسّ كالزبد في اللبن قبل ظهوره وكالدهن في السمسم

الاستحالة = أن يخلع الشيء صورته ويلبس صورة أخرى مثل الطعام الذي يصير دماً في الكبد

الإرادة = قوة يقصد بها الشيء دون الشيء

المُحال = كجمع المتناقضين في شيء واحد في زمان واحد في جزء واحد وإضافة واحدة

خلاصة لأهم النتائج :

١- أن المعيار الثقافي من أكثر المعايير الحضارية أهمية في بيان العلاقة بين اللغة والحضارة.

٢- تتخذ اللغة أهميتها التاريخية لكونها أداة تدوين وإيصال للحضارات البشرية عبر التاريخ ، وهي الأداة الفاعلة في تكامل الحضارات وترابطها وتأثير بعضها في بعض.

٣- أن بعض الحضارات ومنها الحضارات السامية القديمة كانت لها نظرة مخصوصة في تفسير العالم تقوم على انه نظام واحد (يدور حول الربوبية) ، وقد تأثرت لغات مثل هذه الحضارات بهذه النظرة ولا يمكن تفسير ثقافتها وعقائدها ورؤيتها للعالم الا من خلال وحدة النظام هذه .

٤- أن من اهم المظاهر الثقافية في اللغة تلك الألفاظ ذات المدلولات العلمية والفنية والأدبية أو كما يعبر عنها بمصطلحات العلوم والفنون . وقد

تتاقلت اللغات ولاسيما لغات الحضارات الكبرى في العالم هذه الألفاظ عن طريق الاقتراض اللغوي.

٥- تعد الحضارة ولاسيما الجانب الثقافي منها من أهم العوامل في ظهور المصطلح العلمي والفني في اللغات.

٦- من العوامل الاجتماعية المؤثرة في الاستعمال اللغوي ما يعرف اصطلاحاً في علم اللغة بـ (اللامساس) أو حظر الاستعمال اللغوي ، وهذا العامل يفسر المناسبة بين اللغة والحضارة والوشائج التي تربط بينهما.

٧- إن العلاقة بين اللغة والثقافة ينبغي أن ينظر إليها من عدة أوجه ، منها المفهوم الاجتماعي للمعرفة ونعني بها المعرفة المشتركة بين الفرد والمجتمع ، وتكتسب هذه المعرفة بالتعليم من الآخرين سواء بالتعليم المباشر أم بمراقبة سلوك الآخرين .

٨- إن من النتائج التاريخية للعلاقة بين اللغة والحضارة ظهور ما يسمى بمبدأ (التأثير والتأثر) بين الحضارات تبعا للغاتها ، وقد انعكس ذلك واضحاً في الجوانب اللغوية فضلاً عن الجوانب الأخرى للحياة العامة.

المبحث الثالث

(الرمز)

ودلالته الحضارية والثقافية

تمهيد :

الرمز هو أن يشار الى معنى ما من المعاني بكلمة أو صورة مركبة وغير مركبة أو تمثال أو نصب أو شكل من الأشكال أو لون من الألوان أو صفة أو سمة أو علامة ... الخ .

ويعد المرموز إليه معنى مادياً يلتمسه الإنسان بالمشاهدة ، أو معنى ذهنياً يتصوره الإنسان ويعبر عنه بالتصوير المجسد وغير المجسد .

ومصطلحات (الرمز) و (الرمزية) و (علم الرموز) و (علم العلامات والإشارات) تدخل كلها ضمن مفاهيم مترابطة يتناولها بالبحث علماء اللغة والحضارة والأنثروبولوجيون والإثنولوجيون المعنيون بثقافة الإنسان منذ نشأته وتطورها وعلماء التاريخ والاجتماع وغيرهم ممن يهتم بالعلوم الإنسانية ذات الصلة الدينية والثقافية والاجتماعية.

وينبغي أن نشير في هذا المجال الى فوارق دقيقة للرمز والرمزية في مجالين محددين هما الأنثروبولوجيا وعلم اللغة ؛ فالرمزية (Symbolism) لها مفهومان في الأنثروبولوجيا : مفهوم خاص يتضمن فيه صفة (رمزي) معنى محدوداً يختص (بوصف الأعمال الثقافية التي تمتاز بقيمة تعبيرية كالأساطير والشعائر والمعتقدات) . ومفهوم عام تعود فيه صفة (رمزي) الى (التطور التدريجي لتكوين حالة الثقافة التي تعني إضفاء معنى على الحياة . ويختار كل مجتمع معاني معينة ويصنف ويجمع ويقرب بين الأمور

الحقيقية على وفق طريقته الخاصة التي تعد في الوقت نفسه إطار المفهومية التي يمنحها لذاته وعامل التواصل بين أفرادها) .

وأما علم اللغة فإنه يعنى بالرمزية على أنها (إشارة الى اللغة على أساس كونها رموزاً للأشياء أو الأشخاص أو الأفكار أو الأعمال) . واستعمل دي سوسير مصطلح (Semiology) بمعنى علم العلامات أو الرموز ليشرح نظريته في اللغة إذ جعلها تنتمي الى مجموعة كبرى من الأنظمة الرمزية التي تتألف منها الثقافة (Culture) . والعلم الذي يدرس هذه الأنظمة يطلق عليه علم السيميولوجيا . ويعود هذا المصطلح من حيث الاشتقاق الى أصل الكلمة اليونانية (Semeion) التي تعني العلامة . وقد عرّف دي سوسير اللغة بأنها (نظام من العلامات System of Signs يعبر عن افكار المجتمع)؛ فاللغة بهذا المفهوم تقع عنده ضمن مجموعة أخرى من الأنظمة الاجتماعية ، وليست وحدها الوسيلة الى تحقيق التواصل . وهناك أنظمة غير كلامية (Non-Verbal Signs system) أو أنماط سلوكية تصحبها وتدعمها تصلح للاتصال كنظام الإشارات الجسمية ، ونظام الملابس ، ونظام الطعام ، والتعبير الصوتي في نغمات الصوت ودرجته من حيث العلو والانخفاض ، والهيئة الجسمية للمتخاطبين ، والتجاور والتقارب والتلامس بين المتكلمين ، وغيرها من الأنظمة التي تقوم بوظيفة التواصل في المجتمع وتخضع للعرف الاجتماعي . وتعمل هذه الأنظمة متفقة أو مستقلة بحسب

السياق الثقافي لكل مجتمع . وبذلك جعل دي سوسير اللغة جزءاً من علم أعم أطلق عليه علم العلامات.

وظهرت نظرية أخرى عكس نظرية دي سوسير ؛ فقد ذهب بعض المعنيين بعلم العلامات كالأنثروبولوجي الأمريكي (بيرد وستل) Birdwhistell والناقد الفرنسي (رولان بارت) Roland Barthes الى أن علم العلامات تابع لعلم اللغة وليس متبوعاً ، (لأن أنظمة العلامات التي يعرفها المجتمع تشبه الى حد كبير نظام اللغة ، وهي في حقيقتها لغات على اختلاف مادتها) .

ومن المهم الإشارة الى مصطلح آخر رديف لما استعمله دي سوسير ، وهو (Semiotics) ، ويعود هذا المصطلح الى الفيلسوف الأمريكي (تشارلز بيرس) C.S.Peirce وقد أطلقه على ما دعا إليه من نظرية عامة في العلامات. وشاع المصطلح في الدراسات اللغوية الأمريكية وتزامن استعماله مع استعمال مصطلح دي سوسير . والفرق بين النظرتين أن دي سوسير اتخذ منحى الوظيفة الاجتماعية للعلامة أو الإشارة في حين اتخذ بيرس منحى الوظيفة المنطقية لها.

إن الحضارات على اختلافها من حيث الزمان والمكان والخصائص والعناصر والأصالة والتبعية تشتمل على كنوز لا تفتنى من المدلولات الرمزية تعبر عن مضامينها المختلفة تجاه الإنسان والطبيعة والسلوك الفردي والجماعي والنظرة الى ماضي الإنسان وحاضره ومستقبله ، يضاف الى ذلك

كله ما تتضمنه من أفكار وآراء ومعتقدات تجاه ما هو أبعد من الطبيعة أي ما وراء الطبيعة كالعقائد الدينية و (عالم اللامرئيات) والحياة الأخرى بعد الموت والتوحيد والشرك وتعدد الالهة والملائكة والجن والشياطين والجنة والنار والثواب والعقاب... الخ.

واتصفت بعض الحضارات بطابع رمزي كما يلحظ ذلك في فنون بلاد الرافدين إذ استعمل سكان العراق القدامى الرمز استعمالاً واسعاً و (صار الجزء المميز يستعمل للدلالة على كلِّ بأسره) ؛ فالجبل - مثلاً- يرمز إليه بحجارة وضعت إحدهما فوق الأخرى ، ويرمز الى الماء بخطوط متموجة تقطعها دوامات صغيرة أو صور أسماك .

ويشتمل هذا المبحث على الظواهر الأساسية للرموز كالأساطير والأحلام والعادات والحركات والأشكال والصور والألوان والأعداد مستقاة من العناصر العامة التي يمكن إجمالها في الموضوعات الآتية :

١-الآلهة والأساطير ٢- الطبيعة السفلية (الأرض وما فيها)

٣-الطبيعة العلوية (السماء وما فيها) ٤-العادات والتقاليد

٥-الألوان والأعداد ٦-الأماكن والحروف والأشكال والشارات والحالات .

الآلهة والأساطير :

مثلت الآلهة أكثر مضامين الأساطير في الحضارات القديمة لارتباطها بأهم عنصر للوجود وديمومته عند الإنسان وهو الدين ؛ فالدين واللغة ركنان أساسيان في بناء الحضارات وتكونها وتواصلها . وترتبت على

الدين مقومات الحياة الفردية والجماعية عند الإنسان منذ وجوده في الأرض مروراً بالعصور البدائية ثم فجر التأريخ ونشأة الحضارات البشرية ثم ظهور الحضارات المترقية ما ساد منها وما باد .

ولو نظرنا الى مجمل الأساطير عند الشعوب القديمة لوجدناها تقوم على أسس عامة تجمعها وأهم ما يلحظ في هذا الشأن مجموعة من العناصر السببية والتقابلية والتفسيرية تدور كلها حول فلك واحد هو المصير. وفيما يأتي ذكر لأهم هذه العناصر :

١- نظرية الخلق وتفسير وجود الإنسان في الحياة ومسيره ومصيره فيها أو فيما بعدها.

٢- عزو الظواهر المختلفة المتعلقة بالإنسان وما حوله الى علل وأسباب ومسببات .

٣- كيف للإنسان أن ينجو بنفسه من الجبرية المطلقة التي فرضتها آلاف الآلهة التي اختص كل واحد منها بظاهرة من الظواهر العامة حول الإنسان أو بما أودعته في نفسه من المعاني المجردة عن المادة والحواس؟

٤- صراع الالهة بعضها مع بعض هو مثال لصراع الإنسان مع نفسه أو مع غيره.

٥- لماذا اتجه الإنسان في سلم الترقى الحضاري الى مبدئين متناقضين في رؤيته للطبيعة وما بعدها ؟ إذ اتجه المؤمنون بوجود آخر فيما بعد

الطبيعة الى العقيدة التوحيدية سواء أكانت عديدة باختصار عدد الآلهة تدرجاً الى الاعتقاد بآله واحد أكبر وأقوى يتحكم بالآلهة الأخرى وبالبشر أم كانت من حيث المضمون بوجود إله واحد لا شريك له يسمو على الحس والمشاهدة والتمثيل والتشبيه ، ويعد هذا من أرقى الديانات والعقائد، وهو ما جبل الله تعالى عليه الإنسان في فطرته ولكن الإنسان أخطأ الهدف والوسيلة ، فبعث الله الأنبياء مبشرين ومنذرين وأنزل الشرائع . وترى في الجهة الأخرى الملحدين الطبيعيين الماديين الذين أنكروا وجود الخالق واكتفوا بالخلق وأنكروا وجود أي شيء آخر يسمى بما وراء الطبيعة.

وازدحمت أساطير الأمم القديمة بأسماء الآلهة ونعوتها وصفاتها وأعمالها ، وقسمت على مراتبها من حيث الأهمية بحسب نظرة الشعوب إليها. وكانت شعوب بلاد الرافدين ومصر القديمة وبلاد فارس والصين والهند والإغريق والرومان أوفر حظاً من غيرها من حيث الأساطير والآلهة ، لأن الدراسات الأنثروبولوجية والآثارية والتأريخية والحضارية بعامة قد انصبحت على الاهتمام بها أكثر من غيرها فوصلنا من تلك الشعوب الشيء الذي يعتد به في هذا المجال.

ولنضرب مثلاً لشعوب وادي الرافدين في العصرين المتداخلين السومري والأكدي إذ كانت تعتقد بثالوث إلهي أسمى من غيره يتكون من السماء متمثلة بـ(أنو = Anu) ، والهواء متمثلاً بـ(إنليل = Enlil) ، والأرض

متمثلة بـ (إنكي = Enki أو إيا = Ea) . يضاف الى ذلك ثالوث سماوي آخر يتألف من أجرام سماوية هي الشمس والقمر والزهرة .
و (إنليل) أو (إليل = Ellil) من أكبر آلهة السومريين . والكلمة مركبة من (إن + ليل = En-Lil) ومعناها (سيد الريح) و (إيا) مركبة من (E-a) ومعناها (بيت الماء) و (إنكي) مركبة أيضاً من (إن + كي)
(En-Ki) ومعناها (سيد الأرض) .

وكان (أدد=Adad) إلهاً آخر من آلهة الطبيعة عندهم ، وهو إله العاصفة بما يمثله من رحمة في إسباغ الغيث والفيضان النافعين للزروع وحياة الإنسان ، أو من عقاب في الإعصار والبرق المدمر . وعبادة إله العاصفة والبرق والرعد من العبادات القديمة عند السومريين والآكديين إذ سمي في السومرية (إشكر = Ishkar) وفي الأكديّة (أدد) . ورمزوا إليه في كتائبهم بالرمز (IM) ومعناه : الريح . وهذا الرمز أطلق أيضاً على الآلهة الأجنبية التي عبدت على أنها آلهة للعاصفة مثل (برياش = Buriash) عند الكاشيين ، و (تشوب = Teshub) عند الحوريين ، و (بعل) عند الكنعانيين ، و (هدد) عند الآراميين وأهل أوغاريت .

ومن آلهتهم أيضاً (نسكو = Nusku) وتمثله النار معبودة لهم . ويعد (سين) إله القمر عند السومريين والآكديين . وله اسم آخر عند السومريين هو (نّنا = Nanna) ومعناه (رجل السماء) ، وقيل حرفه الآكديون الى (نّئر = Nannar) ومعناه (المُنير) . وربما اشتق هذا الاسم

من المادة السامية المشتركة ، وفي العربية (ن و ر) ، ومن معانيها النور ، وهو أقرب الى مدلول الاسم من حيث المشاهدة لنور القمر والاشترك الدلالي في الأصول السامية بين (النور) و (النار) .

وكان يرمز غالباً ما الى إله الشمس بـ (الهلال بجانبه قرص الشمس) ، ويرمز الى الزهرة بنجمة في وسط دائرة ، ولكن الرمز المشترك لإله الشمس في بابل وآشور وسوريا وآسيا الصغرى هو ما كان يرمز إليه في مصر ، أي بقرص ذي جناحين .

ومن ألقاب إله الشمس في وادي الرافدين : نور العالم ، ونور الأعالي والأعماق ، ونور السموات والأرض ، ونور الآلهة .

ويستنتج من رمزي إله الشمس المذكورين سابقاً أنهما يدلان على عظم هذا الإله عندهم فمنه يستمد النور والظلام أي الليل والنهار وهو المدبر للعالم فيهب الحياة ويحيى الموتى ويسير الكون كله والمخلوقات كلها وله الولاية على الآلهة الأخرى أيضاً .

واتخذت مسألة الآلهة عند البابليين والآشوريين منحى آخر يوازي ما طرأ على دولتيهما من تطور وتغير ؛ فبعد أن آلت بابل وأشور الى إمبراطوريتين كبيرتين جنح البابليون والآشوريون الى اتخاذ ما تجوز تسميته بـ (الإله القومي الأكبر) ؛ فرجحت كفة (مردوخ) عند البابليين - في حين رجحت كفة (آشور) عند الآشوريين .

وصار (مردك) أو (مردوخ) الإله الوطني والقومي لبلاد بابل كما كان إله الرعد والمطر والعواصف عند السومريين . ورمز إليه بـ(الثور) . والثور له مدلول القوة والسيادة والزراعة والخصب والنماء . ويمثل مردوخ في السماء كوكب المشتري أو كما يطلق عليه بالبابلية : (نبيرو) ومعناه المَعْبَر ، وكان له خمسون اسماً ولقباً وصفة . وقد ورد هذا الاسم في اللوح السابع من ملحمة الخلق إذ جاء فيه : " يمسك نبيرو بمعابر السماء والأرض ، وعلى الذين يعجزون عن العبور في السماء والأرض أن يسألوه دائماً . إن نبيرو هو الكوكب الذي يسطع في السماوات " .

ولمردوخ صور وشعارات ، وقد وردت إلينا صورة منه تمثله (وقد لبس تاجاً عالياً أسطوانياً مجلى بالزهور ، يبرز منه بعض الريش ، وله لحية وشعره مرسل في خصل خلف الرأس ، وثوبه يصل الى قدميه . وتتأثر عليه صور نجوم داخل دوائر . ويده اليسرى موضوعة على صدره ممسكة بحلقة وعصاً رمزاً الى السلطة . ويده اليمنى مدلاة الى جانبه وقد أمسكت بهراوة . وتقوم على حراسته الأفعى الحمراء ، ولها رأس صِلَّ ذي قرنين وجسم مغطى بالفلوس وذنب عقرب وبُرْتْنَا (= إصبعاً) أسد من أمام ومخلبا نَسْر من خلف) .

وترمز هذه الصورة في شكلها العام وتجميعها بين المفردات الى أن (قوى مملكة الحيوان من ذوات الأربع والطيور والأسماك والزواحف مركزة في كائن واحد يخدم الإله في صراعه ضد قوى الشر) .

ويشار الى مردوخ أحياناً برسم شعاره أو عرشه أو حيوانه . وشعاره
المجرفة التي تستعمل في الحقل أي (marru) بالبابلية ، وإذا ما أضفنا
الى ذلك رمزه الآخر في الأرض وهو الثور نستنتج أنه كان (إلهياً زراعياً)
أكثر ما يهتم بتوفير (أماكن الرعي والشرب) كما ورد في ملحمة الخلق
الأكدية .

وارتبطت الآلهة (عشتار) في بلاد الرافدين بالثبات والخصب ،
وكانت رمزاً الى (الأم) و (الأرض) لتلازم مدلول الأم مع مدلول الأرض
في الخصب والانتاج والإنجاب والرعاية .

ومن الآلهة الصغار في حضارة وادي الرافدين الإله الشاب (تموز)
الذي ارتبط باسمه شهر تموز بحسب التقويم البابلي . وهذا الإله ذو طبيعةٍ
ثنائية جمع فيها بين الإله والإنسان معاً؛ فهو من حيث الإنسانية يموت ويولد
من جديد موسماً بعد موسم ، ويرمز ذلك الى ذبول النبات وميلاده بعد ذلك .
ومن آلهة بلاد الرافدين الإلهة الأنثى (امدوغود = Imdogud) وهي
إلهة الغيوم والمطر . ورمزوا إليها ب(طائر أسود ضخم له رأس أسد يزأر ،
وصوته الرعد . يطير بأجنحة ممدودة كبيرة الحجم في الهواء) .
ومن الآلهة إله الحرب (نغرسو = Ningirsu) ومثلوا له ب(طير له
رأس أسد يزمر كالمياه ويندفع نحو البلد المعادي وكأنه عاصفة) .

ومنها إلهة الكلاب (باو = bau) وهي مختصة بالكلاب والشقاء ،
ويرمز إليها برأس كلب . ونستنتج من ذلك أن الكلب كان في عرفهم من
الحيوانات المذمومة .

وتبدو الشياطين لشعوب وادي الرافدين في حياتهم اليومية من أكثر
المخلوقات الخيالية شيوعاً ورهبة وفزعا . وكان الناس يخشونهم ويخافون
منهم على أرواحهم وأجسادهم . وتظهر هذه الشياطين في مخيلة هؤلاء
مخلوقات عجيبة (يمكنها أن تتشكل بأي شكل أو صورة وأن تنفذ في أي
جسم من دون أن يراها أحد) ، وغالباً ما كانت تفضل الأماكن المهجورة
المظلمة والخرائب وقبور الموتى ، وتدل على حضورها (بأصوات حيوانية
تبعث الفزع الشديد) . وربما كان (شيطان الحمى) من أكثر الشياطين هولاً
وفزعاً عند الناس لأن المرض وانتشاره وفتكه بالأرواح من مظاهر وجود
الشياطين في عرفهم ، ولذلك رموزاً إليه بصورة تجمع حيوانات متوحشة
كالأسد والنمر (وكان له رأس أسد وأسنان حمار وأطراف نمر أرقط ، وصوته
كصوت النمر والأسد ويمسك بيديه أفاعي كبيرة ويداعب ثدييه خنزير وكلب
أسود) .

وللأمم السامية الأخرى الذين استوطنوا بلاد الشام والجزيرة العربية
آلهة عديدة ، اشتهر منها - على سبيل المثال - (بعل = Baal) و (موت) .
وكان بعل إله الخصب والإنبات عند الساميين القدماء ، وهو في صراع دائم
مع عدوه (موت) ؛ فتجددت عبادة بعل على يد الفينقيين وجعلوه رب العاصفة

والمطر الذي يعتمد عليه في الزراعة ؛ فهو - إذن - إله زراعي الصفة ، ولكنه يجمع الى ذلك صفة الرعب وهلاك الزرع أيضاً إذ جعلوه رباً للعواصف . ورموزاً إليه بـ(محارب على رأسه خوذة بقربي ثور ويحمل رمحاً) . ويدل رمزه هذا على الصراع السنوي الدائم بين (بعل) وغريمه (موت) بمعنى (تجدد نبات الخريف بأمطار الشتاء) .

ومن أمثلة الأساطير الإفريقية القديمة الإلهة (ليسا = Lissa) ، وهي إلهة أنثى تعبد على أنها (الرّبة الأم) عند سكان داهومي ، ولها ابنان : مادو (= الشمس) ، وعود (= القمر) . ويرمز إليها بالحرباء ، وجعلو الحرباء طوطمها . وهم بذلك يختلفون عن الأمم الأخرى لأنهم (طوطميون) في عبادتهم. و(الطوتم) Totem في المصطلحات الدينية والأسطورية يعني حيواناً أو نباتاً أو أي شيء آخر في عالم الطبيعة يستعمل رمزاً لعائلة أو قبيلة أو جماعة من الناس، ويعد مقدساً . وشاعت هذه العقيدة في بعض القبائل البدائية من سكان إفريقيا والأمريكيتين . وغالباً ما تحفر الرموز الطوطمية أو ترسم بألوان فاقعة وتعلق على أقطاب كما يفعل الهنود الحمر . ومن الأساطير الصينية القديمة (Tou-Mu) ، وهي ربة نجم الشمال . أم لتسعة أبناء كانوا أقدم حكام الأرض . قصرها مركز النظام النجمي ، وكل النجوم تدور حوله . تهيمن على الحياة والموت ، ولكنها محسنة تتصف بالخير والشفقة . وكان يرمز إليها بثلاث عيون وثمانية ذراعاً ، ومن آلهتهم أيضاً (لي كونغ = Lei-Kung) ، ومعنى الكلمة : رب البرق ، وكان

يرسم (على هيئة رجل قبيح بمخالب وأجنحة وجسد أزرق . يحمل مطرقة خشبية ويعلق طبوله على جنبه) . ويعاقب هذا الإله المذنبين الهاريين من القانون أو من لم تكتشف جريمته ، ويحض على مساعدة الناس ويكافئهم كلما انغمسوا في عملهم . وأعماله هذه تدل على طبيعه الأسطورة الصينية وطبيعة الديانات والعقائد القديمة فيها وميلها الى العمل واحترام القانون وعادات الأجداد وتقاليدهم .

وكانت العقائد الدينية لقدماء المصريين تؤمن بحياة أخرى بعد هذه الحياة ، ولذلك ارتبطت طقوسهم بنمط روحي . ومن عقائدهم (الباع = Ba) إذ يمثل لهم أحد المبادئ الروحية للكائن المتميز بقدرته على الحركة والتحول المادي . والباع ملكة للإله يستطيع بها التجسد . وأما الإنسان فيمثل له الباع ما يقرب من الروح وانعتاقها من الجسد بعد الموت فهو (أحد أنماط الوجود الممكن بعد الموت) . ودلت الرسوم في المقابر المصرية القديمة على أن الباع بعد انفصاله عن الجسد يمارس وظائفه الحيوية كالحركة والغذاء والشهوة الجنسية . وقد رموزا إليه بـ(عصفور ذي وجه بشري) .

ويعد (آمون = Amon) من أشهر الآلهة المصرية ابتداءً من عهد آمنهات (= آمون هو الأول) مؤسس الأسرة الفرعونية الثانية عشرة . وارتقى آمون مدارج الآلهة فصار (إله الملوك) بعد أن كان إله الهواء حيناً وإله الخصب حيناً آخر . وبلغوا به أعلى المراتب إذ جعلوه (ملك الآلهة) ،

ولقب بـ(سيد العروش في القطرين) . وألبسوه رأس كبش أو رأس إوزة النيل رمزاً إليه.

ومن آلهة الرومان (جانوس = Janus) ، وهو من أقدم آلهتهم ، ويعود أصله الى الشعوب الهندية الأوربية القديمة ، واشتق من اسمه شهر كانون الثاني (= January – Janvies) الذي تنتقل به السنة الى سنة جديدة. ولذلك يعبر هذا الإله عن رمزية العبور والانتقال من الماضي الى المستقبل ، ومن حال الى أخرى.

وكان (إله النار) يعبد في أمريكا الوسطى ، ويعد من أقدم الآلهة ، وصوروه على أنه (كهل ذو وجه عميق التجاعيد محني الظهر. يحمل على ظهره أو على رأسه قدحاً مصنوعاً لحرق البخور) . وظهر هذا الإله على السفوح الوسطى للمكسيك قبل الميلاد .

وللطبوير الأسطورية والحيوانات الطائرة أهمية كبيرة في الأدب الصوفي وما يعرف بـ(أدب تفسير الأحلام) عند المسلمين كالعنقاء والتنين ؛ فمن مصطلحات أهل التصوف (العنقاء) وتدل عندهم على (الهباء الذي فتح الله فيه أجساد العالم مع أنه لا عين له في الوجود إلا بالصورة التي فتحت فيه . وإنما سمي بالعنقاء لأنه يسمع بذكره ويعقل ولا وجود له في عينه) . ويدل التنين في الرؤيا على (سلطان جائر مهاب أو نار محرقة) .

الطبيعة السفلية (الأرض وما فيها) :

ترمز الأرض الى (الحياة) إذ تهبها وتأخذها ، وترمز أيضاً الى الأمم والإخصاب والإنجاب ؛ وهي (الأم) . ويرمز أديم الأرض الى (الإنسان الواعي) ، وباطن الأرض يرمز الى (الوعي الباطن) . وأما الذرى والمرتفعات فهي ترمز الى (ما فوق الوعي) .

وللإنسان وأعضائه رموز وإشارات في الحضارات المختلفة على مر العصور ، ولأذن الإنسان - على سبيل المثال - رموز متعددة ومتباينة ؛ ففي الصين تعد الأذن الطويلة الكبيرة رمزاً الى الحكمة والخلود . وللاذن دلالة رمزية على رهافة السمع وسماع الأصوات الخفية المهموسة التي تعكس (أصواتاً أزلية) .

وترمز الأذن في إفريقيا الى البهيمية خلافاً لما في الصين ، فيقال : (له أذنا حمار) .

ولها دلالة أيضاً على الجماع بمعنى علاقة الكلام بالجماع ، فيقال عند بعض القبائل كالدوغون والباشبارا في مالي : (يدخل الكلام في الأذن مثلما يدخل ماء الحياة في الرحم) .

ومن العادات القديمة عند كثير من الأمم ثقب شحمة الأذن وتعليق قرط فيها، ويرمز ذلك الى الالتزام والتملك . ونجد في الأناجيل أن القرط دليل على العبودية لأن العبيد غالباً ما كانوا يلبسون كرهاً حلقات في آذانهم .

ويقال في بعض الأمثال الشرقية القديمة : (فلان عبد نو حلق في أذنيه)
بمعنى العبودية والطاعة المطلقة لسيده .

وفي بعض البلدان الإسلامية كان الدراويش يثقبون شحمة أذن واحدة
ويضعون فيها قرطاً دلالة على رهبانيتهم . وكان البحار في أوربا يثقب شحمة
أذنه ويضع فيها قرطاً رمزاً الى اقترانه بالبحر ، وكان البحر صار كالقرينة
والزوجة أو صار مملوكاً للبحر .

ويرمز (البحر) عند أهل التصوف والعرفان الى (العالم والقلب البشري
بوصفه مركز الأهواء ، ويدل على عاصفة الحياة حيث يغرق بعضهم وينجو
آخرون) .

و(زمزم) في مصطلح أهل التصوف (إشارة الى علوم الحقائق ،
والشرب منها إشارة الى التضلع من ذلك) .

وللحيوان دلالاته ورمزه في الثقافات المختلفة ؛ فمنه ما يدل على القوة،
ومنه ما يدل على العلم والمعرفة ، ومنه ما يدل على الخير ، ومنه ما يدل
على الشر ... الخ. ومن الحيوانات في بعض الحضارات رموز متناقضة
كالكلب والخنزير .

وفيما يأتي أمثلة لبعض الحيوانات ورموزها:

الديك :

١- يرمز الى العزة . وهو شعار فرنسا . وصورته منقوشة على العملات
الفرنسية القديمة.

- ٢- الديك رمز شمسي ، يعلن بصياحه الفجر وبدء النهار .
- ٣- صياح الديك يطرد الأرواح الشريرة من البيوت ، ولذلك ترفع صورته على الأبواب.
- ٤- ترمز رجل الديك في فيتنام الى العالم الأصغر . وتستعمل بعد غليها في الماء في التنبؤ والكهانة.
- ٥- الديك في البوذية التبتية رمز مشؤوم يوضع مع الخنزير والحية في مركز دولاب الحياة ، أي دوران الفلك والأبراج وعلاقته بمصير الإنسان. ويدل عندهم على أحد السموم الثلاثة . ومعناه (الرغبة أي التعلق والظماً) .
- ٦- يرمز الديك في أوربا الى الغضب وانفجار رغبة مكبوتة.
- ٧- الديك مع الكلب والحصان من القرابين التي تقدم للموتى في الطقوس الجنائزية عند الجرمان القدامى.
- ٨- رمز اليقظة : إنه المحارب اليقظان الساهر على الآفاق والحياة ، وهو رمز حراسة الحياة والمرشد الى الخفاء والأسرار.
- ٩- يرمز الديك الى السيد المسيح مع الحَمَل والنسر ، ويختلف عنهما برمزيته الشمسية أي النور والنشور.
- ١٠- للديك الأبيض في عرف المجتمعات الإسلامية تكريم كبير ، فهو عدو لمن يعادي الله ، وصياحه دليل على وجود الملائكة . ويعتقد أنه يسبح لله تعالى ويدعو الناس الى تسبيحه.

١١- الديك والحية يرمزان في التأويل النفسي الى الزمان ، أي الى (طور من أطوار التطور الداخلي) .

الحمار :

- ١- يرمز الحمار في الغالب الى الغفلة.
- ٢- يصور الحمار في الهند كأنه مطية الآلهة اللعينة ، أو مركب (نرّيتا = Nairrita) حارس أقاليم الموتى .
- ٣- يدل الحمار على الشهوة والشيق ، أي العنصر الغريزي في الإنسان الذي يعيش متبعاً هوى نفسه وحواسه.
- ٤- تدل عبارة (أذني حمار) على معاقبة المنحرف عن جادة الصواب ، الباحث عن غواية الحواس بدلاً من (موسيقى الروح ورجاحة العقل) .
- ٥- ترمز الأتان (أنثى الحمار) الى المرأة الشهوانية.
- ٦- تذهب بعض التقاليد خلافاً لما ذكرنا الى تقديس الحمار وعدّه مقدساً؛ ففي الطقوس الأبولينية عند الإغريق كانت الحمير تقدم قرابين في معبد (دلفس).
- ٧- يرمز الحمار الوحشي في بعض الثقافات الى نساك القفار والصحارى المنعزلين. وترمز الأتان الى الإذعان والخشوع والسلام والفقر والتواضع والصبر والشجاعة. ويرمز الجحش الى الذل والهوان .

البقرة:

- ١- تدل البقرة على الخصب والإخصاب والثراء والتجدد.
 - ٢- ترمز الى صببية محبوبة متبسمة ، وهي إلهة الفرح والرقص والموسيقى. تضيف الأمل على الأرض وسكانها. وكانت ترمز في بلاد الرافدين الى الجدة (البقرة الكبرى) .
 - ٣- في بلاد سومر كان القمر يزيّن بقرنى بقرة . وتمثل البقرة هلالاً . الليل المكلل بالنجوم يسوده (الثور) وتكون (البقرة السمينة) بدر تمامه.
 - ٤- البقرة في الهند رمز الأم الولود . لها مهمة كونية وإلهية ، وهي (أم الحياة) ، ولذلك قدسها الهندوس.
 - ٥- البقرة في مصطلح الصوفية المسلمين (كناية عن النفس إذا استعدت للرياضة وبدأت فيها صلاحية قمع الهوى. ويكنى عن النفس قبل ذلك بـ(الكبش) ، وبـ(البدنة) بعد الأخذ في السلوك) . والبَدَنَة : ناقة أو بقرة تتحر بمكة ، سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها . والجمع : بُدُنٌ .
- ومن دلالات الحيوانات في أدب الأحلام وتفسيرها عند المسلمين :
- ١- الثور : يدل على (رئيس قوم وقيم بيت أو بلد أو قرية. والثور الواحد ولاية سنة واحدة ، وللسلطان والتاجر والسالع تجارة سنة) .
 - ٢- الطاوس : هو في المنام (امرأة أعجمية ذات مال وجمال ، مشؤومة . وجمالها لونها ، وريشها مالها) .ويدل الطاوس لمن ملكه على (التيه والعُجْب بالحُسْن والجمال) .

- ٣- الكبش : يدل في الأحلام على (رجل شريف منيع) .
- ٤- الثعبان : تدل رؤيته في الأحلام على (العداوة من الأهل والأزواج والأولاد . وربما كان جاراً حسوداً شريراً) . وثعبان الماء : (عون للظالم أو إعلام للحاكم) . ومن رأى أنه ملك ثعباناً (فإنه يصيب سلطاناً عظيماً) .
- ٥- التمساح : تدل رؤيته في الأحلام على (شرطي ، لأنه شرماً في الماء ، لا يأمنه عدو ولا صديق وهو لص خائن . ويدل أيضاً على التاجر الظالم الخائن) .
- وللنبات كما للحيوان رمزه ودلالته عند الشعوب باختلاف ثقافتها وأديانها وأعرافها . وفيما يأتي أمثلة لبعض النباتات وثمارها:
- الشجرة : تعد الشجرة من أغنى الموضوعات الرمزية وأكثرها شيوعاً . تجمعها دلالة عامة على (فكرة الكون الحي دائماً في حالة تجدد وتكوّن) :
- ١- ترمز الشجرة الى وجود أعلى يتعدى الشجرة نفسها ، ويمكن أن يصبح هذا الوجود الرمزي موضع عبادة .
- ٢- الشجرة رمز الحياة المتطورة المتغيرة دائماً الصاعدة الى السماء .
- ٣- تعد الشجرة صلة وصل بين ثلاثة مستويات من العالم : باطن الأرض إذ تضرب جذورها في الأعماق ، وأديم الأرض إذ يرتفع جذعها وفروعها الأولى ، والأعالي تجاه السماء حيث تبلغ أغصانها المرتفعة الذروة .

- ٤- تجتمع في الشجرة العناصر الأربعة للوجود بحسب آراء الفلاسفة القدامى:
الماء يجري في عصارتها ، والتراب يندمج في بدنها ، والهواء يغذي أوراقها، والنار تخرج من احتكاك أغصانها أو خشبها.
- ٥- ترمز شجرة العالم الى اتصال الأرض بالسماء ، وبهذا المعنى تتسم بسمة المركز من حيث تكون (شجرة العالم) مرادفه لـ(محور العالم) .
- ٦- شجرة الكون تحيل الى جوهر جليل ، ومثلها : السنديانة والزيتونة في التراث العربي والإسلامي، والأرزة في المأثور الوطني اللبناني.
- ٧- الشجرة ملعب الآلهة والأرواح والنفوس في المعتقدات السحرية الدينية القديمة : شجرة (كلن مو = Klenmou) في الصين القديمة إذ تهبط إليها الشمس والقمر على شكل عصافير.
- ٨- ترمز الشجرة في الفكر الإسماعيلي الباطني الى الحقيقة بمعنى المرحلة التي يبلغها الصوفي حين يتعدى (ثنائية المظاهر ويتصل بالحقيقة العظمى، بالوحدة الأصلية) ، أي فكرة وحدة الوجود (وحدة الخلق بالخالق) .
- ٩- تغتذي شجرة الحياة من الندى السماوي ، وتمدنا ثمارها المحرّمة على غير الأطهار بشيء من الخلود . مثالها شجرة عدن (جنة عدن) التي يبلغ عددها اثنتي عشرة ثمرة (رمز التجدد الدوري) و (ثمار القدس السماوية) و (التفاح الذهبي) . وشاعت (شجرة الحياة) في التراث الفارسي ، وكانت تصور عادة بين حيوانين متصارعين.

١٠- ترمز شجرة الحياة الى الخصب والإخصاب والإنجاب . وفي البلدان الممتدة من البحر الأبيض المتوسط الى الهند ترتاد نساء عواقر أشجاراً جميلة قرب نبع وتعد على أغصانها مناديل حمراء لدفع المقدر (المكتوب).

١١- تستعمل صورة الشجرة على نحو مشجر لبيان الأنساب أو تواريخ مدينة أو شعب أو سلطان أو ملك.

١٢- قد تنقلب (شجرة الحياة) الى (شجرة موت) كما ورد في سفر دانيال وتأويله رؤيا نبوخذ نصر .

١٣- لشجرة (الأرز) او الصنوبر أهمية كبيرة . والمشهور منه أرز لبنان الذي يدل على (راية المجد والعظمة ، ويرمز الى الشرف والمنعة والخلود وما لا يطاله الفساد والاندثار) . وقد صنع المصريون القدامى مراكبهم وتوابيتهم وتمائيلهم من خشب هذه الشجرة. وصنع محراب الهيكل الذي بناه سليمان في اورشليم (القدس) من خشب الأرز. وعمل اليونان والرومان التماثيل من خشبه ، واتخذوا من صمغه مادة عطرية. ونقشت صور الآلهة والأجداد على (خشب الأرز المقدس) تخليداً لهم . وكان السيد المسيح (ع) يصور أحياناً في قلب أرزة (أرزة الرب) .

١٤- وشاع في أساطير وادي الرافدين ما يعرف بـ(نبات الحياة) أو (شجرة الخلد) ، وكانت تصور بنخلة معتادة ترمز الى تجدد الحياة وديمومتها.

١٥- ومن الأشجار امتازت السُدرة عند أهل التصوف المسلمين برمزية مهمة ولاسيما (سدره المنتهى) الوارد ذكرها في القرآن الكريم . ودلت في مصطلحهم على (نهاية المكانة التي يبلغها المخلوق في سيره الى الله تعالى ، وما بعدها إلا المكانة المختصة بالحق تعالى وحده فلا يمكن البلوغ الى ما بعدها) .ودلت السدره في أدب الأحلام على (امرأة كريمة مستورة ، ورجل كريم حسيب فاضل مخصب بحسب السدره وكرم ثمرها. ومن رآها فإنه يرتفع أمره ويصب ورعاً وعلماً).

١٦- ومن أمثلة ثمار الأشجار : العنب إذ دلّ في الحلام على (رزق حسن دائم واسع مُدَّخر) . والعنب في وقته (غضارة الدنيا، وفي غير وقته خير يناله قبل الوقت) .

ومن الثمار : السمسم ، ويدل في الأحلام على (رزق ومال حلال ، وكذلك عصارته وطحينه مال في عزّ وقوة) .
الطبيعة العلوية (السماء وما فيها) :

السماء وما فيها من أجرام كالشمس والقمر والكواكب والنجوم والأفلاك والمجرات الخ والظواهر الطبيعية التي تحصل بالمشاهدة في السماء الدنيا كالغيوم والأمطار والرعد والبرق والصواعق والشهب ، ذلك كله يمثل رموزاً مختلفة الدلالات عند الشعوب على اختلاف حضاراتها وثقافتها وأعرافها الاجتماعية ومعتقداتها الدينية.

وللأجرام المساوية أهمية رمزية تتصل بطبيعتها التكوينية وأثرها في الأرض والناس وهيئتها من حيث الكبر والصغر والنور والضوء ... الخ . وربما كانت الشمس والقمر من أهم الأجرام إذ نالتا قسطاً كبيراً أكثر من غيرها في الدلالات الرمزية ، فعلى سبيل المثال تدل الشمس في الأحلام على (المَلِكِ الأعظم أو الخليفة أو الأب أو الذهب أو أمير من الأمراء) . ويدل القمر على (ملك عادل كبير أو غلام حسن أو ملك جبار جائر أو رجل كذاب) ؛ فيجمع في دلالاته الرمزية هذه بين الخير والشر والحسن والقبح .

ومن الأجرام المساوية ما يعرف عند الفلكيين المسلمين بالنُّزْيا ، وهي مجموعة من النجوم مدلاة كالنُّزْيا المضيئة المنورة . ويدل رؤيتها في الأحلام على (رجل حازم في الأمور ؛ فمن رآها سقطت على الأرض دلّ ذلك على موت الأنعام وقلة الثمار في ذلك العام . ومن رآها من الصُّنَّاع دلّ ذلك على نفاق ما يصنع وإحكامه) .

ومن الظواهر الطبيعية الكسوف والخسوف ، فمن رأى في حلمه أن الشمس كسفت (فهو حدث بالملك الأعظم ، وإن رأى أن القمر خسف فهو حدث بالوزير)؛ فرمزت الشمس هنا الى الملك ، ورمز القمر الى الوزير .

و(البرق) في مصطلح المتصوفة : (أول ما يبدو للعبد مع اللوامع النورانية، فيدعوه الى الدخول في حضرة القرب من الربّ للسير في الله) .

الأعلام:

للأعلام دلالات رمزية متعددة ومتنوعة ومختلفة أيضاً في كثير من ثقافات الشعوب ولاسيما الأعلام الدينية كالأنبياء والآلهة والأعلام المدنية كالملوك والوزراء والقادة والأمراء والمصلحين والعلماء... الخ. وفيما يأتي أمثلة مجتزأة لقليل من الأعلام تبياناً لرموزها:

آدم:

- ١- يرمز في الحضارات والثقافات والتأويلات الى الإنسان الأول ، فهو الأول وجوداً وطبيعة وأخلاقاً .
- ٢- هو المصوّر على صورة الله في أحسن تقويم بمعنى الصورة التي أراد الله تعالى أن يخلقه عليها.
- ٣- يرمز آدم الى حقيقة الروح والعقل أو الذات أو الحرية.
- ٤- في بعض العقائد : هو أول الخلق وأول الخاطئين (حين رغب في أن يكون واحداً مماثلاً لخالقه لا مغايراً له) . ومعنى الخطأ الأصلي (هو شذوذ والاستعمال العبثي للحرية ورفض التبعية للخالق).
- ٥- يرمز آدم الى سلسلة من الأنبياء والرسل يدعون الى الله تعالى . وهناك علاقة وثيقة في العقائد المسيحية بين آدم الأول والمسيح (آدم الجديد).
- ٦- آدم القديم هو رمز الإله الحي في الإنسان ، ويمثل عالم الإنسان الداخلي، وهو الرمز الأزلي الى الله والأرض .
- ٧- في أساطير إيرلندية وغيرها هناك أسطوريون للبشر ، أي أكثر من آدم واحد (آدم واحد لكل جنس وعرق) .

٨- تدل رؤية آدم في الأحلام على (الذنب ، فمن رآه فإنه أذنب ذنباً فليتب منه ، وربما دلت رؤيته على الولد أو السلطان أو العلم) .

حواء :

١- حواء أم البشر ، ذات الطبيعتين ، اسمها في اللاتينية (EVE) يقرأ من الأول والآخر .

٢- ذهبت التقاليد الرمزية الى تصوير آدم وحواء وهما يرتديان رداء الخلود (قبل المعرفة) إذ كانت شهواتهما الدنيوية خاضعة للعقل ، وكان يعرفان الخالق بالعيان عند من يؤمن بالتجسيم ، أي أنه كان يتجلى لهما . وكانا قبل المعرفة أو الخطيئة سعيدين لا همّ لهما سوى التأمل في نور الحضور الإلهي. وبعد المعرفة أي بعد أن أغوت (حواء آدمها) حلّ الغمّ عليهما.

٣- حواء خلقت من ضلع آدم بحسب الرواية التوراتية ، وهي بذلك ترمز الى (تبعية تكوينية) . إنها المرأة الأولى ، الزوجة الأولى ، أم البشر .

٤- ترمز حواء من داخلها الى العنصر الأنثوي في الرجل ، يقال : (إن في داخل الرجل روحاً ونفساً ، فالروح ذكرٌ والنفس أنثى) .

٥- تعني حواء (حساسية الكائن البشري وعنصره اللا عقلائي) . وترمز الى (اللحم والغضب) ، في حين يرمز آدم الى (الرجل والروح والعقل).

٦- ترمز حواء الى الوحدة أي الاقتران أو الزواج.

٧- حواء رمز الذكاء والعاطفة ، وآدم وحواء يمثلان (الإنسان الكامل بالمعرفة والحب) ، وهي (تخلق معنى للحياة وتستقبل هذا المعنى باللموس).

٨- تدل رؤيتها في الأحلام على (البركة في الزرع والثمار ونتاج الأولاد وإدراج الفوائد من الصناعة والنسيج والحراسة والحدادة وغير ذلك) . وربما دلت رؤية آدم وحواء على (النقلة من محل شريف الى ما دونه ، وعلى الزلل والوقوع في المحذور وشماتة الحسادين) .

ومن أعلام الأنبياء :

إدريس (ع)

من رآه في الحلم (أكرم بالورع وخُتم له بخير وصار مجتهداً في العبادة بصيراً حليماً عالماً) .

إبراهيم (ع)

تدل رؤيته في الأحلام على (الخير والبركة والعبادة والرزق والإيثار والاهتمام بالأبنية الشريفة والذرية الصالحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعلم والهدى).

إسماعيل (ع)

من رآه في الرؤيا فإنه (ينال فصاحة ورئاسة ويبني لله مسجداً) .

رموز أصحاب الأناجيل الأربعة :

أصحاب الأناجيل الأربعة كما في العهد الجديد من الكتاب المقدس هم متى ومرقس ولوقا ويوحنا. وكانت الكنيسة المسيحية في عصورها الأولى تستعمل الرمز في التصوير ، فرمزت الى أصحاب الأناجيل هؤلاء بمخلوقات مجنحة إذ دلت على متى بإنسان مجنح ، وعلى مرقس بأسد مجنح ، وعلى لوقا بثور مجنح، وعلى يوحنا بنسر . وقد اعتمدت في هذه الدلالات والرموز على ما ورد في الإصحاح الأول من سفر حزقيال الذي ذكر هذه المخلوقات الغريبة ووصفها وصفاً دقيقاً ، وأشار إليها أيضاً يوحنا اللاهوتي في الإصحاح الرابع من رؤياه، ولذلك سميت هذه المخلوقات باسم (مخلوقات الرؤى). ونجد هذه الرموز التصويرية في مخطوطات العصور الوسطى ومنحوتات الكنائس الرومانسية والكنائس القوطية تحيط بصورة الإله. وقد توارى هذا المنحى الرمزي في عصر النهضة وبقيت رموز أصحاب الأناجيل الأربعة. ورموز هؤلاء لها علاقة بما ورد في إنجيل كل واحد منهم ونظرتهم الى السيد المسيح ووصفهم لطبيعته من حيث الكينونة الجسدية (=الناسوت)، والوجود الإلهي (= اللاهوت) ؛ فقد درج متى على وصف تجسيد المسيح أي تلبسه وحلوه في جسد . ويعني ذلك صورته الإنسانية الناسوتية كما ولدته مريم، ولذلك رمزوا الى متى في الفن ب(صورة مَلَك أو إنسان مجنح). وكان يرمز الى مرقس في تصاويره كلها ب(أسد مجنح) لأنه استهل إنجيله بقوله : " هأنذا مُرْسِلٌ ملاكي أمام وجهك يهيء طريقك قُدَّامَكَ . صوت

صارخ في البرية أعدوا طريق الرب واجعلوا سبله مستقيمة" . وقد مجد مرقص في إنجيله المسيح كما يمجّد الملوك . وذهب آباء الكنيسة الى أن هذا يعني (صوت الأسد) ، ويشير ذلك الى أن المسيح هو الأسد المنحدر من سبط يهوذا .

واتخذت ولاية البندقية (الأسد المجنح) شعاراً لها تكريماً لمرقص لأن رفاته نقلت من الإسكندرية ودفنت فيها وتحققت نبوءة الملك الذي بشره بأنه سيدفن في المكان الذي تعرضت فيه السفينة التي كان يركبها الى عاصفة هوجاء ، وبنيت مدينة البندقية في ذلك المكان من البحر .

وكان لوقا الحواريّ طبيباً ، ولذلك دعي بلوقا الطبيب ، وكان مصوراً أيضاً صور مريم العذراء وابنها يسوع ، وقيل إن صورته هذه كانت تعرض على الناس وسرعان ما كانوا يدينون بالنصرانية ، ولذلك دعي ب(راعي المصوّرين وشفيعهم) . وافتتح لوقا إنجيله بالحديث عن النبي زكريا (ع) وهو يقدم البخور في مذبح الرب الذي تقدم فيه الذبائح قرباناً، فرموزا إليه ب(الثور المجنح) وصور أيضاً (حاملاً الإنجيل وصورة العذراء) .

وأما يوحنا فقد بيّن في إنجيله أن المسيح سبق وجوده وجود الزمان قبل أن تلده مريم ، وبدأ إنجيله بقوله : " في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله) . ولما استهل كلامه على المسيح قبل التجسد وكانت رؤيته للمسيح أقرب ما تكون الى الله سما بالمسيح وجعل صورته تعلقو

صورة الجسد (فما هو بإنسان وإن تجسد في صورة إنسان) ولذلك رمزوا الى يوحنا بالنسر وهو أبعد الطير تحليقاً في السماء .

واشار الأكديون الى ملوكهم برموز يستدل بها على أعمالهم وقوتهم وقدرتهم واتساع ملكهم . ومن جملة ذلك نصب (نرام - سين = Naram - Sin) وهو رسم جميل بارز وصل إلينا من الفن الأكدي يعود تأريخه الى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، ويمثل هذا النصب تذكراً لانتصار حربي ، والمنظر المرسوم : (جبل يصعده نرام سين وهو يحمل قوساً وسهاماً ويلبس خوذة يعلوها قرنان هما رمز ملكه) .

ويطلق أهل النَّبْت في الصين على زعيمهم الروحي لقب (دالاي - لاما Dalai-Lamma) . ويتركب هذا اللقب من كلمتين الأولى منغولية والثانية تبتية : (دالاي) بمعنى المحيط ، و (لاما) بمعنى الزعيم الروحي ؛ فيكون المعنى المركب هو (زعيم المحيط) ، ومعنى المحيط هنا مجازي يدل على أن تعاليم اللاما عميقة وبعيدة الغور كالمحيط (أي بحر العلوم الدينية).
العادات والتقاليد :

تمثل لنا عادات الشعوب وتقاليدها الاجتماعية والدينية مرتعاً خصباً للرمزية يستدل بها على أفكارهم ونظرتهم الى الحياة وعلاقاتهم الاجتماعية وعقائدهم الدينية واتجاهاتهم الثقافية وطبيعة حضاراتهم.

وسنكتفي بذكر بعض الأمثلة في هذا المورد ، منها : ما يسمى ب(يوم الرب) ، وهو أول أيام الأسبوع عند النصارى ، ويعد يوماً دينياً يقترن بقيامة

السيد المسيح الذي صلب بحسب عقيدتهم في يوم الجمعة وبقي يوم السبت في قبره ثم خرج منه يوم الأحد . وفي هذا اليوم (وقف بين الرسل وأنزل عليهم روح القدس) .

و(السبت = Sabbat) عند اليهود اسم اليوم السابع بحسب تقويمهم ، وهو يوم البركة والراحة . وبيّنت التعاليم التوراتية والتلمودية الوصايا السبتية السبع ولا سيما مبادئ الراحة والتقديس والامتناع عن العمل . ويمنع في يوم السبت إيقاد النار ومغادرة المنزل والطبخ والخَبْز ... والغاية من هذه الشرائع الحفاظ على (العنصر الروحي الذي يتضمنه معنى اليوم السابع ، يوم الرب والراحة) لأنهم يعتقدون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم اختار يوم السبت يوم راحة له.

ولو عدنا الى العصور الموعلة في القدم من تأريخ الإنسان على الأرض أي عصور ما قبل التاريخ لوجدنا الإنسان له عقائد وأديان وعادات وتقاليد تبدو بسيطة ولكنها معبرة . ومن عقائده أنه كان يؤمن بالسحر ، وثم من يقول إن الدين والسحر توأمان نشأ في وقت واحد ، واستعان هذا الإنسان القديم بالتعاون دفعاً لضرر السحر أو لإبطاله . واستدل علماء الآثار والأنثروبولوجيا بصور نقشت على جدران الكهوف وغيرها تصور حيوانات مجروحة على أن هذه الجروح كانت تعاويذ سحرية ، وأن رجال العصر الحجري القديم (قد جرحوا صورة الحيوانات ليؤمّنوا نجاح صيدهم) .

ومن صور الكهوف الجدرانية صورة للإنسان القديم تظهر فيها (سُلامى مقطوعة) ، وتبيّن بعد البحث والمقارنة بأمثلة متعددة أن من العادات الغربية للإنسان القديم هذا أن تقطع النساء الأرامل سُلامى أيديهن عند فقدهنّ لأزواجهن . والسُّلامى : (عظام صغار طول إصبع أو أقل في اليد والرّجل).

الألوان والأعداد:

كانت الألوان والأعداد وما تزال في عصرنا هذا تستعمل رموزاً وعلامات وإشارات في مختلف المجالات العلمية والعقلية والعملية . وما يعنينا في هذا الباب هو الدلالة الرمزية ذات الصفة الثقافية والدينية والاجتماعية للألوان والأعداد . والفرق بين اللون والعدد أن اللون عنصر مادي يرى بالمشاهدة ؛ فهو في مصطلح أهل المنطق المسلمين عَرَضٌ يحصل للمادة قابل للتغير بخلاف الجوهر . وأما العدد فهو عنصر عقلي رياضي غير محسوس بالمشاهدة.

واستخدم الإنسان القديم في عصور ما قبل التاريخ بعض الأصباغ الطبيعية في التلوين . وكان (الجأب) أو الطين الأحمر من أهمها ، ويعرف في العربية أيضاً بـ(المغرة) ، ويستخلص منه الصّينغ الأحمر . ويعد الجأب المادة الأولى في تلوين الجدران عند هذا الإنسان واستعمله أيضاً في تلوين المقابر وأجسام الأحياء . ودلّ من حيث الرمزية على الدم والحياة والموت . وفيما يأتي أمثلة لبعض الألوان ورموزها في مختلف الحضارات والثقافات:

الأزرق:

- ١- هو اللون الأكثر شفافية أو الأقل مادية وكثافة ، أي (المصنوع من الخلاء المتراكم ، خلاء الهواء وخلاء الماء وخلاء البلّور أو الماس) . ويرمز الخلاء (الفراغ) الى (الدقة والنقاء والبرودة) .
- ٢- يقترب الأزرق برموزه المذكورة سابقاً من الخلاء الكلي للأبيض المحيط حين تكتسبه الأشياء والأغراض ويمنحها لطافة وتفتحاً ؛ فالأزرق (اللامادي بذاته يزيل المادية عن كل ما يتعلق به من حركات و أشكال وأصوات) .
- ٣- يبدو الأزرق في قيمته الرمزية الأساسية كأنه (طريق اللامتناهي إذ يتحول الواقع الى خيال ؛ فالأزرق هو لون طائر السعادة) .
- ٤- الدخول في الزرقة يعني (الانتقال الى الجانب الآخر من المرأة) ؛ فالأزرق الصافي طريق الأحلام ؛ وإذا تكثف ودكن لونه غدا لون الحُلْم. وهو يفسح (الفكر الواعي أمام الفكر اللاوعي) مثلما يتحول فيه ضوء النهار الى نور الليل (الأزرق الليلي) .
- ٥- الأزرق والأبيض لوانان مريميان (نسبة الى مريم) يعبرّان عن انفصال القيم عن هذا العالم ورجوع النفس الى ربها.
- ٦- برج العذراء أزرق ، فهو يعرّي الأرض من خضرتها ويجفف عشبها ونباتها ويجعل الحصاد ممكناً .

٧- تتقلب رمزية اللون الأزرق في (اللغة الشعبية) أي العامية ويغدو الأزرق رمز (الخوف والعداوة) فيقال مثلاً : (الخوف الأزرق) و (العظم الأزرق) و (زرق العيون) .

الأسود:

١- يرمز الأسود الى (محور العالم الشمالي والجنوبي) ، في حين يرمز الأبيض الى (محوره الشرقي والغربي) . يقع الأسود تحت العالم ويرمز الى (السلبية المطلقة) .

٢- الأسود لون الحداد ، ولكنه ليس كالأبيض . للحداد الأبيض (وجه تبشيري إنقاذي . إنه حداد الملوك والآلهة الموعودين بالنشور) . أما الحداد الأسود فهو (الحزن والبؤس هو اللا شيء المنذر - لا شيء بعد الموت) . ويعبر عن (الصمت الأبدي والخسران النهائي والسقوط الأبدي في العدم) .

٣- المعطف الأسود يرمز الى حجر القبر (لون الموت) .

٤- الأسود لون الخصب ، ولون التربة . والغيوم السوداء المترعة بالماء تدل على (الخصب والنماء) . ويرمز اللون الأسود في بعض اللغات الى (الرمل أي الأرض العاقر) والبرودة والشتاء ، إلا أن الرمل الأصفر يرمز عند بعض الأعلام الى (الحصافة والحكمة والثبات في الحزن والعداوة) .

٥- يرمز الأسود الساطع المائل الى الحمرة الى (الحماس وقوة الشباب) في الأعراف الشعبية الروسية.

- ٦- اقتران الأسود بالأبيض (هو زواج الظل بالضوء ، والليل بالنهار ، والجهل بالمعرفة ، والأرض بالسماء)
- ٧- تسويد الوجه يرمز الى الإذعان وطلب العفو عن الذنوب والخطايا.
- ٨- يعبر اللون الأسود في التحليل النفسي عن (غياب كل لون وكل نور) ، ويرمز الى (الحزن العميق) والقلق الشديد و (اللاوعي) والموت.
- ٩- الأسود لون الأعماق والحكمة.
- ١٠- يقترن الأسود بالشر : النوايا السوداء ، وسواد النفس والطوية ، ورواية سوداء ، والجهل ، والشيطان أمير الظلام.

الأبيض والأحمر:

- ١- يرمز الأبيض عند أهل العرفان الى (السر والنور الداخلي الذي يتكون منه فكر الصوفي) .
- ٢- الأبيض لون الحكمة الجوهرية النابعة من أصول الإنسان والموجهة لمصيره.
- ٣- الأحمر لون الإنسان المتصل بظلمات العالم والمسجون في شوائبه.
- ٤- يتحد الأبيض مع الذهبي (الأصفر) في علم الفاتيكان ليرمزا الى (ملكوت الله في الأرض) .
- ٥- الأحمر الواضح الساطع (رمز النهار والذكر والفعل) . وأما الأحمر الداكن فهو (ليل أنثوي سرّي يمثل سرّ الحياة ولا يفصح عنه كالأحمر الواضح).

٦- الأحمر في الأعلام والرايات والألوية والبيارق يرمز الى (الشجاعة والحرية والبطولة والتعبئة والإثارة) .

وأما الأعداد فنقتصر على مثالين منها ، وهما الاثنان والاثنا عشر ؛ فمن رموز (الاثنتين) ما يأتي :

١- رمز التضاد والتغالب.

٢- يدل هذا العدد على التوازن أو المخاطر الكامنة . إنه عدد كل الملابس الثنائية أو الازدواجية وأول التقاسيم الكبرى : الخالق والمخلوق ، والذكر والأنثى ، والأسود والأبيض ، والروح والمادة.

٣- كان هذا العدد يعزى الى (الأم) في الأزمنة القديمة ويدل على (المبدأ الأنثوي).

٤- تقوم الرمزية عند الشعوب الإفريقية على ثنائية جوهرية في الإنسان: الموت والحياة ، الخير والشر ، الحب والكره...الخ.

٥- لكل شيء ثنائية كالوجه والقفا ، والإيجابي والسلبي ، والنهاري والليلي ، واليمين واليسار ، وفوق وتحت ، وأعلى وأسفل، ومذكر ومؤنث...الخ.

ومن رموز (الاثني عشر) ما يأتي :

١- التقسيم الزماني والمكاني ، كتقسيم السماء بوصفها قبة الى اثني عشر قسماً ، وأبراج الفلك اثنا عشر برجاً ، والأشهر اثنا عشر شهراً...الخ.

٢- يرمز هذا العدد الى كثافة العالم الداخلية ، ومضاعفة العناصر الأربعة (التراب والماء والهواء والنار) بضربها بالأصول الكيميائية الثلاثة

(الكبريت والملح والزئبق) أو بالأحوال الثلاث لكل عنصر (التطور والذروة والكمون) .

الأماكن والحروف والأشكال والشارات والحالات :

إن الأماكن والحروف والأشكال والشارات والحالات أمثلة لها رموزها ودلالاتها ؛ فمن الأماكن : البيت بمعانيه المختلفة كالبيت المعمور والبيت الحرام وبيت الحكمة وبيت العزة وبيت المقدس . ولكل منها دلالاته في مصطلح أهل التصوف ، فالبيت : (هو القلب ، والبيت المعمور هو المحل الذي اختصه الله تعالى بنفسه فرفعه من الأرض الى السماء وغمره بالملائكة ونظيره قلب الإنسان فهو محل الحق ولا يخلو أبداً ممن يعمره) . والبيت الحرام : (هو قلب الإنسان الكامل الذي حرم على غير الحق) . وبيت الحكمة : (هو القلب الغالب عليه الإخلاص) . وبيت العزة : (هو القلب الواصل الى مقام الجمع حال الفناء في الحق) . وبيت المقدس : (هو قلب طَهَّرَ عن التعلق بشيء آخر) .

ومن الحروف الألف والياء . أول الحروف وآخرها في العربية ، وفي اليونانية (ألفا) و (أوميغا) ، وفي اللاتينية (A-Z) . ويعتقد أن هذين الحرفين يرمزان الى مبتدأ الكون ومنتهاه ، وهما مفاتيحه عند الحروفيين الذين يعتقدون بأن الكون نفسه قائم بكليته بين هذين الحرفين ، إلا أن المتصوفة وأهل العرفان يعتقدون بأنه قائم بين الكاف والنون (= كُنْ) .

وترمز الألف والياء الى كلية الاعتقاد والوجود والزمان والمكان .
ومن أمثلة الأشكال في الرياضيات (الدائرة) ، وترمز الى الكمال .
وللنقطة والدائرة خصائص رمزية مشتركة وهي : الكمال والتناغم وعدم التناثر
أو الانقسام . وترمز الدائرة الى (الكمال الخفي للنقطة الأولى) والعالم
بوصفه مختلفاً عن أصله ؛ فالنقطة بدايته .
وتدل الدوائر ذات المراكز المشتركة على درجات الوجود ومراتب
المخلوقات . وترمز الدائرة الى السماء الكونية ولاسيما علاقتها بالأرض .
ورقصة الدراويش الدائرية مستوحاة من رمزية كونية ، فهم يقلدون دورة
الكواكب والأفلاك حول مركزها بحثاً عن الله المرموز إليه بالشمس . وترمز
النقطة المركزية عند الحلاج الى التوحيد ، أي العلم (علم ما لا يُعلم) ،
وترمز الدائرة عنده الى العالم المظهري .
ويشير أحد فلاسفة الصين وهو (يونغ) الى أن رمز الدائرة هو (صورة
مثالية قديمة عن كلية النفس) أي عن رمز الذات ، في حين يرمز (المربع)
الى المادة الأرضية (الجسد والواقع) .
واشتهر (صولجان هرمس) بأنه شارة الطب والطبابة ، وهو من
الرموز القديمة المحفورة ، وقد نقشت صورته على كوب الملك (غوديا
اللاغاشي) الذي عاش في سنة (٢٦٠٠ ق.م) ، ونقش أيضاً على الألواح
الحجرية المسماة في الهند (ناغاكال = Nāgakal) .

وشارة الطبابة في عصرنا هذا هي صولجان هرمس أيضاً ، وهي عبارة عن صورة عصاً تلتف حولها حيتان باتجاهين متعاكسين . وترمز هاتان الحيتان الى توازن الوجه والقفا واليسار واليمين والنهار والليل . وللحياة وجهان : خير وشر ، مثل الحياة والموت ، وللشارة الطبية الدلالة نفسها ، وهي تمثل دلالة التصارع والتوازن بين الاتجاهات والتيارات الكونية ، والتوازن ما بين النفسي والجسدي .

وتعود هذه الشارة أو العلامة الطبية الى أسطورة السديم الأول (أي الى حيتين تتقاتلان) ، والى قطبيه (أي إقدام هرمس على الفصل بين الحيتين بعصاً) فهما يدوران حول المحور ويرمزان الى التوازن النهائي بين النزعات المتغالبة .

وتعد الشارة الطبية من رموز السلام ، ويعد هرمس من رسل الآلهة ، فهو مرشد الكائنات في تقلب أحوالها هبوطاً وصعوداً . وحينما يرتفع (جناحان فوق الشارة الطبية) يغدو الرمز تأليفاً بين الأرضي والسموي ، ويمثل ذلك صورة الأفعى المجنحة . وترمز الشارة الطبية أيضاً الى العصا السحرية والشجرة المقدسة في الطقوس الدينية للهندوس وسكان بلاد الرافدين ، فالعصا المركزية دليل على مقام الآلهة .

ولأرباب التصوف مصطلحات كثيرة انفردوا بها ، باطنها يخالف ظاهرها ، وهي رموز الى معانيهم التي تخيروا لها ألفاظاً لا يمكن فهمها على وجهها الحقيقي ومدلولها العرفاني إلا بعد التأمل والبحث والنظر .

ومن جملة المصطلحات المشهورة ما يعرف عندهم بـ(السُّكْر) ؛ فهو في مصطلحهم : (دَهَشٌ يلحق سر المُحِبِّ في مشاهدة جمال المحبوب فجأة، لأن روحانية الإنسان التي هي جوهر العقل لما انجذب الى جمال المحبوب بَعُدَ شعاع العقل عن النَّفْسِ وَذَهَلَ الحِسُّ عن المحسوس وألَمَّ بالباطن فرح ونشاط وهزّة وانبساط لتباعده عن عالم التفرقة ، وأصاب السرَّ دَهَشٌ ووَأَلَةٌ وهيجانٌ لتحير نظره في شهود جمال الحق) ، وتسمى هذه الحالة سُكْرًا لمشاركتها السكر الظاهر في الأوصاف المذكورة سابقاً.

المبحث الرابع

اللغة والدلالة الرمزية
والإيحائية للأسطورة

مقدمة :

الأسطورة ودراستها من الموضوعات المشتركة بين اللغة والتأريخ والأنثروبولوجيا الحضارية والاجتماعية والعقائد والأديان والرؤى النفسية وعالم ما وراء الطبيعة ونظرية الخلق والفطرة .

وموضوع هذا شأنه من التداخل والتشعب لا ينبغي أن ينظر فيه إلا من خلال تداخل التفسيرات وتكاملها وصولاً الى عدة تفسيرات يمكن أن تكون ذات أبعاد متفاوتة في فهم الأسطورة ، إذ الوصول الى تفسير واحد أو فهم محدد متعذر ، لأن علم الأساطير من الموضوعات التي تتناول الحدس والتخمين متجاوزة البنى السطحية والشعور والبنى العميقة الى (اللاشعور) .

وظاهر الأساطير في تأريخ الإنسان منذ نشأته يستدعي أيضاً البحث في الموضوع من جانبيين ، أحدهما : المظهر ، وهو ما تمثله الأسطورة من موضوع وأشياء معبرة عن الموضوع ، والآخر : الجوهر ، وهو المدلول الرمزي للأسطورة ، وحقيقة الربط بينهما وبين مجموعة الأساطير للأمم المختلفة وصولاً الى أوجه التشابه والاختلاف لبيان العناصر المشتركة ، ومن ثم البحث عن العناصر الأولية لفهم الأسطورة

من خلال فهم الإنسان لها عبر مراحل وجوده . ولذلك كله يعد علم الأساطير من العلوم الوعرة الصعبة المرام ، المتعددة الأوجه ، المتباينة في الفهم والتحليل والاستنتاج .

وما أبتغيه في هذا المبحث هو تناول الأسطورة من خلال عنصر واحد من عناصرها العديدة ، وأعني به العنصر اللغوي ، والصلة بين اللغة والدلالة الرمزية للغة ، وما توحى هذه الرمزية من المعاني الهامشية التي تضاف الى المعاني الحقيقية والمجازية .

الأسطورة : تعريفها ومفهومها وموضوعها :

يختلف تعريف الأسطورة باختلاف الباحثين في هذا الميدان من ميادين المعرفة الإنسانية والمدارس التي ينتمون إليها ؛ فالأسطورة (Myth) تطلق بمعناها العام على " قصة تقليدية قديمة عن الآلهة أو الأبطال ، ولاسيما تلك التي تقدم تفسيراً لحقائق أو ظواهر معينة . قصة ذات معنى غامض أو خفي . ما يعتقد - عموماً - أنه غير حقيقي أو بلا أساس "(^١)، وهي مرادفة عند بعض الباحثين لكلمتي (خرافة) و (وهم) ، على أن ما بين الأسطورة والخرافة فرقاً جوهرياً من حيث الفكرة والتفسير والهدف .

ويطلق على العلم الذي يتناول الأسطورة بالدرس والتحقيق والتحليل مصطلح الميثولوجيا (Mythology) ، وهو يعني بمسألتين أساسيتين ، إحداهما : "دراسة الأسطورة بالمعنى الحرفي للكلمة " ، والأخرى : "مجموعة

^١ - نور الدين خليل : قاموس الأديان الكبرى الثلاثة : ٥٠٤ .

الأساطير و (الليجنادات)^(١) كلها لأي ثقافة خاصة كميثولوجيا اليونان القديمة"^(٢) .

وبموجب هذا الفهم فإن الأساطير قد تشتمل على بعض العناصر الحقيقية الواقعية وإن كانت قليلة .

ويدل مصطلح علم الأساطير على معيارين للتمييز والفصل ، معيار يتضمن دراسة الأسطورة نفسها من حيث المتن والسرد والرمز والمعنى والفحوى وما تهدف إليه ، ومعيار يتضمن دراسة مجموعة الأساطير المنسوبة الى إقليم ما أو جماعة معينة أو حضارة من الحضارات.

وفيما يأتي بيان لأهم الملاحظات التي بموجبها يمكن فهم المقصود بالأسطورة^(٣) :

١ - الليجنادات : " عبارة عن قصص أقيمت على دعائم من الواقع والتاريخ المتعلقين بالأبطال والأحداث مهما كان حظها ضئيلاً. وقد انسقت مع الأساطير في هذا التحليل الوهمي " . شابيرو وهندريكس : معجم الأساطير : ٧ .

٢ - معجم الأساطير : ٧ .

٣ - انظر : سميت: موسوعة علم الإنسان : ٩٣ ، وبونت وإيزار وآخرين : معجم الإنثولوجيا والأنثروبولوجيا : ٦٨ .

- ١- تتخذ الأسطورة طابعاً دينياً مقدساً أو اجتماعياً أكثر من الطابع الفردي السردى في موضوع معين ، وتعنى - في الأعم الأغلب- بالظواهر الطبيعية والثقافية والاجتماعية ، وقضايا متعلقة بما وراء الطبيعة .
- ٢- في التراث الشعبي الشفهي لأمة من الأمم أو لجماعة من الناس قصص وحكايات أسطورية ، ولابد من التمييز بينها وبين الأسطورة لأنها من الموروث الشعبي الشفهي أيضاً ، غير أن التمييز بينهما " ليس تمييزاً صارماً" .
- ٣- تشير الأسطورة عند العامة من الناس الى (معتقد زائف) ، ولذلك ينبغي التفريق بين المعنى الأنثروبولوجي للأسطورة ومعناها في الاستعمال الشائع بين العامة .
- ٤- الأساطير قصص يتناقلها الناس في مجتمع معين من جيل الى آخر منذ أقدم العصور .
- ٥- يعد عنصر الزمن في الأسطورة من العناصر الرئيسية لأنه يجعل من الخطاب الأسطوري (كلمة بناءة) ، ويجعل الأسطورة نفسها من حيث الصياغة غرضاً وهدفاً.
- ٦- تبدأ الأسطورة عادة بقصة مصدرها فرد ، ثم تشيع بين الناس . ولكي تصدق عليها صفة الأسطورة لابد لها من توافر شرطين أساسيين ، أحدهما : أن تدخل ضمن أساطير الشعب المعنى من حيث التطابق

الشكلي والدلالي ، أي من حيث الأسلوب والمضمون . والآخر : اندثار مصدرها الفردي " لكي تصبح قصة عامة أنموذجية " .
واختلفت التوجهات الأنثروبولوجية والتأريخية والحضارية في فهم الأسطورة وتفسيرها وكيفية البحث فيها . ومن هذا القبيل التفسير الثقافي التأريخي في دراسة الأسطورة من خلال العلاقات التأريخية بين الأساطير باستعمال المعلومات الواردة فيها شواهد " على العلاقات التأريخية والجغرافية بين الثقافات والمناطق الثقافية " (١) .

والأسطورة في مفهوم مالينوفسكي (١٩٤٨م) نوع من أنواع (الميثاق الاجتماعي) ، وينبغي أن تفسر وفق هذا المعنى لتبرير العادات والتقاليد والسلوك الاجتماعي لجماعة معينة من الناس ، وتفهم (في ضوء سياقها الاجتماعي المعاصر) (٢) .

وهذا توجه اجتماعي في تفسير الأسطورة لما عرف عن مالينوفسكي ومنهجه الاجتماعي في الأنثروبولوجيا . وهو مدخل الى دراسة الأساطير

١ - موسوعة علم الإنسان : ٩٤ .

٢ - نفس المصدر .

تبنته الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية ما بين سنة ١٩٣٠م وسنة ١٩٦٠م.

وكان المنهج في الولايات المتحدة مختلفاً ؛ فقد درس (بواس) وأتباعه الأسطورة على أنها (مستودع معلومات عن الثقافة والسمات الثقافية) ، واتخذوا منها دليلاً لمعرفة (العلاقات التاريخية والجغرافية بين مختلف القبائل والجماعات البشرية)^(١) .

وعقد بعض الباحثين صلة بين الأسطورة والشعائر الدينية من حيث الأداء الشعائري للأسطورة والعناصر الرمزية المشتركة بينها وبين الشعائر . وقد أدى هذا التوجه الى احتدام الجدل والحوار في مسألة أسبقية أي من الأسطورة أو الشعائر على الأخرى ، وأنها الأصل والأساس ، وما الأسطورة إلا تفسير لها . ولم ينته هذا الجدل الى نتيجة حاسمة ، وترك البحث في هذه المسألة ، وانصرف الباحثون الى بيان أهمية الصلة بين الاثنتين وتوصلوا الى نتيجة مفادها أن الأسطورة والشعائر ترتبطان بعلاقات متبادلة، وأن كل واحدة منهما تصلح لتفسير الأخرى ؛ فانصرف اهتمام

^١ - موسوعة علم الإنسان : ٩٤ .

الأنثروبولوجيين الى توضيح الصلة بين الأسطورة والشعائر والنظم الاجتماعية بدلاً من الخوض في مسألة الأسبقية (١) .

ومن المناهج المهمة في دراسة الأساطير ما عرف بـ(المنهج البنيوي) ، وهو منهج دعا إليه وتبناه (كلود ليفي شتراوس) الذي مثل هذا الاتجاه في المدرسة الفرنسية الأنثروبولوجية متأثراً بمدرسة فرديناند دي سوسير في علم اللغة بعد أن نشر تلامذة دي سوسير كتاب أستاذهم (في علم اللغة العام) ، وظهرت بذلك المدرسة الوصفية في اللسانيات وتطورت الى ما يعرف بـ(المدرسة البنيوية) .

ودخلت البنيوية في المباحث الأنثروبولوجية متأخرة بسبب قيام الحرب العالمية الثانية ويرتبط ظهورها بنشر كتاب شتراوس الموسوم بـ(البنى الأولية للقرابة) في سنة ١٩٤٩م ، بيد أن هذا الاتجاه لم ينضج وتتضح معالمه إلا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين وبعد أن نشر المؤلف نفسه كتابه الآخر المعنون بـ(الأنثروبولوجيا البنيوية) في سنة ١٩٥٨م (٢) .

١ - انظر : موسوعة علم الإنسان : ٩٣ ، ٩٤ .

٢ - انظر : جعفر نجم نصر : الأنثروبولوجيا التاريخية : ٩٨ ، ٩٩ .

وتأثر شتراوس في منهجه أيضاً بأراء جاكبسون (Jakobson) ،
وخلاصة ما استفاده منه الربط بين البنى اللغوية الثابتة والمبادئ الأساسية
للعقل البشري؛ فقد ذهب جاكبسون الى أن البنى اللغوية تظل ثابتة مهما
اختلفت اللغات ، ولما كانت اللغة تعبيراً عن النشاط الرمزي للإنسان فلا بد
لهذه البنى الثابتة من التعبير عن (مبادئ أساسية للعقل البشري) تظل
ثابتة كثبوت البنى اللغوية . وبهذا المزج بين الفكرتين اتخذ شتراوس منهجه
البنوي وفسر به الظواهر الاجتماعية عند القبائل البدائية^(١) .

وطبق شتراوس البنيوية أيضاً على منهجه في دراسة الأساطير ،
ولذلك كان مفهوم الأسطورة عنده يتصل بالتفسير الفكري والبنوي للنظم
الثقافية والاجتماعية مع الأخذ بنظر الاعتبار الأهمية الرمزية المعبرة عنها.
واتضح أفكاره في مؤلفه الكبير الموسوم بـ (الأساطير =
Mythologiques) ، وقد صدر ما بين ١٩٦٤م وسنة ١٩٧٢م .

وعمدة ما ذهب إليه شتراوس في فهمه للأسطورة أنه عدها (نوعاً
من أنواع التفكير) ومثالاً (لصياغة المبادئ البنيوية العامة التي تكمن
وراء النظم الاجتماعية والثقافية) . وفي تحليله للأسطورة نظر إليها على

١ - انظر : الأنثروبولوجيا التاريخية : ١٠٣ ، ١٠٤ .

أنها (أداة فكرية تستعمل لتأمل التناقضات الإنسانية العامة أو الخاصة بثقافات معينة) معتمداً في تحليله على المستوى الرمزي في حل هذه التناقضات .

وأهم ما في رؤية شتراوس ومنهجه في فهم الأسطورة وتحليلها وتفسيرها العناصر الثلاثة الآتية^(١) :

- ١- فهم الأسطورة على أنها عملية خلق وتغيير دائمين للمعرفة والفكر المتمثلين بها . ويعني ذلك أنه تخلى عن فكرة البحث عن الصيغ الأصلية أو الصحيحة للأسطورة . والمهم عنده ليس النص الأصلي من غير تعديل وتحريف بل عملية ما يطرأ على الأسطورة من تغير يتناسب مع تطور المعرفة الأسطورية . وتعبير مختصر آخر : الأسطورة ليست نصاً ثابتاً يقرأ بل هي معرفة مستمرة قابلة للتغيير .
- ٢- إن وظيفة الأسطورة تكمن في أنها الإجراء الوحيد القابل للتطبيق من بين كل الترتيبات والإجراءات الممكنة للحياة لأن الجماعة هي التي تتبناه . وتعد الأسطورة بهذا المعنى " خطاباً محكماً ودقيقاً عن الارتباطات الممكنة للعلاقات الاجتماعية والذي يقود الى نتيجة مؤداها أنه لا شيء قابل للتطبيق سوى ذلك الذي تتبناه الجماعة " .

^١ - انظر : موسوعة علم الإنسان : ٩٤ ، ٩٥ .

٣- ونتيجة للصلة بين الأسطورة والتنظيم الاجتماعي وتفسير كل أسطورة من خلال علاقتها بسياقها الاجتماعي تيسر البحث في العلاقات المترابطة بين عدد كبير من الأساطير التي تنتمي الى حضارات وثقافات مختلفة ومتنوعة ، وبذلك وضح شتراوس " أن علم الأساطير يمكن أن يتجاوز الحدود السوسولوجية ويشكل شبكة دائبة الاتساع من التحولات والتغيرات والارتباطات الرمزية " .

ومن المناهج التي اتبعت في تفسير الأسطورة المنهج النفسي التحليلي تبعاً لفرويد ومريديه من المدرسة التحليلية في علم النفس ، وقد تبنى هذا النهج لفيف من المعنيين بالانثروبولوجيا .

وخلاصة رأي فرويد هي (استعمال البيانات الأسطورية) في تفسير نظريته عن تأريخ الإنسان وسماته الشخصية الأساسية ، والتمس المتأثرون بذلك سبيلاً في الأسطورة للتعبير عن الصراع النفسي عند الإنسان كالحسد، وعلاقة الرجل بالمرأة ، والغضب ، والانتقام ، والشجاعة ، والتهور ... الخ. وأفادوا أيضاً من بعض المجالات الرمزية الأخرى كالفنون والشعائر الدينية.

وأثرت آراء فرويد ومدرسته تأثيراً كبيراً في دراسة الأسطورة ، وتقبلها حتى الذين رفضوا أفكاره في (البناء والنمو النفسي والاجتماعي) ، وأفادوا من تحليله الرمزي للأسطورة . وتختلف الغايات من الأساطير باختلاف

طبيعة الأشياء وحاجة الإنسان إليها ، كتفسير نشأة الكون وأسباب الرعد والزلازل والعواصف ، أو الوصول الى أصل الأشياء في الطبيعة كالنبات والحيوان والجبال والبحار والأنهار .. الخ ؛ فالإنسان في سعي حثيث منذ خلقه الى تفسير ما يجده محيطاً به والسيطرة على بيئته ولو كان تفسيراً أولياً بدائياً ، ما دفعه الى التدين بدين ما ، وإقامة العبادات والطقوس والشعائر الدينية المختلفة بمساعدة (الشامانات)^(١) والكهنة والمطربين . وثمة أمور أخرى كانت تحتاج الى تفسير كالعادات والتقاليد الاجتماعية وأسرار الحياة والموت ؛ فاستعان الإنسان بالأسطورة لتفسر له ذلك (فاختلط الخيال والخرافة بالملاحظة) . وكانت الغاية من وضع بعض الأساطير التعليم ، وقد يبتغي بعضها الآخر (المتعة والتفنن في رواية القصص)^(٢) .

^١ - الشامان : " الشامانية (Shamanism) مصطلح سيبييري (نسبة الى سيبيريا) يشير الى مركب من المعتقدات والممارسات الدينية والطبية السلالية المنتشرة في بيئات متنوعة إثنوغرافياً ، سواء في آسيا أو إفريقيا أو لدى سكان أمريكا الأصليين . ويعرّف الشامان عادة بأنه المختص بالدين مدة من الزمن ، وتعتمد قدراته على الخبرة الشخصية المباشرة " . موسوعة علم الإنسان : ٣٤٥ .

^٢ - معجم الأساطير : ٧ .

ولا تقتصر الغايات من الأساطير على ما ذكر آنفاً ، إذ إن المسألة أعمق من ذلك بكثير ؛ فحال الأساطير كحال الإنسان ، فيه ما ظاهر للعيان ، فيه ما هو مستخف في أعماق نفسه وشعوره ، وقد يتعدى الى ما هو أكثر عمقاً وغوراً ، وأغني بذلك (اللاشعور) . وينبغي أن ينظر الى ذلك كله على مستويين ، أحدهما: المستوى الفردي ، والآخر : المستوى الجمعي ، وإذا ما توصل الباحث الى القضايا المشتركة ذات الصفة الجمعية ، أي المعبرة عن العقل الجمعي أو ما وراء العقل الجمعي فقد أصاب الهدف وتبينت له حقائق التحليل العلمي للأسطورة .

وللأساطير سمات مشتركة تعد المكونات الأساسية لأساطير الشعوب على اختلاف ثقافات ، وفيما يأتي بعض من هذه السمات^(١) :

- ١- المسائل المتعلقة بخلق الكون والأرض والنظام الشمسي ، وأصل الآلهة وسلالتها ، والأسباب والبدائيات للأشياء على نحو عام .
- ٢- سمة (التجسيم) أو (التشخيص) ، إذ اتخذت الأساطير من التجسيم شكلها ، بمعنى " جعل المظاهر الطبيعية أو الأشياء الجامدة أو الصفات والمجردات تتخذ شكلاً بشرياً ، فتضفي عليها السمات البشرية".

^١ - انظر : معجم الأساطير : ٩ ، ١٠ .

٣- العامل الإنساني في تأليه الشخصيات أو المجسمات ، فيعزى " الشكل الإنساني والصفات والمفاهيم الى إله أو حيوان أو نبات أو شيء آخر . وعن طريق التأليه ارتفع الناس والتشخيصات التي شخصوها الى مرتبة إله " .

٤- عنصر التقديس في الأسطورة ، أي الصلة بين الأسطورة وما هو (مقدس) عند الإنسان . والتقديس غاية ما يصل إليه الوجود الواقعي كما يرى (الياد) ، وقد وضح ذلك في قوله مقارناً بين (كيف) و(لماذا) في تفسير الوجود : " إن وصف كيفية وجود الأشياء هو تفسير وإجابة غير مباشرة عن سؤال آخر : لماذا وجدت تلك الأشياء ؟ ، فـ(لماذا) هو دوماً متداخلاً في (كيف) ، ويرجع ذلك الى سبب بسيط وهو أن رواية : كيف ولد شيء من الأشياء ؟ تكشف النقاب عن انبجاس (المقدس في العالم) ، وهو السبب الأقصى لكل وجود واقعي" (١) .

٥- عنصر الزمان في الأسطورة ، أي عامل الاستمرارية والديمومة والتجديد، ويتضح مفهوم الزمان في أساطير الشعوب في ربط الدين بالزمان من حيث تجدد العالم فيكتسب بذلك القداسة ، بمعنى أن عملية التجديد في كل دورة سنوية تضيف على الزمن طابع القداسة ؛ فينظر الإنسان الى الزمن بعينين أو بإدراكين ، عين ترى فيه عدداً للأيام والشهور والسنين ، وهي عين الظاهر ، وأخرى ترى فيه صفة التجديد،

١ - الياد : المقدس والعادي : ١٢٨ .

وكأن العالم في خلق جديد دائماً ، وهي عين الباطن ، وهذه الصفة في مخيلة الإنسان من صفات الآلهة . قال الياد : " إن الإنسان الديني في الثقافات الغابرة يرى أن العالم يتجدد في كل سنة ، وبعبارة أخرى : إن العالم يجد في كل سنة جديدة (القداسة) الأصلية التي تحلى بها عندما خرج من بين يدي الخالق " (١) .

ومهما قيل في تحليل الأسطورة وتفسيرها وأغراضها فإن (عنصر الخلق) يبقى هو العنصر الأساسي في أساطير البشرية منذ أقدم العصور ، وهو النواة الصلبة التي لا يمكن أن تتغير وتتبدل بتغير الزمان والمكان والأديان والثقافات والتوجهات الشعورية واللا شعورية الواعية وغير الواعية.

وتختلف النظرة الى عنصر الخلق هذا بين (الفطرة) و (الاكتساب)، بيد أننا نجد أفكاراً في هذا المجال ظهرت عند المفكر الألماني (رودلف أوتو) الذي حاول موفقاً أن يجد للدين (تجذراً في الذهنية الإنسانية) ، " ومن اللزوم خوض عملية تحليلية ذات طابع نفسي حتى يتم بمقتضاها معانقة إلهي" . وهذا ميل واضح الى (الفطرة) .

وخلاصة ما توصل إليه أوتو - وقد تأثر بمنهج (المعرفة القبلية) للفيلسوفين اللاهوتيين (فريس) و (أبلت) ، وهما من أتباع الكانتية

١ - المقدس والعادي : ١٠٩ .

المحدثة - أن المعرفة الموضوعية مستقلة عن الخبرة الخارجية للإنسان ، وهي وليدة الخبرة الذاتية وليست نتاجاً للخبرة الخارجية التي يعيشها الإنسان . واستدل على ذلك بالتحليل النفسي الذي أظهر أن لدى كل إنسان " أفكاراً ومفاهيم يصعب تفسير أصلها تجريبياً ، ومن الصعب البرهنة عليها إلا بتأكيد أنها طبيعية أو أصلية لدى الإنسان ، أو أنها من جانبها عناصر إيمان ، كتمثلات الله والروح والحرية الحاضرة في الوعي الإنساني في مختلف الخبرات الدينية " (١) . وتوصل بعد ذلك الى استنتاج مفاده (أن هذه الأفكار نتاج إدراك ظرفي يصعب البرهنة عليها) .

وذهب (مسلان) الى قريب من هذا المعنى ، وخالف القائلين بالأصل الطبيعي للدين ، أي الأصل الذي يستقيه الإنسان من الطبيعة بعيداً عن جوهره النفسي ، فقال : " الإنسان ليس بإمكانه صنع الآلهة على صورته ، إذ في جوهر الشعور الديني يكمن وعي نفسي بما هو مفارق للإنسان ومتعالٍ عن ظرفه الخاص " (٢) .

١ - مسلان : علم الأديان : ٨٦ .

٢ - علم الأديان : ٨٨ .

ويمكن أن نستفيد من نظرية المعرفة القبلية ، والمعرفة الذاتية المستقلة عن الخبرة الخارجية ، يضاف إليها ما يظهر للإنسان من أفكار ومفاهيم يصعب تفسيرها تجريبياً ولكنها أفكار ومفاهيم طبيعية بحسب رؤية (أوتو) ، وصولاً الى مبدأ ما هو مفارق للإنسان ومتعالٍ عن ظرفه الخاص، ونستدل من ذلك كله على ما اصطلحت عليه بـ(الإيمان الفطري) ، فلدى كل إنسان جانب (خَلْقِي فِطْرِي) يكمن في بنيته النفسية العميقة تتشكل فيه العقيدة والإيمان بالخالق ، وهذا الجانب يتسع لما هو أبعد من (الوعي) و (الشعور) الى (اللاوعي) و (اللاشعور) . وبعبارة أخرى : كل إنسان مؤمن بالفطرة ، ولذلك نرى البشر عبر مراحل وجودهم في الأرض منذ القرون الغابرة يؤمنون بقوة خارقة تتصف بقدرات غير محدودة تهيمن على الكون ، واختلف الناس في تسمية هذه القوة الخارقة كما اختلفوا في (وحدانيتها) أو (تعددها) أو في كنهها وصفاتها . أليس ذلك كله مصداقاً للآية القرآنية الكريمة : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ - الأعراف : ١٧٢) ؟

وبموجب هذه النظرة الشاملة ينبغي أن نفسر الأساطير ونحللها ونستنتج منها ما نشاء ؛ فمركز الدائرة وقطب الرحي في كل ما قيل عن الأسطورة هو هذه (النواة الصلبة) .

الأسطورة والرمز :

يعد الرمز من أهم الدلالات الإيحائية للأسطورة ، فهو يدل على الظاهر المحسوس ، ثم ينصرف الى ما هو أعمق إذ يدل على باطن مغاير لما هو محسوس ، بمعنى أن للرمز دلالتين : ظاهرية تطفو على السطح ، وباطنية تستقر في العمق . وبهذا المنظور عرّف القديس أوغسطين الرمز بأنه " معطى ، فضلاً عن الظاهر الذي يجلبه أمام حواسنا . يجلب للفكر أمراً مغايراً ، كأثر الحافر الذي يُعلمنا بمرور الحيوان" (١) .

ومجازة الرمز للظاهر المادي هي المقدرّة التعبيرية للرمزية . قال مسلان مشيراً الى هذا المعنى : " أقول بوعي : إن الرمزية هي المقدرّة التي يمتلكها الإنسان لتجاوز الظاهر المادي للأشياء " (٢) .

١ - علم الأديان : ٢٤٧ .

٢ - علم الأديان : ٢٤٧ .

وتتضح القوة التعبيرية للرمز في تحول (الظاهرة الى فكرة) . ونجد هذا المفهوم عند الأديب والفيلسوف والشاعر الألماني المعروف (غويته) ؛ فالرمزية لديه تحول الظاهرة الى فكرة ، ومن ثم الى صورة تبقى فيه الفكرة ناشطة متجددة داخل صورتها . قال : " الرمزية تحول الظاهرة الى فكرة ، والتي تتحول بدورها الى صورة ، على نحو تبقى معه الفكرة ناشطة دائماً داخل الصورة ومنيعه وحية الى ما لا نهاية ، وحتى إذا ما فسرت الفكرة بكل اللغات فهي مع ذلك تبقى متعذرة البيان " (١) .

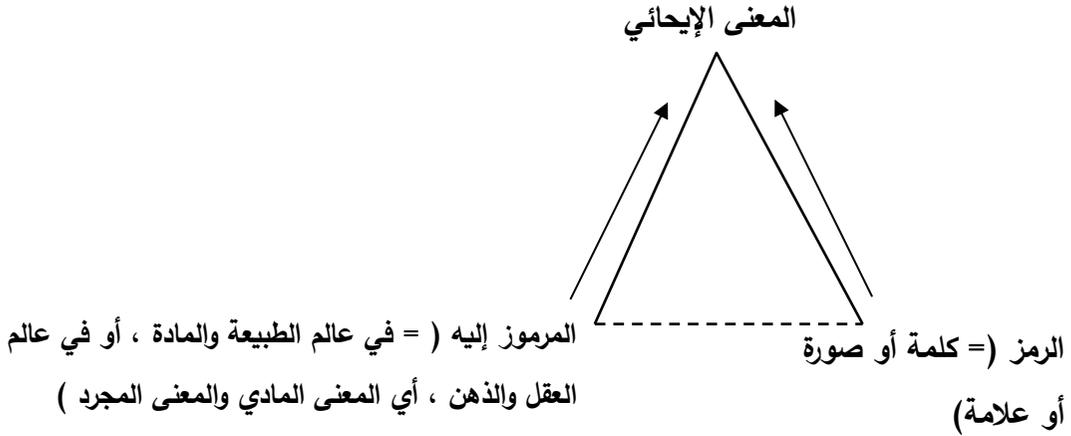
وللرمز قوة جاذبة تستولي على الإنسان وتدفعه الى الإيمان بأنه الأمر المدبر لشأن العالم كما عبّر عن ذلك (كروزر) قائلاً: " يجعل الرمز بشكل ما حتى الإلهي مرئياً... فهو يجلب بقوة فائقة الإنسان الذي يعاينه ويستولي على روحه كأنه الأمر المدبر لشأن العالم " (٢) .

وتكمن القيمة الفاعلة للرمز في فهمه وإدراكه ، فهو ليس بذي جدوى من غير أن يدركه مجتمع بشري ما . ويستمد الرمز قوته الجاذبة من

١ - علم الأديان : ٢٤٨ .

٢ - علم الأديان : ٢٤٧ .

المعنى الإيحائي له . وفي المخطط الآتي بيان للعلاقة بين (الرمز) و (المرموز إليه) و (المعنى الإيحائي) للرمز :



ونسنتج من هذا المخطط أن علاقة الرمز بالمرموز إليه غير مباشرة ، إذ تكون العلاقة بينهما عن طريق المعنى الإيحائي للرمز .

ومن خلال هذه الصلة بين الرمز والمرموز إليه يمكن أن نربط الرمز باللغة ؛ فاللغة كما هو معروف في المنهج الوصفي التركيبي ما هي إلا نظام من العلامات والرموز ، وتعد من أكثر الأنظمة كفاية .

وذهب بعض الباحثين في النظام الدلالي للرموز - ومنهم رولان بارت وشتراوس - الى أن هذا النظام من قبيل الدلالة الثانوية ، والمقصود

بذلك أن الرموز " لغة من درجة ثانية ونظام من أنظمة التعبير عماده اللغة الطبيعية ، غير أنه يمثل دليلاً من الدرجة الثانية " (١) ، أي إن الدلالة في لغة الأسطورة وما ترمز إليه هي دلالة هامشية إيحائية لم تصل الى مرتبة الدلالة المركزية المتصفة بالثبات النسبي في لغة الجماعة أو في معجمها المخزون في الذهن . وقد عرّف أحد الباحثين (٢) الأسطورة من حيث صلتها باللغة والرمز قائلاً : " الأسطورة نمط خاص من أنماط التعبير ، أو لغة خاصة تستند الى اللغة الطبيعية ، ونظام رمزي يعبر عن مشاغل البشر الفردية منها والجماعية لاتصالها بجانب الوعي منهم على اختلاف أشكاله من دين وتأريخ وفلسفة ، أو بما لا يقع منهم تحت دائرة الوعي والإدراك ، ولاتصالها أيضاً بالفعل والنشاط ومختلف أشكال التأثير في الكون والمجتمع من طقوس وشعائر وسحر وشعر وأدب وفن وهلمّ جرّاً " .

وللبنية الرمزية في لغة الأسطورة صلة سببية بالرمزية الدينية المستفادة من التحليل النفسي الباطني والتصور الواعي وغير الواعي للفرد والجماعة ، وقد ذهب بعض الباحثين في هذا العنوان الى القول بـ(نشاط

١ - محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب : ٦٩.

٢ - هو محمد عجينة مؤلف كتاب موسوعة أساطير العرب . انظر فيما يأتي كتابه المذكور آنفاً : ص ٣٥.

رمزي غائر في الطبيعة البشرية) ، وكأنه يشير الى صفة فطرية للرمز في طبيعة الإنسان . قال مسلان : " كشفت المعرفة الواسعة والفهم الجيد للمجتمعات القديمة الى جانب الاهتمام الواسع المتعلق ببنية اللغة الأسطورية الأهمية المنوطة بكل تنظيم إنساني ، أي بكل منظومة دينية للغة الرمزية . وفي الوقت نفسه أبان علم نفس البواطن عن تطور مهم ، واع ولا واع ، فردي وجماعي ، لصور ورموز هي بمثابة أحلام اليقظة للإنسان التاريخي ، وكشف عن وجود نشاط رمزي غائر في الطبيعة البشرية ؛ فالرمز يظهر في الاكتشافات التي تحصل في عصرنا كأمر مرتبط بوجود الإنسان ، فهو يتداخل ضمن جميع علاقات الفرد مع الغير ، ومع الألوهية أيضاً " (١) .

وربط الفيلسوف الفرنسي (دوران) في تعريفه الأسطورة بين عنصري (الرمز) و (الزمان) فقال : " الأسطورة نظم لوقائع رمزية في مجرى الزمان " .

وكان بول ريكور (Paul Ricoeur) أكثر عناية بالصفة القدسية والدينية للأسطورة من خلال وظيفتها الرمزية عند الإنسان ، وارتباط أفعاله

١ - علم الأديان : ٢٤٥ .

وأفكاره بوساطتها ليرى (الإنسان موقعه من العالم) ، إذ قال : " الأسطورة حكاية تقليدية تروي وقائع حدثت في بداية الزمان ، وتهدف الى تأسيس أعمال البشر الطقوسية حاضراً وبصفة عامة الى تأسيس جميع أشكال الفعل والفكر التي بوساطتها يحدد الإنسان موقعه من العالم ؛ فالأسطورة تثبت الأعمال الطقوسية ذات الدلالة وتخبرنا عندما يتلاشى بُعدها التفسيري بما لها من مغزى استكشافي وتتجلى من خلال وظيفتها الرمزية ، أي في ما لها من قدرة على الكشف عن صلة الإنسان بمقدساته " (١) .

وفي فهم ميشال مسلان للأسطورة نرى الأساس الرمزي لها واضحاً لأنها بحسب تعريفه إياها " كشف رمزي لعلاقات الإنسان مع الكائنات ومع الإلهي " ، وهي " لغة خاصة بالإنسان ليست ناتجة عن تخيل صرف كما اعتقدنا ذلك طويلاً تحت التأثير المبالغ فيه لعقلانية صارمة ، بل عن تعبير أولي مباشر لحقيقة مدركة حدسياً من جانب الإنسان " (٢) .

وتتبع أهمية الرمز في الأسطورة أو في غيرها من أوجه التعبير الإنساني من قيمته الذاتية ، وقد عبّر (توما الأكويني) عن هذا المعنى

١ - موسوعة أساطير العرب : ٧٤ .

٢ - علم الأديان : ٢٧٣ .

بربط فعل المؤمن بالحقيقة نفسها لا بالمعبر عنه قائلاً : " في الرمز كما تبينه طريقة الكلام نسعى الى بلوغ المسائل الإيمانية بالشكل الذي يتحدد فيه فعل المؤمن ، إذ لا يتوقف فعل المؤمن عند المعبر عنه بل يتحقق بالحقيقة نفسها ؛ فنحن لا نصوغ إيضاحات إلا لأجل إحداث معرفة بوقائع معينة ، سواء في أمور الإيمان أو العلم " (١) .

وعبر مسلان عن القيمة الذاتية للرمز من حيث التماثل بين الشكل والمضمون ، فقال : الرمز " يمتلك قيمة ذاتية لا نمط كلام ، وهو واقعة حاصلة بفعل التماثل بين الشكل والمضمون ، بين ما له تجلّ عينيّ وبين ما يشكل جوهر الكائنات والأشياء " (٢) .

ولكي تتضح لنا الصلة بين الرمز ومدلوله عن طريق اللغة يحسن بنا تصنيف الأساطير بحسب الألفاظ المعبرة عن هذه الصلة . وهذا ما يدعو الى تفسير الأساطير مجتمعة لا منفردة والنظر فيها من خلال الثقافات البشرية على مرّ العصور ؛ فالتجزئة لا تنفع في فهمها لأنها تمثل سبلاً مشتركة لرؤية إنسانية يكمل بعضها بعضاً .

١ - علم الأديان : ٢٤٨ .

٢ - نفس المصدر .

رموز الإنسان وأعضائه :

عبد عرب الجاهلية الشمس ، ومثلوها بصورة امرأة عارية ، والمرأة رمز الى معاني الأنوثة والأمومة والخصب (١) . وكان (البراهما) في الأساطير الهندية يصور بأربعة وجوه وأربع أذرع ، وأما (شيفا) الإله الراقص فهو محاط بهالة من الأذرع (٢) . وجانوس (Janus) في الأساطير الرومانية ربّ الأبواب والمداخل والبوابات ، وصوروه بوجهين في اتجاهين مختلفين (٣) .

وكان إله النار في أساطير أمريكا الوسطى من أقدم الآلهة عندهم ، ومثلوه بكهّل ذي وجه عميق التجاعيد محنيّ الظهر ، يحمل على ظهره أو على رأسه كأساً مصنوعة لحرق البخور ، وظهر على السفح المكسيكي الأوسط قبل ميلاد المسيح(٤) . ويعد إيناري (Inari) ربّ الزراعة في الأساطير اليابانية ولاسيما زراعة الأرزّ ، وهو الغذاء الأساسي الشائع في

١ - موسوعة أساطير العرب: ١٩٣.

٢ - خليل أحمد خليل : معجم الرموز : ٧٤.

٣ - معجم الأساطير : ١٣٩.

٤ - خليل أحمد خليل : معجم المصطلحات الدينية : ١٥٤ .

اليابان والصين ، ولذلك رمز هذا الإله الى ربّ الخير والعطاء والنماء .
وتظهره رسومه رجلاً شيخاً مع أتباعه ورسله وتعليبين^(١) .

ومن شعائر المصريين القدامى فتح فم الميت إشارة الى جعل كل
أعضائه جاهزة لأداء الوظائف الجديدة^(٢) .

ونستنتج من الأمثلة المذكورة سابقاً أن الإنسان وأعضاءه يرمزان في
مجمل الأساطير الى معاني الأنوثة والأمومة والخصب والقدرة والقوة
وحراسة الحصون والقلاع والأبواب ، ويرمزان أيضاً الى إله مجسد يتصف
بالحكمة والخبرة والزراعة وما يمثله من الطعام الشائع بين شعب ما وأداء
الإنسان لوظائفه الطبيعية في العالم الآخر . والجامع بين هذه المعاني هو
الحياة وشؤونها المختلفة.

رموز الحيوان :

(المقّه) : اسم من أسماء القمر في سبأ ، وكان يعبد في حرم بلقيس
ملكة (سبأ) في عصر النبي سليمان (ع) . واتخذ عرب جنوب الجزيرة

١ - معجم الأساطير : ١٣٢ .

٢ - معجم الرموز : ٣٩ .

العربية الثور رمزاً الى القمر ، وهو رمز (المَقَه) في سبأ ومأرب والنصوص اللحيانية والثمودية^(١) .

ومن الأساطير اليابانية : جروجين (Jorojen) ، وهو ربّ المُعمرين والحظّ الطيّب. ويصور على هيئة رجل ذي لحية بيضاء ترافقه سلحفاة أو لقلق^(٢) ، وهو يرمز أيضاً الى العمر السعيد المتقدم .

ومن الأساطير المصرية القديمة :رينيت (Renenet) أو رينيت (Renenit)، وهي آلهة تجسد أحياناً على هيئة أسد أو رأس أفعى ، وتشارك مع إله العنب (شاي) في بعض الوظائف لأنها آلهة المحاصيل الزراعية ، ومن وظائفها تغذية الطفل منذ ولادته ، إذ تمنحه اسمه وتتبعه عندما يحاكم بعد الموت^(٣) .

ويطلق على ربّ الغيوم والعواصف والسماء في الأساطير الفينيقية اسم حاداد (Hadad) وهو الذي يرسل الغيوم والرعد والبرق . ونظير حاداد في الميثولوجيا البابلية (آداد) ، ويبدو أن التسمية من أصل سامي واحد ،

١ - موسوعة أساطير العرب : ١٩٣ ، ١٩٨ .

٢ - معجم الأساطير : ١٣٩ .

٣ - معجم الأساطير : ٢٢٤ .

ويشار الى حاداد باسم (بعل حاداد) ، وبعل يعني الإله في الفينيقية ،
وينظر إليه سيداً وحاكماً، ويمثّل أحياناً بثور ، وهو رمز القوة والسلطة^(١) .

ويعد آمون (Amon) من أشهر الآلهة المصرية القديمة ، وقد تدرج
هذا الإله في المراتب والوظائف ، فقد كان إله الهواء تارة ، ثم إله الخصب
تارة أخرى ، ثم صار ملك الآلهة وسيد العروش ، الى أن اختص بالملوك
فصار يعبد على أنه (إله الملوك) منذ عهد (آمنمحات الأول) مؤسس
الأسرة الفرعونية الثانية عشرة . وصوّره لابساً رأس كبش أو رأس إوَرّة
النيل^(٢) .

ومن الأساطير الفينيقية : بعل حامون (Baal Hammon) ، وهو
ربّ السماء والإنبات ، والربّ الأكبر لقرطاجة (قرطاجنة) المستعمرة
الفينيقية . ترافق الخروف مع بعل حامون الذي كان يرسم حاملاً إنساناً في
العصور القديمة^(٣) .

١ - معجم الأساطير : ١١٣ .

٢ - معجم المصطلحات الدينية : ٣٥ .

٣ - معجم الأساطير : ٥٦ .

ومن الأساطير المصرية ما يسمى بـ(عُودَة البقرة الوحشية) ، وهي تمثل رأس بقرة مقدسة تحمل الشمس بين قرنين ، وكانت تستعمل لبحث الحرارة في الأجساد المحنّطة (المومياءات) . وتعود هذه العادة الى الإيمان بأن (رع) إله الشمس حينما غاب أول مرة قامت البقرة بإرسال كائنات نارية تسعفه حتى الصباح لكي لا يفقد حرارته (١) .

وليسا (Lissa) من الأساطير الإفريقية ، وهي إلهة عند سكان داهومي . كانت تعبد على أنها ربّة الأم ، وابناها (مادو = الشمس) ، و(غو = القمر) . ويرمز إليها بالحرباء ، وهي طوطم (٢) الإلهة وقبائل الداهومي (٣) .

١ - معجم الرموز : ٣٠ .

٢ - الطوطم (Totem) من الأساطير الإفريقية والشمال الأمريكي ، وهو " حيوان أو نبات أو أي شيء آخر من عالم الطبيعة يستعمل رمزاً الى عائلة أو قبيلة أو جماعة من الناس ، ويعد مقدساً. وتعلق الرموز الطوطمية أو تحفر أو ترسم بألوان فاتحة على أقطاب طوطمية كما يفعل ذلك الهنود الأمريكيان " . معجم الأساطير : ٢٥٦ .

٣ - معجم الأساطير : ١٥٨ .

وباست (Bast) أو باستيت (Bastet) من الميثولوجيا المصرية ربّة الخصب ، وهي ربّة محلية ارتقت الى إله قومي . الهرة حيوانها المقدس ، وصورها على هيئة امرأة لها رأس هرة ترفع بيدها اليمنى قيثاراً أو درعاً (١).

ويستثنى (الكلب) من الحيوان في دلالاته الرمزية الأسطورية من حيث إجماع أغلب الأساطير على التقريب بين رمزيته ومعاني (الموت والجحيم والعالم السفلي والممالك الخفية) (٢) .

ووظيفته الأسطورية الأولى " وظيفة دليل الإنسان في ليل الموت ، بعدما كان رفيقه في نهار الحياة " ؛ فهو الحارس الأمين في المنزل ومع قطع المشية ، ولذلك " يعد حارساً أسطورياً لممالك الموت ، ويقبع عند أبوابها المقدسة " .

وكان من عادة المكسيكيين القدامى الاعتناء بتربية الكلاب المختصة بمواكبة الموتى وإرشادهم في العالم الآخر ، ولذلك كانوا يدفنون مع امواتهم كلاباً لونها كلون الأسد والشمس . وما يزال شعب غواتيمالا يضع في أيامنا هذه أربعة أشكال للكلب عند زوايا المقبرة الأربع ، وأبراجهم

١ - معجم الأساطير : ٥٧ .

٢ - انظر : معجم الرموز : ١٤٥ .

السماوية ثلاثة عشر بدلاً من اثني عشر عند أغلب الشعوب والثقافات ،
والبرج الثالث عشر عندهم هو برج الكلب^(١) .

ومن الأمثلة لرمزية الكلب المرتبطة بالموت والعالم الآخر الإله
أنوبيس (Anubis) في الميثولوجيا المصرية ، ويمثل هذا الإله برأس كلب
أو ابن آوى ، وهو ربّ الجنازات والتحنيط عند الفراعنة ، يقود الموتى الى
العالم السفلي ويشرف على الميزان الذي توزن به قلوب الموتى حينما
يمثلون للمحاكمة قبالة (أوزيريس)^(٢) .

وكان (بعل) ربّاً للخُصْب والإنبات عند الساميين القدماء ، وهو
عند الفينيقيين ربّ العاصفة ومطر الشتاء . مثّلوه بمحارب على رأسه خوذة
بقرني ثور^(٣) .

ومن الآلهة الفرعونية المشهورة : رع - حاراکتي (Ra- Harakte) ،
وهو ربّ الشمس. ويصور على هيئة رأس صقر مرتدياً قرص الشمس^(٤) .

^١ - معجم الرموز : ١٤٥ .

^٢ - معجم الأساطير : ٣٩ .

^٣ - معجم الأساطير : ٥٥ .

^٤ - معجم الأساطير : ٢٢٢ .

ومن آلهتهم : بيديتي (Behdety) ، وهو الاسم الذي أطلق على (حورس) في بيريت مكان عبادته ، وهو مذبح في مصر العليا . ظهرت رسومه على هيئة رأس نسر مع صحن شمس مجنح^(١) .

ومن آلهتهم المشهورة المرتبطة بالصقر : حورس (Horus) ، وهو ربّ السماء والشمس الشريك لـ(رع) . يسميه المصريون (حور) ، ويسميه الإغريق (حورش) ، ولكنه اشتهر باسمه اللاتيني : (حورس) . وهو ابن (أوزيريس) و (إيزيس) ، أو شقيقهما .

وسماه الإغريق أيضاً : (هاربوكراتيس) ، وجعلوه شريكاً لـ(أبولو) . عبد في عدد من الأماكن بأشكال شتى وأسماء مختلفة ، ولكنه يمثل دائماً بصقر أو رأس صقر^(٢) .

ومن آلهتهم المرتبطة بأجزاء الطير : أمنتي (Amenti) أو أمنت (Ament) وهي ربّة تظهر بريشة نعامة أو ريشة صقر على رأسها ، كانت

١ - معجم الأساطير : ٥٨ .

٢ - معجم الأساطير : ١٢٥ .

في بادئ أمرها ربّة إقليم مصر السفلى الغربي ، وصارت فيما بعد ربّة الغرب كله^(١) .

ومن الأساطير الفنلندية : إيلماتير (Ilmater) ، وهي ابنة الهواء التي طارت فوق البحر سبعة قرون ، ثم خلقت العالم من البيض الذي وضعته بطة أو عُقاب في ركبته ، ومن قشور البيض خلقت السموات ، ومن نقط البيض الملونة خلقت النجوم ، ومن صفار البيض خلقت الشمس ، ومن بياضه خلقت القمر^(٢) .

ونستنتج من الأساطير المذكورة سابقاً أن رموز الحيوان فيها تدل على القوة والسلطة والعمر الطويل والحظ الحسن ورعاية الأطفال والخصب والنبات ونشأة العالم . وترمز بعض الحيوانات كالكلب خاصة الى الموت والجحيم والعالم السفلي . والجامع بين هذه المعاني - في الأعم الأغلب - هو القوة والسلطة والحياة والرعاية والخصب والنبات .

رموز النبات :

١ - معجم الأساطير : ٣٥ .

٢ - معجم الأساطير : ١٣١ .

يرمز النبات في بعض الأساطير الى الطبيعة كالسما والاشجار والانهار . ومن الأمثلة لذلك : كوبالا (Kupala) في أساطير الجنوب الأمريكي ، وهو " ربُّ تشتمل عبادته على تقديس الزهور والأشجار ومياه الأنهار . وأتباع هذه العبادة يستحمون في مياه نثرت فيها الزهور ، فإما أن يغرقوا تمثاله ، وإما أن يحرقوه في الطقوس التي تقام لعبادته . وفي الكوبالا تقديس خاص بنبته السرخس وزهرها ، وهي لا تزهر في السنة إلا مرة واحدة ، وذلك في منتصف الليل ، وهي مصدر العطاء والحظ الطيب لمن يمتلكها ، وهو الذي عليه أن يقطعها ويقتلعها أمام أعين الشياطين الذين يحرسونها " (١) .

ومن الأساطير الفنلندية المرتبطة بالنبات : جومالا (Jumala) ، وهو رب السموات والإله الأعلى للفينيين ، وتعد السنديانة شجرته المقدسة (٢) .

رموز الأجرام السماوية والظواهر الطبيعية :

كان أتون (Aton) أو أتن (Aten) من أشهر الآلهة المصرية القديمة ، وهو اسم أطلق على الشمس في أول الأمر قبل أن يتخذ إلهاً ، ثم

١ - معجم الأساطير : ١٥١ .

٢ - معجم الأساطير : ١٤٠ .

صار أتون يدل على القوة الإلهية التي تسكن الشمس ، وعبد إلهاً جديداً بين آلهة أخرى في عهدي (تحوتمس الرابع) و (أمنحوتب) أو (أمنوفيس) الثالث . واتخذ إلهاً واحداً معبوداً في مصر على عهد أمنحوتب أو أمنوفيس الرابع ، إذ فرض الفرعون عبادته على المصريين ؛ وبذلك ظهرت في مصر القديمة أولى بشارات التوحيد ، واتخذ أمنحوتب الرابع لنفسه لقب (اخناتون) أو (اخيناتون) ، ومعناه : (الذي يفرح بأتون)^(١) .

وفي نشيد أتون يمجّد الفرعون المتصوف أعمال إلهة المبدع المحيي قائلاً:

" ... تظهر رائعاً عند الأفق المساوي يا أتون الحي ، مبدع الحياة ، عندما تشرق في الأفق الشرقي تملأ كل مصر بكمالك ... وعندما تغيب في الأفق الغربي تغرق الأرض في الظلام كما لو كانت ميتة ... وعندما تُبدد الدياجي وأنت تنشر اشعتك ينهض المصران مبهتهجين ويستيقظان ، فيغسل سكانهما أجسادهم ، ويلبسون ملابسهم ، وترتفع أذرعهم إليك لتعبدك، ويرتفع المصر كله بالعمل ، وترتفع المواشي في مراعيها ، فيما تخضرّ الأشجار والنباتات ، وتطير الطيور من أعشاشها ... " ^(٢) .

١ - انظر: معجم الأساطير : ٥٠ ، ومعجم المصطلحات الدينية : ١٢ .

٢ - معجم المصطلحات الدينية : ١٢ .

وترمز الشمس والقمر الى (خطيئة المحارم) في بعض أساطير الشمال الأمريكي ، إذ دُكر أليكناك (Aliqnak) أو أنينغان (Aningan) ، وهو الاسم الذي أطلقه الأسكيمو على القمر بعد أن اقترب أخ وأخته الحرام، فصارا منبوزين في الأرض ، فارتقعا الى السماء ، فانقلب أليكناك قمرا ، وانقلبت أخته شمساً (١) .

وكان الناس ينظرون في الأزمنة الغابرة الى الكواكب كأنها آلهة ، ثم نظروا إليها كأنها دوائر تديرها ملائكة ، ثم اتخذت مدلولاً معنوياً " وصورت كأنها مستقر النفوس الكبيرة " (٢) .

وتعد عشتار (Ishtat) من أشهر الآلهة في الميثولوجيا الآشورية والبابلية ، وتطلق على الكوكب الزهرة ، وهي ربّة الخصب والأمومة ، ورمز إليها بالنجمة (٣) .

وأماليثا (Amalthea) التي انقلبت الى برج الجدي في السماء كانت في الأساطير اليونانية عنزة الجبل التي أرضعت (زيوس) في جزيرة كريت،

١ - معجم الأساطير : ٣٣ .

٢ - معجم الرموز : ١٤٨ .

٣ - معجم الأساطير : ١٣٥ .

وهو من آلهة الإغريق المشهورة ، وورد في بعض النصوص أن حورية أرضعته حليب الماعز ، ولذلك أكرم زيوس أمالثيا بأن جعلها برج الجدي في السماء (١) .

ومن الأساطير الهندية إله النار الآري : أغني (Agni) ، وهو أصغر الآلهة الفيديّة الهندوسية . اتخذ شكل البرق وجلب المطر لإخصاب الأرض (٢) . وهو إله النار في كتب (الفيذا) ، وله أهمية بالغة في تقديم الأضاحي والقربان ، لأن شعائر التقديم تجرى للنار إذ يتوجب على ربّ كل منزل أن يقدم قرباناً للنار من اللبن الطازج صباحاً ومساءً من كل يوم . ويقدم القربان عند ظهور الهلال واكتماله بديراً (٣) .

وللنار في الشعائر الدينية الهندوسية أهمية رمزية تتعدى مسألة الأضاحي والقربان من حيث الأداء الى الرمزية المتجددة ، أي قدسية الزمان ؛ ففي نصب المذابح تجدد نظرية (تجدد العالم) ، وقد ورد في نصوصهم أن مذبح النار هو السنة ، وبهذا المعنى يمكن أن نرى في

١ - معجم الأساطير : ٣٤ .

٢ - معجم الأساطير : ٣١ .

٣ - معجم المصطلحات الدينية : ٢٨ .

تصورهم إعادة لصنع العالم وتجديداً لشباب الزمان (بخلقه من جديد) .
والرؤية نفسها تجاه (السنة) من حيث التشابه بينها وبين إله الكون
براجاباتي (Prajapati)^(١) في الدلالة الزمنية المتجددة والمتصنفة
بالقدسية ؛ فكل مذبح للنار جديد " يعيد إنعاش براجاباتي ، أي إنه يشد أزر
قداسة العالم ، فالأمر لا يتعلق بـ(الزمان) المعتاد وبمجرد الديمومة الزمنية
بل بتقديس (الزمان الكوني) ، وإن الغرض من بناء مذبح النار هو تقديس
العالم " (٢) .

ولنا أن نستنتج مما تقدم ذكره من الأساطير أن الأجرام السماوية
والظواهر الطبيعية ترمز - غالباً - إلى الربوبية ومسئور النفوس الكبيرة
والأمومة والخصب. والجامع بين هذه المعاني هو الربوبية والحياة .

رموز الكائنات الخيالية :

صورت الأساطير البابلية والآشورية الشياطين بصور وهيئات
وأشكال مخيفة تبث الخوف والرعب في قلوب ناظرها ، كأن تصور على
هيئة أجسام الإنس ورؤوس الحيوانات ، أو بخليط من أعضاء حيوانية

١ - Prajapati : كلمة سنسكريتية تعني إله الكون .

٢ - المقدس والعادي : ١٠٨ .

مختلفة مخيفة ؛ فعلى سبيل المثال كان لشيطان الحمى " رأس أسد وأسنان حمار وأطراف نمر أرقط ، صوته زئير ، يمسك بيديه أفاعي هائلة " ، وله ثديان يداعبهما كلب أسود وخنزير (١) .

ومن الكائنات الخيالية في أساطير ما بين النهرين إله الحرب نغرسو (Ningirsu) ، وكان يصور على هيئة طير " له رأس أسد . يزمجر كالمايه ، ويندفع نحو البلد المعادي وكأنه العاصفة" (٢) .

ومنها إمدوغود (Imdogud) إلهة الغيوم الممطرة ، صوّروها على هيئة "طائر أسود له رأس أسد يزأر ، وصوته الرعد ، يطير بأجنحة عظيمة ممدودة في الجو" (٣) .

ومن الأساطير السلافية ربّ الحرب والخصب : سفانتوفيت (Svantovit) . كان يعبد في مدينة " (أركونا) التي تقع في جزيرة (روجن) في بحر البلطيق. تمثاله في المعبد له أربعة رؤوس ينظر الى الجوانب

١ - سهيل قاشا : تاريخ الفكر في العراق القديم : ٢٦٦ .

٢ - تاريخ الفكر في العراق القديم : ٤٨ .

٣ - تاريخ الفكر في العراق القديم : ٢٤٨ .

الأربعة ، ويمسك بيده قرناً ، وبمقدار ما في القرن من خمر يتنبأ بأحوال السنة الجديدة إن كانت سنة خير وعطاء أو سنة شرّ وقحط (١) .

وفي الأساطير اليابانية يعد ريدن (Raiden) رباً للبرد ، ويصور على هيئة شيطان له مخالب في أقدامه ويحمل طبلأ (٢) .

ومن الكائنات الخيالية ما يسمى بالهاربيات (Hrpies) في الميثولوجيا اليونانية ، وتوصف هذه الكائنات بأنها مخلوقات كريهة ، لها أجساد طيور ورؤوس نساء ، وهن دليل على الرياح والعواصف المدمرة " ينفثن رائحة نتنة في طعام ضحاياهن ، وينقلن أرواح الموتى ، ويحددن العقوبة الإلهية " (٣) .

ومنها : طائر الرعد (Thunder Bird) في أساطير الشمال الأمريكي، وهو " طائر أسطوري ضخم يشبه النسر . تعتقد بعض القبائل

١ - معجم الأساطير : ٢٤٢ .

٢ - معجم الأساطير : ٢٢٢ .

٣ - معجم الأساطير : ١١٥ .

الهنود الشماليين أنه الروح التي تسبب البرق والرعد ، وهو الذي يجلب المطر لمحاصيلهم" (١) .

وشاع في الأساطير اليونانية ما يسمى بالقنطورات (Centaur) ، وهي كائنات خيالية متوحشة نصفها إنسان ونصفها الآخر حصان (٢) .

ومن أساطير الشمال الأمريكي : غاوة (Gaoh) ، وهو زعيم الريح عند شعب الأرغواز ، وقد صوروه على هيئة مارد مهيم على الرياح (٣) .

وكان سيكروب (Cecrops) في الميثولوجيا الإغريقية كائناً نصفه إنسان ونصفه الآخر تنين ، ونسب إليه تأسيس مدينة أثينا ، ولذلك سميت أيضاً (سكروبيا) . وهذه النسبة من قبيل إضفاء القدسية على المدينة . وتذكر الأسطورة أنه أدخل الى أتিকা - وهي إحدى مدن اليونان - المدنية والقوانين والشعائر الدينية(٤) .

ويعد براهما (Brahma) - وهو الرب الخالق - أول الآلهة الثلاثة في الأساطير الهندوسية . وأما الآخران فهما : (فشنو) و (شيفا) . وتفيد الأسطورة

١ - معجم الأساطير : ٢٥٢ .

٢ - معجم الأساطير : ٧٠ .

٣ - معجم الأساطير : ١٠٤ .

٤ - معجم الأساطير : ٧٠ .

أن براهما ولد من (النارايانا) ، أي البيضة الأولى ، ويصور - عادة - على هيئة أربعة أوجه وأربع أذرع ، ويجلس على عرش من اللوتس^(١) .

ومن الأساطير الصينية التي تمثل قوى الشر : كونغ كونغ (Kung-kung) ، ويصور على هيئة " تتين أو وحش له قرون . حطم أعمدة السماء الزرقاء برأسه ، وتسبب بزلزل كثيرة ما أدى الى طوفان عظيم عندما انهارت قبة السماء وسقطت " (٢) .

وكان المصريون القدامى يؤمنون بكائن روحاني يتصف بالقوة والحركة والتحول المادي سموه : با(ع) ، وهو في عقائدهم أحد المبادئ الروحية ومن صفات الإله القادر على التجسد بفضل هذه القوة أو الملكة التجسدية ، ويعد للإنسان نمطاً من أنماط الوجود الممكن بعد الموت ؛ فالبا(ع) حين ينعق من الجسد يواصل الاضطلاع بكل وظائفه الحيوية من حركة وغذاء وشهوة جنسية كما تدل على ذلك الرسوم في المقابر المصرية كابتزاده في

١ - معجم الأساطير : ٦٢ .

٢ - معجم الأساطير : ١٥٠ .

شجر الجُمَيز^(١) أو سفره في قارب الإله رع " (٢) . ورمز الى هذا الكائن الروحاني بعصفور ذي وجه بشري . ومن المخلوقات الأسطورية في الميثولوجيا المصرية والآشورية واليونانية ما أطلق عليه اسم سفينكس (Sphinx) ، وتترجم هذه الكلمة عادة بـ (أبي الهول) ؛ فقد تجسد في الأساطير الفرعونية بخليط من الإنسان والحيوان إذ كان رأسه رأس رجل أو حيوان ، وجسده جسد أسد .

وأشهر هذه التماثيل (أبو هول) الكائن على مقربة من أهرامات الجيزة ، وهو منحوت من الصخر في عهد المملكة القديمة ، واتخذ التمثال وضع الرابض ويحمل غطاء رأس فرعون " ، وكان الفراعنة يتخذون من هذه الكائنات الاسطورية مداخل الى المعابد والقبور لإيمانهم بأنها تحرسها ، كما هو شأن الثور المجنح في الأساطير الآشورية ، وهو تمثال يجمع بين جسد ثور مجنح ورأس إنسان ذي لحية طويلة وغطاء رأس الملك الآشوري . وكان الآشوريون يعتقدون أنه يحرس أبواب المعابد والقصور والمدن .

^١ - شجرة شبيهة بشجرة التين . انظر : مختار الصحاح ص٧٨ (نشر دار صادر - بيروت ٢٠٠٨م) .

^٢ - معجم المصطلحات الدينية : ٤٣ .

وأما (السفينكس اليوناني) فقد صور على هيئة أجزاء ثلاثة ، الجزء الأول منه امرأة ، والجزء الثاني طير ، والجزء الثالث أسد^(١) .

ومن الأساطير الرومانية المتصلة بالحب والجمال ربّ الحب المسمى كيوبيد (Cupid) ، وهو نظير الربّ اليوناني إيروس (Eros) ، يصور عادة على هيئة صبي مجنح في يديه قوس ونُشاب^(٢) .

ولنا أن نستنتج من الأساطير المذكورة آنفاً أن رموز الكائنات الخيالية تدل على الشياطين والحرب والرعد والرياح والعواصف والربوبية والزلازل والطوفان والحب وبعض المبادئ الروحية . والجامع بين هذه المعاني - في الأعم الأغلب - هو قوى الشر والدمار .

رموز الى أشياء مختلفة :

- عظام الملوك : ذهب الأساطير المصرية الى أن عظام الملوك مصنوعة من فضة ، وشعرهم مصنوع من ذهب ، لدلالة الفضة البيضاء على النقاء والطهارة^(٣) .

١ - معجم الأساطير : ٢٣٩ .

٢ - معجم الأساطير : ٧٨ .

٣ - معجم الرموز : ١٢٩ .

- الرقص المقدس : كانت للرقص المقدس في مصر القديمة دلالات رمزية اختلفت في تفسيرها آراء الباحثين . وقد ربط هنري ويلد (Henri Wild) بين الرقص السحري القديم ورقص الدراويش المتصوفة في الإسلام ، فقال: " يتعين على القفزات المتكررة أن تزداد وتتصاعد كما في الذكر الحديث (حلقات الدراويش) . وهذا ربما كان من آثار الرقص السحري القديم . وفي الحالين هدف هذا الأداء هو التحطيم البطيء لفردية المؤدي وتوليد وجد له تسمح للألوهية بأن تخرقه وتتجسد فيه"^(١).

ونحن نتحفظ من هذه الصلة وتفسيرها ونحترز منها ؛ فلا علاقة بين الرقص السحري القديم ورقص المتصوفة المسلمين ، وربما كانت العلاقة بينه وبين الرقص المصري الفرعوني أظهر وأبين ، لأن طقوس المصريين القدامى امتزجت برؤى سحرية مرتبطة بالآلهة وتقديسها ، فهي نمط من الأداء المقدس.

- (العصا) في الأساطير الهندية والصينية : ترمز العصا في الاساطير الهندية " الى سلاح بين يدي الآلهة ، ولاسيما الإله (ياما) حارس الجنوب ومملكة الموتى " . وأما في الأساطير الصينية فقد كانت العصا تستعمل لطرد الشر والشؤم عند حلول السنة الجديدة ، وكانت

^١ - معجم الرموز : ٣٢ .

- (العصا الحمراء) تستعمل لمعاقبة المجرمين ، ولهذه العصا سبع عُقد أو تسع ترمز الى عدد السماوات أو الأفلاك (١) .
- التاج في الأساطير البوذية : كان لتاج المُلك (الإلهي أو البشري) خمسة ألوان في الديانة البوذية ترمز الى ما يأتي (٢) :
- ١- اللون الأخضر : رمز الى الشمال ، وانعدام الخوف .
 - ٢- اللون الأحمر : رمز الى الغرب ، والتأمل .
 - ٣- اللون الأزرق : رمز الى الشرق والشهادة .
 - ٤- اللون الأبيض : رمز الى الوسط ، والعبرة والتعليم .
 - ٥- اللون الأصفر : رمز الى الجنوب ، والمحبة .
- ثوب القضاة في الأساطير اليابانية : كان إمّاو (Emmao) ربّاً بوذياً ، وحاكماً لـ (Yomi) ، وقاضياً تعرض عليه أفعال الخاطئين ، إذ توزن أفعال كل خاطئ قبل أن يدان ويدفع به الى الجحيم في مكانه المناسب لخطيئته . وكان إمّاو " يصور وهو يرتدي ثوب القضاة ، وعلى وجهه تعبير الوعيد " (٣).

١ - معجم الرموز : ١١٧ .

٢ - انظر: معجم الرموز : ٣٦ .

٣ - معجم الأساطير : ٩٢ .

المبحث الخامس

صراع اللغات

(المقدمات والنتائج)

تمهيد :

صراع اللغات من الموضوعات المتصلة بتاريخ اللغات وتطورها وتأثير بعضها في بعض آخر وريقيها أو تقهرها وبمجل ما يحصل لها من تغير عبر مراحلها التاريخية الى أن تسود أو تنكفي أو تموت وتنقرض.

وهذا الحقل من حقول الدراسات اللغوية له صلات وشيجة بتاريخ الحضارات والثقافات والعقائد والأديان والنظم السياسية والاقتصادية والعلاقات التجارية واللهجات المختلفة المتفرعة من اللغات والبيئات الاجتماعية بما فيها من عادات وتقاليد ومثل، يضاف الى ذلك كله البنية الأساسية للغات من حيث قيمها اللغوية والحضارية وقدرتها على الصمود والتصدي للتيارات المختلفة والعوامل المؤثرة في سيرها عبر المراحل التاريخية ، ولا يمكن أن نخفي آثار السلوك الفردي والعوامل النفسية أيضاً فيما يخص الاستعمال اللغوي .

هذا كله وغيره من العوامل الثانوية هياً سبل البحث في (صراع اللغات) . ولا يمكن فصل هذا الموضوع عن نظرية (صراع الحضارات) فهو ذو علاقة بهذه النظرية أيضاً لأن اللغة تمثل ركناً أصيلاً من أركان أي حضارة وثقافة ، على ألا نبالغ في معطيات نظرية صراع الحضارات كما ظهرت عند الأمريكان والأوربيين ، ونأخذ منها ما هو جدير بالأخذ على وفق الاستقراء الدقيق لسير الحضارات الإنسانية وتآلفها أو تخالفها واحتكاكها

بعضها ببعض وما تؤول إليه من نتائج وما يترتب عليها من إرهابات التغيير الشامل أو الجزئي وما تنتهي إليه من حقائق تستند الى الواقع المعقول أو المنظور و الملموس .

وتعود العلاقات اللغوية في تأريخ البشرية الى عهود قديمة قبل ظهور أولى الحضارات المدونة في مصر ووادي الرافدين بآلاف السنين ، وعلّق هارمان على هذه الحقيقة بقوله : ".... إن العلاقات اللغوية كانت قائمة منذ أربعين ألف سنة على الأقل ، ما يعني أن هذه الظاهرة تميز التطور البشري على أحسن ما يرام . وعلى الرغم من عدم القدرة على البرهنة على العلاقات اللغوية الموجودة في كل ثقافة من الثقافات وفي كل حقبة من الحقبة الزمنية المختلفة فإن هذه العلاقة تقوم بدور مهم بالنسبة الى جميع الثقافات المختلفة في العالم وعلى طوال الفترات الزمنية التي مرت على وجودها"^(١) .

ولغات البشر يتأثر بعضها ببعض ولاسيما المتجاورة منها . وعامل التأثير والتأثر هذا هو الذي يرفد اللغة عبر تطورها التاريخي ، ولا يمكن للمرء أن يتخيل لغة ما منكفئة على نفسها من دون أن تتأثر بغيرها مهما بلغت عزلتها . قال فنديس : "تطور اللغة المستمر في معزل عن كل تأثير خارجي يعد أمراً مثالياً لا يكاد يتحقق في أي لغة ، بل العكس من ذلك فإن

^١ - تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٤٦ .

الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيراً ما يلعب دوراً مهماً في التطور اللغوي" (١) .

وللصراع اللغوي أسباب متعددة وأوجه مختلفة تعمل منفردة أو مشتركة على انتشارها ، وقد تكون بعض الأسباب قهرية كأن يفرض الغالب عسكرياً أو حضارياً أو قومياً لغته على المغلوب ، وقد تكون الأسباب انفعالية كشعور المغلوب بانحطاطه الحضاري فيتمثل بلغة الغالب لرفع الشعور بالضعف عنه، وهذا ما نجده - مثلاً - في المهاجرين الى الولايات المتحدة من القوميات المختلفة التي تشعر أو تتوهم أنها دون البيئة الجديدة ثقافة .

ويعد عنصر (الإقناع) من المسوغات الأساسية لانتشار اللغات ، وهو وجه آخر من أوجه صراعها ولكنه صراع (سلمي) إذا صح التعبير والتمثيل . ودوافع الإقناع مختلفة ومتنوعة وتشمل أساساً العوامل العسكرية والدينية والاجتماعية ذات الصلة النفعية للفرد والجماعة .

وقد ذهب (أوستلر) وهو من الباحثين في تاريخ اللغات الى هذا المذهب ، وقال في مقدمة كتابه ذاكراً الغرض من تأليفه : "إن هذا الكتاب يتعقب تاريخ تلك اللغات التي امتدت الى أوسع نطاق كجزء من التاريخ الإنساني الذي نعرفه الآن ، وبطريقة ما ولأسباب متنوعة فإن المجتمعات الناطقة بتلك اللغات تمكنت من إقناع آخرين بالانضمام إليها ، وهكذا

١ - اللغة : ٣٤٨ .

توسعت. أما دوافع ذلك الإقناع فيمكن أن تكون شديدة التنوع ، فهي تشمل السيطرة العسكرية ، والآمال بالازدهار والإثراء ، والتحول الى اعتناق الدين، أو الدوام في المدارس الداخلية ، والخدمة في الجيش ، وأسباب أخرى . ولكن هذا الإقناع في الأساس هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنتشر بها اللغة، وهو ليس شيئاً صغيراً كما يعرف أي شخص حاول متعمداً أن يتعلم لغة أخرى" (١) .

واحتكاك لغتين أو أكثر بعضهما ببعض آخر وتبادل التأثير بينهما أمر مسلم به عند الباحثين في هذا المجال من البحث اللغوي ، و "ذهب بعض علماء اللغة بناء على هذه الحقيقة الى أنه لا توجد لغة غير مختلطة ولو الى حدّ ما" (٢) .

وتختلف قدرة اللغات على مقاومة التأثير من لغة الى أخرى ، ولا تحصل المنافسة بين لغتين على وتيرة واحدة دائماً وإنما تختلف مستويات التماس والاحتكاك والنتائج المترتبة على ذلك تبعاً لقوة اللغة على المنافسة وتأثيرها في غيرها أو قدرة اللغة على دفع ما يمكن دفعه من عوامل التأثير (٣). وقد يحصل الصراع بين لغتين متكافئتين من حيث عوامل الصراع فتتقدم

١ - إمبراطوريات الكلمة ، تاريخ اللغات في العالم : ٢٩ .

٢ - اللغة : ٣٤٩ .

٣ - أنظر : اللغة : ٣٤٩ .

إحداهما وتتقهقر الأخرى كما يحدث حين يصطدم جيشان في معركة ، ولكن هذا التقدم أو التقهقر لا يعني مجابهة عسكرية بين تلك اللغتين وإنما هو (انتقال في الحدود) انتشاراً أو انحساراً وانتقال عناصر إحدى اللغتين الى الأخرى حتى تتم لها الغلبة عليها وتفقده المغلوبة الكثير من عناصرها . قال فندريس موضحاً معنى المعركة بين لغتين متكافئتين متمثلاً بالألمانية والفرنسية في سويسرا : "تتقدم اللغتان وتتقهقران على نحو ما يفعل جيشان متجابهان ، فتأخر إحداهما أو تقدمها معناه انتقال في الحدود : ذلك أن الناس إما أن يتكلموا الفرنسية وإما أن يتكلموا الألمانية فليس أمامنا هنا معركة منظمة ولا أرض يكسبها الغالبون باضطرارهم المغلوبين الى التقهقر وإنما يوجد فقط انضمام دائم لعدد كبير من عناصر إحدى اللغتين الى الأخرى حتى ينتهي الحال الى أن تفقد إحداهما كل جنودها الوطنيين. وهذا توغل سلمي لا حرب فيه ولا غزو"^(١).

ومن الأسباب الموجبة لنشأة اللغات المشتركة أن تتنافس لغتان أو أكثر وينتهي بهما الأمر الى لغة مختلطة تتخذ لغة مشتركة ، ويحدث ذلك في غالب الأمر بوجود توازن بين اللغتين وإن كانت اللغة الغالبة تتخذ قاعدة

١ - اللغة : ٣٥٣ .

لهذا الامتزاج . وقد يحصل أن تنشأ لغات مشتركة من "مزج لغات مختلفة بنسب تكاد تكون متساوية"^(١) .

ويعود التنظير لمقولة الاتصال بين اللغات الى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إذ راجت نظريتان في هذه الفترة تبحثان عن الاتصال أو الاحتكاك بين اللغات ، تدعى الأولى (نظرية الجماعات الحضارية) وتتضمن دراسة العادات اللغوية للجماعات الحضارية القديمة وما يحصل بينها من تماس وما يترتب عليها من نتائج . وتدعى الثانية (نظرية العادات اللغوية لجماعات دخيلة على أهل اللغة) ، وقد اتخذها بعض العلماء بدلاً من النظرية الأولى وإن كانت تتضمن أيضاً كثيراً من عناصرها ، وتشتمل على البحث في العادات القديمة والدخيلة في اللغات والأثر "الذي تتركه لغة في أخرى حتى ولو لم تختف إحدى اللغتين" .

وبعد الفترة المذكورة آنفاً اتجه البحث في (الاتصال بين اللغات) بدلاً من استعمال عبارة (أثر العادات اللغوية الحضارية القديمة)^(٢) . وترتب على هذا الانعطاف في استعمال العبارات والمصطلحات المرتبطة بهذا الموضوع ظهور ثلاثة مضامين متعاقبة زمنياً تتناول بالبحث ظاهرة التأثير بين اللغات على النحو الآتي :

١ - اللغة : ٣٦٤ .

٢ - باي : لغات البشر : ٩٦ .

١. نظرية الجماعات الحضارية أو العادات اللغوية للجماعات الحضارية .

٢. نظرية العادات اللغوية لجماعات دخيلة على أهل اللغة .

٣. نظرية الاتصال بين اللغات .

واتخذت نظرية الجماعات الحضارية منهجاً في دراسة اللغات الرومانسية المنحدرة من الأصل اللاتيني على نحو واسع عند اللغويين الأوروبيين لتفسير "اختلاف فروع هذه اللغة عن الأصل اللاتيني" ، فقد ذهب (فريدريك دياز) - على سبيل المثال - الى أن تغيير الصامت (f) الى الصامت (h) في أوائل الكلمات الأسبانية قد يعود " الى عدم رغبة الباسك الأيبيريين في نطق الصامت f " . ومثل ذلك ما ذكره أسكولي في كتابه المعنون بـ (الأصوات اللاتينية) من أن شيوع الصائت (u) في المناطق التي كان أغلب سكانها يتحدثون قديماً اللغة الغالية (فرنسا والمناطق الشمالية في إيطاليا وبعض أجزاء من سويسرا) يعود "الى عادات النطق الكلتيّة التي استمرت على الرغم من انتشار الحضارة الرومانية في هذه البقاع" (١) .

ومن الأمثلة الصوتية في هذا المجال تحول الصامت (p) في اللغة الجرمانية كما في كلمة (pater) الى الصامت (f) كما في كلمة (father) الانكليزية ، ويعود السبب في ذلك الى "العادات اللغوية لسكان المناطق

١ - لغات البشر : ٩٦ . والكلتية فصيلة من اللغات الهندية الأوروبية وتشتمل على اللغة الإيرلندية ولهجة إقليم (ويلز) . انظر : معجم اللسانيات الحديثة : ٦٤ .

الجرمانية الأصليين" . ومن الأمثلة أيضاً تأثر الآرامية بالنظام الصوتي للغات القوقازية في المناطق المجاورة لها، واستعارة السنسكريتية للأصوات الصامتة المنعكسة من لغات الهندالرافيدية . ومن الأمثلة النحوية التركيبية (التعقيدات النحوية) الملحوظة في اللغة الإيرلندية القديمة إذ قيل إن السبب في ذلك يعود الى "أن جماعات أيبيرية أو بربرية كانت تسكن هذه المناطق" (١) .

وللقيمة الذاتية للغة أهميتها في خضم الصراع اللغوي ، والمقصود بالقيمة الذاتية البنى اللغوية ومدى قوتها في التصدي حين تتعرض لغتان للصراع . ولاشك في أن اللغات تختلف من حيث المقدار في قيمها الذاتية باختلاف بناها وقابليتها في الصمود تجاه بعضها بعضاً ، فالأرمنية - على سبيل المثال - تراجعت أمام الروسية في أوروبا ولكن البولونية صمدت للروسية في غرب الإمبراطورية القيصرية ، وكلا اللغتين متساويتان من حيث القوة ولا تستطيع إحداهما التغلب على الأخرى . وبموجب القيمة الذاتية للغة يمكن أن نفسر سبباً مهماً من أسباب انتشار بعض اللغات الهندية الأوروبية والسامية كالعربية (٢) .

وكما يحصل الصراع بين اللغات يحصل أيضاً بين اللهجات ، فتعمل كل لهجة محلية على الاحتفاظ بوجودها وبناها ومحاربة عوامل التغيير في

١ - لغات البشر : ٩٥ .

٢ - اللغة : ٣٥١ .

رقعتها الجغرافية ودرء الأخطار الوافدة إليها من خارجها^(١) . ويحدث أحياناً أن تحتك لهجة بأخرى من أخواتها احتكاكاً دائماً فينتهي الى الصراع بينهما وتكون نتيجة الصراع هذا ألا تؤثر إحداها في الأخرى تأثيراً بالغاً إذا تساوتا ثقافة وقوة ونفوذاً ، أو أن تؤثر إحداها في الأخرى إذا لم تحصل المساواة بينهما في الأمور المذكورة آنفاً .

ويختلف مقدار التأثير باختلاف الأحوال بين تأثير يسير لا يتعدى بعض الظواهر اللغوية ولاسيما الصوتية والدلالية أو تأثير بالغ عميق ينهي اللهجة المغلوبة^(٢) .

وللعامل الحضاري والثقافي أهميته التي تفوق العوامل الأخرى ولاسيما السياسية منها في الصراع اللهجي ، فإذا ما تفوقت منطقة ما على أخرى ثقافياً وحضارياً وكان لها نصيب أوفى وأكبر وأوسع من حيث آداب لغتها كانت للهجتها الغلبة على لهجة المنطقة الأخرى التي تتسم عادة بأنها أقل نصيباً منها في هذا المجال وإن لم يكن لها سلطان سياسي عليها . والأمثلة لذلك كثيرة ومتنوعة ، منها : تغلب اللهجة السكسونية على اللهجات الألمانية الأخرى في القرن السادس عشر قبل أن تتكون الألمانية الحديثة وقبل أن تتغلب لهجة برلين على سائر اللهجات الألمانية الأخرى ، وغلبة التوسكانية

١ - انظر : علي عبد الواحد وافي : علم اللغة ١٦٥ .

٢ - انظر : علم اللغة : ١٦٧ ، ١٦٨ .

في إيطاليا على اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادي وقبل قيام الدولة الإيطالية الموحدة الحديثة (١) .

صراع اللغات والعوامل السياسية :-

للغة أهمية كبيرة في القضايا السياسية سواء على الصعيد الداخلي أم على الصعيد الإقليمي والخارجي . وتظهر هذه الأهمية في العلاقات السياسية بين الدول ، ومبدأ تنقية اللغة من العناصر الأجنبية لأسباب سياسية وقومية ، وسيطرة لغة على لغات أخرى قهراً أو نتيجة لأوضاع سياسية تقتضي ذلك ، وغيرها من الظاهر التي تربط اللغة بنحو من الأنحاء بالقضايا السياسية .

هذه القضايا وغيرها هيأت لحقل جديد في الدراسات اللغوية يسمى (المباحث اللغوية السياسية والإقليمية) (٢) . أو من الممكن تسميته - على سبيل الاتساع - بـ (علم اللغة السياسي) .

ونظرت بعض الأنظمة الى اللغة على أنها أداة ووسيلة لنشر مبادئها وأفكارها بين الناس ولاسيما الأنظمة ذات الصفة (الشمولية) كالاتحاد السوفييتي إذ حدثت فيه إصلاحات لغوية وكتابية واحتدم النقاش في أهمية اللغة ومدى تطويعها للفلسفة الماركسية والشيوعية اللينينية ، وانتهى الى فصل اللغة عن هذه الأفكار وأعلن ستالين "وجوب جعل اللغة مستقلة عن

١ - علم اللغة : ١٦٨ .

٢ - انظر : لوتز : علم اللغة (ضمن مجموع آفاق المعرفة) : ٢٩٨ .

المبادئ الماركسية المتعلقة بالقاعدة الاقتصادية للمجتمع وتركيباته المختلفة الأخرى التي تقوم عليه" (١) .

وتتعمد بعض الشعوب تبعاً لأنظمتها تكريس لغة دون غيرها ونشرها لأسباب وطنية أو لإظهار الاستقلال أو للنفور من دولة مجاورة ، فقد أتجهت إيرلنده - مثلاً- الى إحياء لغتها الوطنية القديمة تخلصاً من اللغة الانكليزية التي تمثل الإنكليز أعداءهم التقليديين (٢) .

وتقتضي الضرورات السياسية حلوياً رسمية تنبعث من أسباب سياسية لمعالجة المشاكل اللغوية كما جرى في جنوب إفريقيا بعد القضاء على (الفصل العنصري) إذ اتجه النظام الرسمي الى الاعتماد على اللغات الرسمية الإحدى عشرة التي تشمل اللغات المحلية الإفريقية تضاف إليها اللغات المستوردة الأوروبية الأصل (الانكليزية والافريقانية) .

ويعد هذا الإجراء بمثابة نظام لغوي جديد ذي صبغة سياسية للاتصال والتعاون بين القوميات والمجموعات (الإثنية) المختلفة في البلاد (٣) .

وغالباً ما تختلط الدوافع القومية بالدوافع السياسية ، فقد عمدت بعض الأنظمة في أوروبا إبان الدعوات القومية الى مبدأ (تنقية اللغة) وتخليص

١ - لوتز : علم اللغة : ٢٩٨ .

٢ - اللغة : ٣٥٠ .

٣ - هارمان : تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٤٧ .

لغاتهما من شوائب اللغات الدخيلة عليها ، حاول ذلك هتلر وزعماء روسيا في العهد السوفيتي ومصطفى كمال أتاتورك في تركيا^(١) . وشاه إيران محمد رضا بهلوي قبل الثورة الإسلامية .

وقد تتحول (الكتابة) الى عامل من العوامل السياسية أيضاً تبعاً للغة ، فالكتابة هي العنصر التدويني لأي لغة وهي ترتبط بالأبجدية ، ولذلك كان ينظر الى نظم الكتابة على أنها لا تمثل الظاهرة الثقافية حسب بل تشتمل على عوامل سياسية تقتضي اتخاذ نمط معين من الكتابة وصورة مفضله - وقد تكون مفروضة - من الأبجديات .

وقد احتدم الصراع في روسيا قبل الثورة وبعدها بين نظامين للكتابة ، أحدهما اتخذ معياره من الكتابة الكيريلية المنسوبة الى (كريلوس) واضع الأبجدية السلافية وتعد اللغة الروسية من اللغات الأساسية في الفرع السلافي المنحدر أصلاً من الأسرة الهندية الأوروبية الكبرى . والآخر اتخذ معياره من الكتابة اللاتينية أي الأبجدية اللاتينية ؛ فكان النمط الأول وسيلة للتعبير عن الأدب الديني للشعوب غير الروسية قبل سنة ١٩١٨ . وفي عهد لينين كانت الكتابة اللاتينية (وسيلة ثورية للتحديث) بخلاف عهد ستالين الذي اتخذت فيه الكتابة الكيريلية اتجاهاً (سلطوياً وحيداً في السياسة الداخلية)^(٢) .

١ - انظر : إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة : ١١٩ ، ١٢٠ .

٢ - تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٦٥ .

وأصبحت فيما بعد رمزاً الى السلطة الروسية المتمثلة بسياسة ستالين اللغوية، ولذلك بدأ عصر انحسارها قبيل سقوط الاتحاد السوفيتي وبعد سقوطه، وعُدّ هذا المنحنى دلالة على الانعتاق اللغوي لدى الشعوب غير الروسية التي كانت خاضعة لحكم السوفيت عقوداً من السنين ورمزاً الى التحرر المناوئ لهم . وخير مثال لذلك اللغة الأذرية وهي لغة آذربيجان ؛ فقد استعملت الكتابة الكيريلية في رسم اللغة الأذرية طوال الفترة الكبرى من الحكم السوفيتي، ثم حلت محلها الكتابة اللاتينية منذ سنة ١٩٩١ .

والمنافسة بين الكتابات في البلقان ما تزال مستمرة الى يوم الناس هذا، وقد ورثت المنطقة منذ مئات السنين اللغة اللاتينية التي جلبها الرومان الى المنطقة عن طريق الغزو العسكري والحضاري لجنوب شرق أوروبا واستعملت على أنها (بضاعة ثقافية) في كثير التي كانت سائدة في هذه المنطقة ، بيد أن الكتابة الكيريلية حلت محلها في العصر الحديث بعد اتساع النفوذ السوفيتي ، ثم عادت المنافسة بين الكيريلية واللاتينية من جديد بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وأندلاع الحرب في يوغوسلافيا وتفتتها لأسباب سياسية . وتشهد البوسنة والهرسك الى يومنا هذا صراعاً ثقافياً قوياً بين الكتابتين^(١) .

وتخضع لهجات اللغة الواحدة الى صراع أسبابه سياسية أيضاً ، ويقتضي الاستقراء لبعض مظاهر الصراع اللهجي السياسي أنه إذا تغلبت

^١ - تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٦٦ .

لهجة منطقة على أخرى خاضعة لسلطانها وكانت اللهجتان على قدم المساواة من حيث الحضارة والثقافة والآداب ، أو قريبة إحداهما من الأخرى في هذا الوصف كتبت الغلبة والنصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، كما يلحظ ذلك في لهجة باريس التي قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التي خضعت لنفوذها ، ولهجة لندن مع اللهجات الانكليزية الأخرى ، ولهجة مدريد مع اللهجات الأسبانية ، ولهجة روما في العصور القديمة مع اللهجات الإيطالية^(١) .

^١ - وافي : علم اللغة : ١٦٨ .

صراع اللغات والعوامل الحضارية والثقافية :-

العوامل الحضارية والثقافية من أهم العوامل في صراع اللغات ، لأن صراعها صراع للأداة التدوينية للحضارة وهي اللغة ، ولا يمكن أن نتصور حضارة ما منذ فجر الحضارات من غير لغة ، وتلك التي لم تدون وأعني بها الحضارات المتدنية أو البدائية اختفت من دون أن تترك آثارها في سجل التاريخ الطويل للبشرية .

وإذا صحت مقولة (صراع الحضارات) أو صح بعض عناصرها فاللغة والدين من أهم مرتكزاتها . وإذا أخذنا بالمقولة الأخرى أي (حوار الحضارات) أو (احتكاك الحضارات) أو (تكامل الحضارات) فإن مبدأ التأثير والتأثر ركنها الأساسي ، ولا يحصل تأثر وتأثير بمعزل عن اللغة إذا أُريد لحضارة ما الاستمرار والديمومة لإيصال أفكارها للأجيال المتعاقبة. والعلاقات اللغوية من العوامل الثابتة في استمرارية التطور الثقافي للبشرية. قال هارمان مشيراً الى اعتماد تطور الحضارات على نوعية العلاقات اللغوية: "لقد كانت دينامية تطور الحضارات القديمة في العالمين القديم والجديد تعتمد في كثير من الأماكن على نوعية العلاقات المحلية والداخلية"^(١) .

وتكتسب اللغة (هيبته) من قيمتها الذاتية ، وللقيمة الذاتية أوجه ، منها القيمة الثقافية ؛ فاللغات ذات الخزين الثقافي أكثر تأثيراً من غيرها وإن

^١ - تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٤٦ .

كانت تفتقر الى العنصر العسكري المتمثل بالغزو كاللغتين الإغريقية والتركية العثمانية في عصر الامتداد العثماني في الأجزاء الشرقية والجنوبية الشرقية من أوروبا ، إذ لم تصمد التركية العثمانية كثيراً تجاه الإغريقية مثلاً أو تجاه اللغات الأخرى في المنطقة لأنها دون تلك اللغات حضارة وثقافة^(١).

ويعود البحث في موضوع (الاتصال بين اللغات) أو (احتكاك اللغات) الى القرن التاسع عشر كما تقدم ذكره . وعني علماء اللغة بهذا الموضوع وبينوا أهميته ولاسيما (ج.أ.أسكولي) اللغوي الايطالي . وتتخلص أطروحة هذه المدرسة اللغوية في أن اللغات الدخيلة تتأثر بالعادات اللغوية التي أكتسبها أصحاب اللغة الأصلية وإن اختلف لغتهم وانصهرت في اللغة الدخيلة . وإذا ما تبنى دخلاء جدد في مكان ما لغة أهله الأصلية وتخلو عن لغتهم فإن لغتهم ستؤثر في لغة أهل المنطقة التي دخلوا فيها^(٢) .

وأورد أصحاب هذه المدرسة أمثلة مختلفة ، منها انتشار اللاتينية في بلاد السنيغال وأيبيريا وأغلب إيطاليا علماً بأن اللاتينية لها ثقل واضح من حيث القيم الثقافية يفوق كثيراً اللغات المحلية التي انتشرت فيها .

وبعد انتشار مقولة (العولمة) والثقافة العالمية ذات الاتجاه الواحد في تسعينيات القرن العشرين والعقد الأول من هذا القرن ومحاولة الحضارة

١ - اللغة : ٣٥١ .

٢ - انظر : لغات البشر : ٩٥ .

الأوروبية الهيمنة على الحضارات الأخرى وصهرها في بوتقة واحدة ظهر للباحثين في هذا الميدان أن بعض الثقافات قد حافظت على سماتها وخصائصها وتراكيبها ، واستدلوا على ذلك بالثقافات المنتشرة في جنوب شرق آسيا التي استمدت عناصرها من عمق تأريخها القومي وبما وفد إليها من حضارات الصين والهند والإسلام ، وكانت الحصيلة في رأي أحد الباحثين : "أن العولمة والتنوع اللغوي والثقافي المحلي لا يتناقضان بل إنهما اتجاهاً لهما توجهات لها آثار متبادلة"^(١) . وبمعنى آخر أن العولمة لا يمكنها نفي الحضارات الأخرى وإخراجها من الميدان مهما أوتيت من قوة الغلبة والتأثير . وهنا يكمن موضع الخلل الأساسي في أطروحتها التي ستؤدي بها الى الفشل . ومن جملة النتائج المهمة للعاملين الحضاري والثقافي في الصراع اللغوي هو اقتراض اللغات بعضها من بعض آخر . وموضوع الاقتراض من الموضوعات اللغوية المتعددة الأسباب والعوامل والنتائج .

ومن أسبابه ما يدعى بـ (النزعة الى التفوق والامتياز) ، ويتحقق ذلك بالتطور الحضاري والثقافي للغة ، وينبغي "أن تكون الأمة التي يراد الاقتراض من لغتها محسوبة في عداد الأمم التي ينظر إليها بأنها جديرة بالتقليد في كل المجالات وبوجه عام أو بحال معين على أقل تقدير"^(٢) .

١ - تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٦٩ .

٢ - أولمان : دور الكلمة في اللغة : ١٤٦ .

وتعد اللغة الإنكليزية من اللغات التي اقترضت الكثير من الألفاظ لعوامل حضارية وثقافية واستعمارية وغيرها ، يضاف الى ذلك ميل هذه اللغة الى استيعاب اللغات الدخيلة والوسائل التعبيرية التي تدل عليها ؛ فالتراث الثقافي الضخم لتأريخ اللغة الإنكليزية يكشف عن أهمية العوامل التي أدت الى اقتراض الآلاف من الكلمات، وتمثلت هذه العوامل بالاستعمار الروماني والآثار التي تركها السلتيون في حياة الإنكليز وانتشار المسيحية والفتح النورماندي والفترة الطويلة للحكم اللاتيني والفرنسي وعهد النهضة وعهد إحياء العلوم الإنسانية والتوسع الاستعماري للإمبراطورية البريطانية والاتصال بأغلب اللغات والحضارات في بقاع الأرض ، ذلك كله استوعبته اللغة الإنكليزية فأثرت بناها وأساليبها ومعجمها (١) .

وربما يظن بعض الباحثين أن الاقتراض يشتمل على استعارة المفردات والعبارات حسب لكثرة هذه الظاهرة حين تدرس لغة ما كالفارسية الحديثة التي اقترضت قريب الأربعين بالمائة من العربية ، ولكن الأمر يتعدى المفردات الى الأساليب والقواعد (٢) .

ويحدث الصراع الحضاري للغات بين لغتين قد تكون إحداها غالبية والأخرى مغلوبية ، أو تتساويان في ميزان القوة والمنافسة ، فإن كان الغالب

١ - انظر : دور الكلمة في اللغة : ١٤٣ .

٢ - وافي : علم اللغة : ٢٢٦ .

أرقى حضارة من المغلوب انتصرت لغته على المغلوب واتخذت لغة للسكان جميعاً ولا عبرة لكثرة عدد أفراد المغلوب شريطة أن تدوم الغلبة والقوة والقدرة مدة من الزمن تكفي لترسيخ الأثر ، وأن يترك الغالب جالية يعتد بها في بلاد المغلوب ، وأن تكون اللغتان من أسرة لغوية واحدة أو من أسرتين متقاربتين^(١).

والأمثلة لهذه الصفة من الصراع اللغوي كثيرة ، منها : غزو الرومان لأوروبا وتغلب اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وأسبانيا وبلاد الغول (فرنسا وما حوالها) والألب الوسطى .

وغزو الآراميين للبلاد الناطقة بالأكدية والفينيقية وتفرعاتهما إذ تغلبت لهجات الآراميين على لغة السكان الأصليين علماً بأن المغيرين كانوا أقل عدداً .

وتغلب العربية على البلدان التي افتتحت في الفتح الإسلامي إذ تغلبت على اللغات السامية غير المنقرضة كاللهجات الآرامية في العراق وبلاد الشام، وتغلبها على الفارسية والقبطية والبربرية .

وقد تتغلب إحدى اللغتين على الأخرى لعوامل غير حضارية كأن تكون شعوب اللغة الغالبة أكثر عدداً من شعوب اللغة المغلوبة سواء أكانت

^١ - وافي : علم اللغة : ٢١١ .

لغة الغالب أو المغلوب أصيلة أم دخيلة شرط أن تكون اللغتان من أسرة لغوية واحدة أو من أسرتين متقاربتين^(١) . فقد تغلبت لغة الإنكليز السكسون على اللغة السلطية التي كان يتكلم بها السكان الأصليون حينما هاجروا من أواسط أوروبا الى انكلترا ، وكلا اللغتين من أسرة اللغات الهندية الأوروبية . وأغار النورمانديون في منتصف القرن التاسع الميلادي على إنكلترا ولم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم فأخذوا يتكلمون الإنكليزية السكسونية لأن الإنكليز المغلوبين كانوا أكثر عدداً ، وكلا الشعبين كانا يفتقران الى الحضارة والثقافة ، وكلتا اللغتين تنتميان الى الهندية الأوروبية .

صراع اللغات وعوامل الغزو والهجرة :-

يمثل لنا الغزو العسكري الصراع الحقيقي بين اللغات بالمفهوم الحربي للكلمة. والهجرة كالغزو ولكنها من غير حرب ؛ فاللغة الرومانية القديمة اتسعت مع غزوها لأرجاء كثيرة من الإمبراطورية وتغلبت على عدد من لغات أوروبا ، وهاجر الإنكليز السكسون الى الجزر البريطانية وهم يتكلمون الإنكليزية المنحدرة من الأصل الجرمانى فاحتدمت في صراع مع اللغة المحلية التي كانت سائدة هناك ، وغزا النورمانديون الجزر البريطانية في القرن الحادي عشر ومعهم اللغة الفرنسية فحدث صراع بينها وبين لغة السكان

^١ - وافي : علم اللغة : ٢١٠ .

المحليين وهي الإنكليزية^(١) ، وسيادة العربية بعد الفتوحات في العراق والشام
ومصر وبلاد المغرب أمر معروف ومشهور .

ولا تترك اللغة المغزوة - في الأعم الأغلب - آثاراً كبيرة في اللغة
الغازية ، وربما اقتصرت بعض آثارها على الكلمات المختصة بالبيئة كأسماء
الأعلام والأمكنة والبقاع وألفاظ معبرة عن أشياء مرتبطة بتلك البيئة^(٢) ؛
فاللغة الرومانية التي قضت على كثير من لغات أوروبا لم تترك فيها تلك
اللغات آثاراً كبيرة ، وغزو العربية للبلدان التي افتتحها العرب المسلمون لم
تترك فيها لغات البلدان المفتوحة آثاراً كبيرة كبلاد فارس وبلدان آواسط آسيا
وأسبانيا ومصر وغيرها ، ومن المعروف أن القبطية - مثلاً وكانت اللغة
السائدة في مصر قبل الفتح الإسلامي - لم تترك في العربية إلا بضع كلمات.

وقد تقع الحرب بين شعبين مختلفي اللغة أو بين شعوب مختلفة
اللغات، وتطول مدة الحرب ما يهيئ المزيد من الاحتكاك بين اللغات
المتصارعة ، ويؤدي ذلك الى تبادل التأثير والتأثر فيما بينها .

ومن جملة الأمثلة لذلك احتكاك كل من الألمانية والفرنسية والإنكليزية
بعضها ببعض في الحربين العالميتين ، وحرب الثلاثين التي نشبت بين
أنصار البروتستانتية وأنصار الكاثوليكية وامتدت من سنة (١٦١٨ م) الى

١ - إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة : ١١٤ .

٢ - من أسرار اللغة : ١١٥ .

سنة (١٦٤٨ م) إذ هيأت هذه الحرب سبل الاحتكاك بين الفرنسية والألمانية فانقلت بعض المفردات الى كل منهما من الأخرى^(١) .

وقد يحصل العكس بين لغتين لأمتين متحاربتين فيكون الفوز للغة الأمة المغلوبة على الغالبة لقلّة عدد الغزاة ، ولكن بعد حين من الزمن لا تبرا من آثار لغة الغزاة ، كالغزو النورماندي للجزر البريطانية إذ بقيت اللغة الفرنسية سائدة في الطبقة الحاكمة وأصحاب النفوذ جيلاً أو أكثر ، ثم اصطنعوا اللغتين الفرنسية والإنكليزية ، ثم استقروا في خاتمة الأمر على الإنكليزية التي أصابها تغيير في بعض أصواتها وتجديد في بعض أساليبها.

قال بلومفيلد موضحاً هذا السجال بين اللغتين : "إن اللغة التي يهزم أصحابها عسكرياً وسياسياً قد تنتصر في آخر الأمر على اللغة الغازية لقلّة عدد الغزاة الذين يهضمون بعد زمن ما في البيئة الجديدة ، غير أنها بعد انتصارها تصبح مثخنة بآثار ذلك الصراع المرير ، فلا تكاد اللغة الغازية تندثر أو تزول حتى تكون قد تركت في اللغة المغزوة جراحاً أو ندوباً هي في الحقيقة بعض الصفات التي أستعارتها من لغة الغزاة"^(٢).

وربما يحصل شيء من (التوازن) بين اللغتين الغازية والمغزوة في بعض الأمثلة التاريخية إذا استوفيت ظروف معينة فتتكفى المغزوة في ناحية

١ - وافي : علم اللغة : ٢٢٥ .

٢ - من أسرار اللغة : ١١٤ .

من بيئتها وتتقلص مساحتها الجغرافية ولكنها لا تندثر ، فتتعايش اللغتان معاً في البيئة نفسها^(١) . ومثال ذلك الكلتية والإنكليزية إذ حلت الإنكليزية محل الكلتية في كثير من الأماكن بعد غزو الإنكليز السكسون للجزر البريطانية، ولكن الكلتية صمدت في بعض المناطق مثل (ويلز) إذ بقي سكانها يتكلمون اللغتين معاً .

صراع اللغات والعوامل الدينية :-

الدين والحضارة يعدان من أخطر العوامل المحركة للصراع اللغوي ، وإذا صحت أطروحة (صراع الحضارات) أو بعض أوجهها فإن للدين الحظ الأوفى والنصيب الأكبر فيها ، وصراع اللغات وجه من أوجه صراع الحضارات كما أسلفنا. وإذا توجهنا لتقاء الأطروحة المقابلة وقلنا بـ (حوار الحضارات) أو (احتكاكها) أو (تأثيرها وتأثرها) أو (تكاملها) استوفى العامل الديني حصته في هذا المضمار أيضاً .

وللأسباب الدينية أوجه مختلفة في الصراع اللغوي أهمها تقبل مجتمع ما لدين أو لعقيدة تكون مرتبطة بلغة الجماعة في أداء الشعائر الدينية كالمجتمعات الإسلامية التي ارتبطت في عقائدها وشعائرها باللغة العربية .

^١ - من أسرار اللغة : ١١٥ .

والعامل الديني محفز لمقاومة اللغة تأثير اللغات الأخرى فيها . قال فندريس : "الشعور المنبعث من وجود جماعة دينية يزيد مقاومة اللغة قدرة"^(١)، ومثل لذلك بالمنافسة اللغوية في البلدان البلقانية ، وديمومة اللغة الأرمنية لوجود كنيسة أرمنية مستقلة تعمل على حفظ لغتها المرتبطة بعقائدها .

واقتران الأديان باستعمال لغة من اللغات من القضايا المسلم بها ، وقد تقترن لغة ما بدين أو عقيدة وإن كانت غير مستعملة في الحياة اليومية، وتبقى مثل هذه اللغة مرتبطة بالطقوس الدينية كاللغة اللاتينية في الكنيسة الرومية الكاثوليكية ، والعبرية القديمة عند اليهود في شعائرهم الدينية قبل انبعاث العبرية الحديثة ، وارتباط الفارسية البهلوية بالطقوس الزرادشتية لأن ما بقي من نصوص (الأوستا) قد ترجم الى البهلوية بعد ضياع النصوص التي دونت باللغة الأوستائية القديمة .

وللكتابة أهميتها في هذا المجال أيضاً للعلاقة الوثيقة بين حروف الكتابة والدين كما نلاحظ ذلك - مثلاً - في الصراع بين الكروات الكاثوليك والصرب الأرثوذكس في الحرب العالمية الثانية ؛ فقد استعمل الكروات الحروف اللاتينية في حين استعمل الصرب الحروف السيريلية^(٢) .

١ - اللغة : ٣٥٠ .

٢ - لوتز : علم اللغة : ٢٩٨ .

وتتضح الأهمية الدينية للكتابة في التأريخ الثقافي لبلدان جنوب شرق أوروبا وهي دول البلقان ؛ فقد شاع استعمال الكتابتين اللاتينية واليونانية في هذه البلدان منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، وبعد مضي قرون من الزمن ظهرت كتابات أخرى مثل الكيرلية وهي الأبجدية السلافية ، والعبرية والعربية^(١) .

الصراع اللغوي والعوامل الاجتماعية :-

إن الاحتكاك بين اللغات واللهجات قد يحصل لأسباب اجتماعية مختلفة في مظاهرها ومتباينة من حيث تأثيرها ولاسيما تلك التي تكون في منطقة واحدة أو تتجاور في مناطقها . والعلاقة السببية بين الاختلاط الاجتماعي والاتصال اللغوي من المسلمات التي لا تحتاج الى دليل ، وغالباً ما يترك التفاعل الاجتماعي بين بيئات تتكلم لغات مختلفة أثره في استعارة كلمات أو أساليب أو دلالات مثلاً فتؤثر لغة في أخرى تبعاً لمسوغات التأثير الاجتماعي ، وينطبق ذلك أيضاً على اللهجات كما ينطبق على اللغات في البيئة الواحدة ، بيد أن عامل التأثير والتأثر ليس هو العامل الوحيد في هذا المجال ، فهناك أسباب ومسوغات أخرى مثل محاكاة اللغات التي توجد في بيئة واحدة بعضها لبعض آخر ، فهذه اللغات التي تتحدر من أصول مختلفة (تتغير تراكيبها وتصبح فيها عوامل مشتركة) نتيجة لمحاكاة المتكلمين بها

١ - تأريخ اللغات ومستقبلها : ٢٦٥ .

بعضهم لبعض . وفي اللغات البلقانية الثلاث الرومانية والبلغارية والألبانية دليل واضح على ذلك ، فهي لغات تنتمي الى بيئة اجتماعية واحدة أو متقاربة من حيث المكان وتنحدر من فروع مختلفة وإن اتحدت في أصولها القديمة ، لأن الرومانية تعود الى الفرع الروماني والبلغارية تعود الى الفرع السلافي في حين تعد الألبانية فرعاً مستقلاً من اللغات الهندية الأوروبية ، ونتيجة للمحاكاة فإنها اشتركت - على سبيل المثال - في أداة التعريف إذ تضاف هذه الأداة في كل منها الى آخر الاسم (١) .

وقد توجد لغتان أو أكثر في بيئة واحدة ولكن إحداها تتفوق على الأخرى من حيث المركز الاجتماعي الذي يتمثل بمعايير منها التفوق الحضاري أو الكثرة العددية للمتكلمين بها أو العنصر الذاتي للغة نفسها أو غيرها من المعايير ، وفي هذه الحالة تكون الغلبة للغة المتفوقة إذ تحل محل اللغات الأخرى على مرّ الزمن ، وإذا ما بقيت اللغة المغلوبة عصية على الاندثار في بعض المناطق المنعزلة فإنها ستضطر الى استعارة الآلاف من الكلمات وربما الأساليب والأصوات والبنى اللغوية الأخرى . والمثال الواضح في هذا المجال هو اللغة السلتيّة بعد أن غزتها الإنكليزية التي تفوقها من حيث المركز الاجتماعي في الجزر البريطانية . وأجاب جيسرسن عن السؤال المستفسر عن السر في ندرة المفردات السلتيّة في اللغة الإنكليزية على نقيض كثرة المفردات الإنكليزية في السلتيّة العامة قائلاً : "إن السبب يجب أن يبحث

١ - لغات البشر : ٩٦ .

في المركز الاجتماعي للمجموعتين اللغويتين ؛ فلقد كان من دلائل الامتياز عند السلتيين المغلوبين على أمرهم أن يطعموا كلامهم باقتباسات إنكليزية خالية من البهاء والرونق بكثرة الاستعمال على حين لم يخطر على بالهم قط أن يضمنوا لغتهم الإنكليزية أي شيء من تعبيراتهم ذات الألوان البيئية الخاصة^(١) .

ومن المظاهر الاجتماعية المؤثرة في الصراع اللغوي الهجرات السلمية للأفراد والجماعات ، أو الاستعمار عن طريق الهجرات الاجتماعية من دون حرب أو غزو عسكري . ويقتضي ذلك أن تنتشر جماعات من شعب ما في بلدان غير بلدانها ويتسع عددها على مر السنين فتتألف منها أمة تتكلم بلغتها^(٢) ، كاستعمار الإنكليز السكسون لأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا ، فقد انتشرت اللغة الإنكليزية في هذه الأقليم والأمكنة بعد جيل من الزمان واندثرت لغات السكان الأصليين إلا ما ندر ما عدا جنوب إفريقيا بعد تحررها من سلطة البيض وقيام الحكم الوطني فيها .

وعمل الاستعمار الإسباني وهو استعمار صاحبه غزو عسكري لأمريكا اللاتينية على انتشار اللغة الأسبانية فعمت أمريكا الوسطى كالمكسيك وأمريكا الجنوبية سوى البرازيل ، وامتد نفوذها الى جنوب شرق آسيا وشاعت

١ - دور الكلمة في اللغة : ١٤٦ .

٢ - وافي : علم اللغة : ١٥٨ .

في جزر الفلبين بيد أن لغة السكان الأصليين في هذه الجزر أو اللغات الأخرى الوافدة إليها في تاريخها الثقافي لم تندثر واستعادت مكانتها بعد قيام الدولة . وأصبحت اللغة البرتغالية نتيجة للاستعمار البرتغالي لغة سكان البرازيل في أمريكا الجنوبية وسكان المستعمرات البرتغالية في إفريقيا وجزر المحيط الهندي ، واستعادت بعض اللغات المحلية كيائها بعد استقلالها كما حدث في المستعمرات البرتغالية في إفريقيا.

وليس بالضرورة أن تشيع لغة المستعمرين في المستعمرات لأن الصراع الناتج من اللغتين ، لغة المستعمر ولغة السكان الأصليين ينتهي الى إحدى النتيجتين : إما أن تنصر إحداها على الأخرى فتشيع بين الناس وتصبح لغة السكان جميعاً ، وإما أن لا تقوى إحداها على الأخرى فتعيشان معاً^(١)، وينظر الى ذلك القطر على أنه ثنائي اللغة .

ومن أكبر الهجرات في تاريخ أوروبا الهجرات الى العالم الجديد أي أمريكا ، فقد استوعبت أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية الغالبية العظمى من سكانها نتيجة لهجرات الأوروبيين ، وقد نقل هؤلاء لغات أوروبا الى أمريكا كالإنكليزية والفرنسية والأسبانية والألمانية ، وشاعت الإنكليزية في أمريكا الشمالية في حين شاعت الأسبانية في كثير من أنحاء أمريكا الوسطى والجنوبية كما تقدم ذكره ، واتخذت الإنكليزية المشوبة ببعض التحريفات

^١ - وافي : علم اللغة : ٢١٠ .

الصوتية والتغيرات البنيوية لغة رسمية في الولايات المتحدة الأمريكية وعرفت بالإنكليزية الأمريكية ، وأصبحت الأسبانية لغة رسمية في أقطار أمريكا الجنوبية ما عدا البرازيل . ولا يخفى أن ما حصل من تغيرات في الإنكليزية الأمريكية قد حصل أيضاً في الأسبانية الأمريكية والبرتغالية الأمريكية نتيجة لهجرات القوميات المختلفة الى هذه الأصقاع . وكان تأثير غير الأوربيين من المهاجرين أكثر وضوحاً فيما حدث من التغيرات البنيوية يضاف الى ذلك أثر اللغات المحلية للسكان الأصليين .

وللعوامل النفسية والثقافية والاقتصادية أهميتها في هذا المجال ، لأن دواعي الخوف من السخرية والإحساس بالانحطاط ، أو على النقيض من ذلك وأعني الاعتزاز بالثقافة والتقاليد الاجتماعية تستدعي في المثال الأول الانخراط في اللغة الشائعة ، وفي المثال الثاني الاحتفاظ باللغة الأصلية التي يحملها المهاجر معه ، ولا يحدث التغيير إلا بعد سنين ، أو يحتفظ المهاجر بلغتين لغته الأصلية واللغة الشائعة ، يضاف الى ذلك كله العامل الاقتصادي المتمثل بتحسين المورد المالي والعامل الاجتماعي المتمثل بتحسين الوضع الاجتماعي للمهاجر في مجتمعه الجديد .

وذهب بلومفيلد الى هذا المنحى من التعليل والاستنتاج قائلاً : "إن هؤلاء المهاجرين لا يلبثون طويلاً حتى نراهم يصطنعون لغة البيئة الجديدة مشوبة في أول الأمر ببعض أصوات لغتهم الأصلية وأساليبيها ، ثم لا يكاد أن يمر عليهم جيل من الزمن حتى يسيطر أبناؤهم وأحفادهم على اللغة

الأمريكية ، ذلك لأنها تمثل في نظر أغلب المهاجرين اللغة العليا ، ولأنها اللغة التي تقضي مصالحهم في البيئة الجديدة وتساعدهم على الاندماج وتحسين أحوالهم اجتماعياً واقتصادياً . ويسارع خوفهم من الهزء والسخرية بالنقد في تعلم اللغة الجديدة واتقانها ، غير أن بعض الأسرات المثقفة التي اعتزت بتقاليدها الأصلية وبمظاهر الثقافة في بيئتها قبل الهجرة تظل زمنياً أطول محتفظة بلغتها حريصة عليها" (١) .

عوامل متفرقة في الصراع اللغوي :-

منها العامل الاقتصادي والمعاملات اليومية بين الناس ، فإذا افترضنا منافسة بين لغتين في بيئة واحدة وكانت كلتا اللغتين متساويتين من حيث القوة والمتانة والصلاحية حدثت المنافسة بينهما في الميدان الاقتصادي أي في تعامل الناس بعضهم مع بعض ، لأن ما سوغ لذلك هو المصلحة العملية للناس وليست مزايا اللغتين في ذاتهما ؛ فالحدود اللغوية تتغير اتساعاً وانكفاءً بقدر العلاقات الاقتصادية في مثل هذه الحالة . قال فندريس موضعاً هذا المعنى ومتمثلاً باللغتين الألمانية والفرنسية في المدن السويسرية : "لنفترض أننا بصدد لغتين من ذوات المدنية العظيمة كالألمانية والفرنسية ؛ فاللغتان كلتاهما قويتان تستويان في القوة . وبينهما اختلافات في البنية على جانب من الأهمية ، فإذا ما تعرضتا للمنافسة لم يكن لهذه المنافسة آثار لغوية وإنما

١ - من أسرار اللغة : ٢١٥ .

تكاد تنحصر آثارهما في الميدان الاقتصادي . والمدرسة هي المكان الذي يهياً فيها الكفاح بينهما ، ولكن الانتصار في الكفاح ينال في ميدان المعاملة أي في صميم الحياة ، لذلك نسمع أن الألمانية قد طردت الفرنسية من هذه القرية أو تلك المدينة من المدن السويسرية أو أن العكس قد حدث في قرية كذا وكذا .

وليس هنا موضع بحث مزايا اللغتين في ذاتهما ، فسكان هذه القرى كان في متناول أيديهم أدواتان متساويتان في المتانة والصلاحية فاخترتا من بينهما أصلحهما في حاجات أعمالهم . ذلك بأنه ينشأ هناك ميل الى نقل الحدود اللغوية بحسب الجهة التي ترد منها العلاقات الاقتصادية ؛ فالمصلحة العملية هي وحدها الحكم في مثل هذه الحالة ، وهي التي تحكم لهذه اللغة أو تلك ، وقد تبقى اللغتان زمناً طويلاً في حالة التعادل" (١) .

وتعد التجارة أيضاً من العوامل الاقتصادية المؤثرة في احتكاك اللغات وتأثير بعضها في بعض آخر ، فالعلاقات التجارية بين شعبين مختلفي اللغة لا تقتصر على تصدير السلع أو استيرادها وإنما تصدر معها أو تستورد أسماءها الأصلية فتنتشر تلك الألفاظ والمصطلحات بين أفراد الشعبين وتترك العلاقات التجارية أيضاً أثراً متبادلة في اللغة (٢) .

١ - اللغة : ٣٤٩ .

٢ - وافي : علم اللغة : ٢٢٦ .

وتحدد الحدود الجغرافية بين الشعوب في بعض الأماكن من العالم خريطة للغات واللهجات ، فنقسم البلدان بحسب الحدود اللغوية ، ويظهر للعامل الجغرافي أهميته أيضاً في احتكاك اللغات وربما في صراعها ، ومن جملة الأمثلة لذلك تقسيم الإمبراطورية النمساوية المجرية في مؤتمر فرساي عقب الحرب العالمية الأولى بحسب الحدود اللغوية ، وكانت اتفاقية ميونخ تشجع على تحقيق فحوى الشعار المتضمن (لغة واحدة ، دولة واحدة)^(١) .

ولوسائل الإعلام والاتصالات الحديثة كالإنترنت تأثيرها المباشر وغير المباشر في المنافسة بين اللغات ، فتحدث المنافسة بين اللغات العالمية (وأشهرها في هذا المجال اللغة الإنكليزية) واللغات المفردة في توفير أكبر قدر من المعلومات والاستحواذ عليها . وتعد الإنكليزية حصراً بمثابة احتكار لغوي لمستخدمي الإنترنت المتحدثين بها ، وأما أولئك الذين يستخدمون لغات أخرى غير الإنكليزية فينبغي لهم انتقاء المعلومات المطلوبة بالتعامل مع العديد من اللغات ^(٢) .

ومن الأسباب العاطفية لقوة اللغات والمحافظة على سلامتها ما دعاه فنديرس بـ (عامل الهوية)^(٣) ، وهو عامل ذاتي يرتبط بما للغة من رصيد

١ - لوتز : علم اللغة : ٢٩٦ .

٢ - تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٤٨ .

٣ - انظر : اللغة : ٣٥٠ ، ٣٥١ .

حضاري وثقافي وبما لها من نفوذ على المستوى الإقليمي ، فاللاتينية - مثلاً - قضت على لغات أخرى كانت منتشرة في إيطاليا بعد قيام الإمبراطورية الرومانية ، ووصلت هيبتها الى بلاد فرنسا وما حوالها المعروفة ببلاد (الغول) ما جعل الغوليين بعد قرن من الزمن على غزو بلادهم أن يرسلوا (أساتذة في الخطابة الى روما) يخطبون باللاتينية . وقاوم الإغريق لغة الفاتحين روماً كانوا أم أتراكاً لأنهم كانوا يحتقرون لغة الفاتحين ويشعرون بـ (هيبة لغتهم) وأفضليتها من غيرها .

النتائج :-

تترتب على الصراع بين اللغات نتائج تختلف من حيث النسبة والمقدار والاتجاهات ، فبعضها يرتبط بالبنية اللغوية ولاسيما الصوتية والصرفية والدلالية ، وبعضها الآخر يرتبط بمدى شيوع اللغات انتشاراً أو انحساراً أو اضمحلالاً .

وفيما يأتي أهم النتائج مشفوعة بالأمثلة والشواهد :-

١- تجاور شعبين مختلفي اللغة : إذا تجاور شعبان لكل منهما لغة تختلف عن الأخرى وحصل بينهما تماس واحتكاك لأسباب مختلفة نشأ صراع بين لغتيهما ينتهي الى إحدى نتيجتين : إما أن تتغلب إحدى اللغتين على الأخرى وتحتل مناطقها فتصبح لغة مشتركة بين الشعبين ، وإما أن لا تقوى إحداها على الأخرى فتبقيان معاً . وللكثرة العددية والرقى

الحضاري والثقافي في هذا الفرض أهمية كبيرة لأن زيادة السكان لأحد الشعبين تزيد من فرص الاحتكاك بين لغته ولغة المناطق المجاورة له إذا امتد النمو السكاني وزحف تجاه تلك المناطق شريطة ألا تقل حضارته وثقافته عن الشعوب المجاورة له^(١) . وقد طغت اللغة الألمانية على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا في أوروبا الوسطى وقضت على لهجاتها الأولى : سويسرا والجيك والسلوفاك وبولونيا والنمسا وإلخ .

٢- تغلب لغة شعب على لغة شعب آخر : إذا تغلغل نفوذ شعب في شعب آخر مجاور له فالغلبة تكون للشعب الأقوى نفوذاً على أن لا يكون أقل نصيباً في حضارته وثقافته وآداب لغته من الآخر ويترجح تغلبه إذا كان أوفر نصيباً في الحضارة والثقافة^(٢) . وفي بعض اللغات الأوروبية أمثله وشواهد ، منها تغلب اللغة الفرنسية على لغة شعوب الباسك في المناطق التي خضعت للنفوذ الفرنسي، وتغلب اللغة الأسبانية عليها في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الأسبان .

ومنها ما حدث للهجاء السلتنية التي كانت لغة لأغلب السكان في إيرلنده وويلز واسكتلنده إذ أخذت هذه اللهجات بالانكفاء عن مناطقها بعد أن طغى

١ - وافي : علم اللغة : ٢١٩ .

٢ - وافي : علم اللغة : ٢١٩ .

نفوذ اللغة الإنكليزية في البلاد فانحسرت من لغة الأدب والكتابة حتى كادت أن تنقرض تماماً .

ولابد من الأخذ بنظر الحسبان أن تغلب إحدى اللغتين على الأخرى لا يحصل إلا بعد أمد طويل يبلغ أحياناً قرناً من الزمن ، ولا تخرج اللغة الغالبة سليمة معافاة كما كانت ، بل تتأثر في ظواهرها باللغة المغلوبة ولاسيما المفردات ، والكلمات المقترضة التي تستعيرها اللغة الغالبة من المغلوبة ينالها بعض التحريف في حروفها ومعانيها وأساليب نطقها^(١) .

٣- اللغة العليا واللغة الدنيا : ظهر في كثير من الأمثلة التاريخية في صراع اللغات أن هناك لغة عليا وأخرى دنيا وتمتاز العليا بكثرة المتكلمين بها وعلو مرتبتها من حيث الحضارة والثقافة وتفوقها في المجالين الحربي والسياسي بخلاف الدنيا التي تقل عنها شأنًا في مثل هذه المزايا^(٢) .

٤- الصراع بين اللهجات : يحدث في اللهجات ما يحدث في اللغات من صراع، فتتغلب لهجة على لهجة أخرى وتحصل في بناها تغييرات صوتية وصرفية ودلالية وقواعدية . ويمكن أن نلاحظ ثلاثة أطوار أو مراحل في مجمل التغييرات الطارئة على اللهجة المغلوبة ، ففي الطور الأول تستعير اللهجة المغلوبة من الغالبة كثيراً من المفردات ولكنها

١ - وافي : علم اللغة : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

٢ - من أسرار اللغة : ١١٤ .

تحتفظ بأصواتها وأساليب نطقها وبنيتها الصرفية ، وفي الطور الثاني تتسرب الى اللهجة المغلوبة أصوات اللهجة الغالبة وأساليبها في النطق، فينطق أصحاب اللهجة المغلوبة ألفاظهم الأصلية وما انتقل إليها بحسب البنى الصوتية للهجة الغالبة ولكنها تحتفظ في هذا الطور بقواعدها الصرفية والنحوية . وفي المرحلة الثالثة تضعف مقاومة اللهجة المغلوبة حتى تتغلب عليها قواعد اللهجة الغالبة وتجهز عليها ، بيد أن آثاراً قليلة تظل باقية في اللهجة المغلوبة (١) .

٥- نظريتان في اختلاط اللغات : هناك نظريتان في اختلاط اللغات تفسر مدى تأثير اللغات بعضها ببعض ونسب الاختلاط بينهما ، فتذهب الأولى الى "أن اللغات كلها تعد لغات مختلطة ولو الى حد ما" أي بنسب متفاوتة من الاختلاط ، وتذهب الثانية الى "أن الإنسان لا يتكلم مطلقاً في الوقت الواحد إلا لغة واحدة ، وأن وحدة اللغة المتكلمة تستقر بكل بساطة في شعور المتكلم ، ولا عبرة بعد ذلك لما يكتشفه التحليل في هذه اللغة من عناصر أجنبية" ، ويرى فندريس إنه يمكن التوفيق بين هاتين النظريتين بالبحث عن "أي حد تستطيع العناصر الأجنبية أن تفسد وحدة اللغة التي تضاف إليها" (٢) .

١ - انظر : وافي : علم اللغة : ١٦٩ ، ١٧٠ .

٢ - اللغة : ٣٥٨ .

وإذا افترضنا أن العناصر الأجنبية قد أخلت بوحدة اللغة التي تضاف إليها كنسبة الألفاظ العربية - مثلاً - في الفارسية الحديثة فهل يمكن أن يستشعر المتكلم بها وجود مثل هذه العناصر ؟ الجواب: لا ، لأن المتكلمين بلغة ما مهما أوغلت في استعارة العناصر الأجنبية لا يشعرون بذلك ، فهذه مسألة يبحث فيها المعنيون بعلم اللغة ويعرفونها حق معرفتها بعد تحليل الظواهر وتتبع العناصر في أصولها . وينطبق على هذا الأمر أيضاً ما ينطبق على ذي اللسانين أي الذي يتكلم لغتين مختلفتين فهو "يتعرض عن غير شعور منه لاستعمال طرق التعبير الخاصة بإحدهما عند الكلام بالأخرى" (١) ولكنه لا يستشعر ذلك، فلو سُئل عن العناصر الأجنبية لحر جواباً .

٦- النحو وصراع اللغات : تشكل البنية الصرفية والنحوية لكل لغة قواعد تلك اللغة، والبنى القواعدية للغات عصبية على التغيير إلا بعد مراحل من احتكاك لغتين أو صراعهما ، ولا يحدث التغيير إلا في المراحل النهائية أي حينما تشرف اللغة على الاضمحلال والذوبان في لغة أخرى ، وفي هذه الحال تفقد عناصرها الأساسية في التركيب وتستعير عناصر غيرها التي تحاول أن تحل محلها . ومنذ سنة (١٨١٩ م) أكد (Grimm) : "أن فقدان النحو نتيجة حتمية لصراع اللغات" ، وعلى الرغم من أن هذا الرأي لا يصح على كل النتائج غير أنه يقع في كثير

١ - اللغة : ٣٦٠ .

من الأحيان ، ولذلك علّق فندريس عليه قائلاً : "..... والواقع أن هذه النتيجة ليست حتمية ، ولكننا نشاهد وقوعها في كثير من الأحيان ؛ فاللغات التي تنتقل تفقد على وجه العموم خصائصها الفردية أسرع من غيرها ، وذلك لأنها معرضة لتأثيرات متعددة ومتنوعة تقع عليها من لغات تختلف عنها كثيراً في غالب الأحيان ، والانتقال في غالب أمره سبب للتحلل اللغوي" (١) . واستدل على قوله باللغة الإغريقية في بلاد الإغريق والمستعمرات الإغريقية والاختلاف بينهما ، وعزا الاختلاف إلى "تأثير اللغات غير الإغريقية التي كانت مستعملة في الأقطار التي مدّ الإغريق إليها نشاطهم" .

٧- الاقتراض والصراع اللغوي : إن العلاقات المتبادلة بين اللغات تؤدي في بعض سبلها إلى (عمليات انصهار محتملة) تتراوح بين استعارة الألفاظ الثقافية وتغيرات عميقة في بنية اللغات(٢) . ويمكن تطبيق نظرية (العادات اللغوية القديمة) التي ذكرناها فيما تقدم أو ما يعرف حديثاً بـ (الاتصال بين اللغات) على استعارة اللغة مفردات من لغة أخرى ، وأمثلة ذلك كثيرة في تاريخ اللغات عامة ، منها على سبيل التوضيح لا الحصر(٣) : اشتمال اللغتين الإسبانية والبرتغالية على

١ - اللغة : ٣٦٣ .

٢ - تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٦٧ .

٣ - انظر : لغات البشر : ٩٧ .

كلمات مقترضة من لغات الباسك والأيبيرية والعربية لا توجد في اللغات الرومانسية الأخرى ، واشتمال اللغة الفرنسية على نسبة كبيرة من الكلمات الغالية والفرنكية ، وأخذت اللغة الرومانسية كلمات كثيرة من اللغات السلافية والتركية والإغريقية البيزنطية والمجرية ، ودخلت كلمات فرنسية في الإنكليزية ، وكلمات عربية في كل من التركية والفارسية والأردية ، واقتضت اللغتان اليابانية والكورية كلمات من اللغة الصينية.

ويعد اقتراض الألفاظ من أهم ظواهر الاقتراض اللغوي ولاسيما الألفاظ التي تحتاج إليها اللغة في حياتها العملية كمسميات الأشياء التي لا وجود لها في بيئتها ، والألفاظ العلمية والثقافية ، فمثل هذه الألفاظ غالباً ما تستعيرها أمة أقل ثقافة وحضارة من أمة أخرى تفوقها في هذا المجال^(١) .

وقد تعتمد بعض اللغات الى تطوير مفردات وتطويعها وإدخالها في اللغة المعنية لأسباب ثقافية أو قومية أو سياسية كما حدث في المجر في أوائل القرن التاسع عشر إذ كانت اللغتان اللاتينية والألمانية مقترحتين لغتين رسميتين للدولة ، فعمدوا الى تطوير "متعمد لمفردات لغوية قائمة على أنماط هنغارية قادرة على احتلال مكان اللاتينية

^١ - من أسرار اللغة : ١٢١ .

والألمانية" (١) ، وبعد عشرات من السنين أدخلت عشرة آلاف كلمة في اللغة المجرية .

وفي كل لغة عناصر أساسية متوغلة في القدم كالضمائر وأسماء الإشارة والموصولات والأعداد ، فهذه العناصر عصبية على الاقتراض كما ذكر (جسبرسن) Jespersen (٢) ولا تستعيرها لغة أخرى إلا بعد مراحل طويلة ولا تنتقل إليها جملة بل شيئاً فشيئاً ، ويعد ذلك من الأدلة على بداية نهاية اللغة وضمحلها .

وأطلق فندريس على استعارة البنى الصوتية والصرفية وبعض البنى التركيبية مصطلح (النسخ) (٣) ، ويفهم من كلامه أن النسخ هنا يعني الاقتراض مع بعض التعديلات أو مشابهه المنسوخ لمثاله في اللغة المقترض منها ويكون نتيجة لاختلاط صورتين كلاميتين " تنتمي كل واحدة منهما الى لغة مختلفة وقد اختلطتا على المتكلم". واستشهد على ذلك ببعض اللهجات المحلية البولونية التي كانت معرضة للاحتكاك بالألمانية إذ نشأ فيها "نوع من الماضي غير المحدد يصاغ بمساعدة فعل الملِك" ، وكذلك الحال في السلوفانية التي لم تقتصر على

١ - لوتز : علم اللغة : ٢٩٦ .

٢ - من أسرار اللغة : ١١٢ .

٣ - انظر : اللغة : ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ .

استعارة أفعال وظروف وأدوات وأسماء أعلام من الألمانية حسب "بل خلقت أداة تعريف ، وكثيراً ما تستعمل المبني للمجهول على مثال الألمانية".

واستعارة الأساليب ضرب من الاقتراض أيضاً ؛ فقد تتأثر لغة ما بأساليب لغة أخرى في نظامها البنيوي كنظام الجملة أيضاً ، وينتج ذلك عن عدة سبل كالتأثير الثقافي أو الإعلامي أو السياسي أو الاقتصادي أو الديني... الخ. ومن الملاحظ أن اللغة العربية في العصر الحديث قد تأثرت ببعض الأساليب الأجنبية ولاسيما أسلوب بعض الكتاب المشهورين المتأثرين بالثقافة الأوروبية كالعقاد وطه حسين^(١) . والأساليب الصحفية والأدبية الوافدة من اللغات الأوربية ، ومنها على سبيل المثال قولهم : (ذرّ الرماد في العيون) و (يكسب خبزه بعرق جبينه) و (لا يرى أبعد من أرنبه أنفه) و (يلعب بالنار) و (لا جديد تحت الشمس) و (ألقى المسألة على بساط البحث) الخ^(٢) .

٨- البليّ في اللغات : من خصائص تكوين اللغات المختلطة أو تلك التي يحتك بعضها ببعض أن تتعرض لما يعرف بـ (البليّ اللغوي) . ومعنى ذلك أن حاجة الأفراد الى إيجاد وسيلة اتصال عاجلة للتفاهم فيما بينهم

١ - من أسرار اللغة : ١١٣ .

٢ - انظر : من أسرار اللغة : ١١٦ .

يدفعهم الى تنازل كل فريق عن بعض خصوصيات لغته والإبقاء على سمات مشتركة عامة تجمعها مع اللغات الأخرى ، ومسألة البليّ اللغوي من المسائل النسبية أيضاً كأغلب الظواهر اللغوية الأخرى في هذا المجال "فليس البليّ على درجة واحدة في كل مكان ولكنه محسوس على كل حال" (١) .

٩- موت اللغات : إن استعمال عبارة (موت اللغات) هو من باب الاستعمال المجازي ، فالمقصود بموتها هو انكفاؤها وانحسارها ثم اضمحلالها واندثارها على مراحل زمنية متفاوتة في الطول بحسب الأسباب والعلل . ولا نعلم لغة قد انحسرت أو اندثرت وبادت ولم تبقى آثاراً لها ولو كانت قليلة في لغات أخرى . ولا تموت لغة ما لم تصرعها لغة أخرى (٢) ، أما التي تظل صامدة تجاه الصراع ولا تتعرض للفناء فهي اللغة المنكفئة على نفسها في مكان واحد والمقتصرة على فئة قليلة يتكلمون بها . وتلك التي يكتب لها الشيوخ والانتشار في أماكن كبيرة من الأرض ويتسع نطاقها الجغرافي فإنها تتشعب الى لهجات ولغات وتتكلم بها أمم مختلفة من البشر .

١ - اللغة : ٣٦٣ .

٢ - وافي : علم اللغة : ١٦٤ .

وفي حال الصراع اللغوي تمر اللغة المغلوبة بثلاث^(١) مراحل لكي تنتهي الى الموت والاندثار ، تبدأ في المرحلة الأولى بطائفة كثيرة من الألفاظ والمفردات تغد إليها من اللغة الغالبة ولكنها تبقى محتفظة بقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها في النطق ، ثم تنتقل الى المرحلة الثانية وتتسرب إليها البنى الصوتية للغة الغالبة وأساليبها في نطق الكلمات ، فينطق أهل اللغة المغلوبة ألفاظهم الأصلية وما استعاروه من الألفاظ الدخيلة بحسب المعايير الصوتية للغة الغالبة ، وفي المرحلة الثالثة تضعف اللغة المغلوبة ولا تستطيع مقاومة اللغة الغالبة فتتسرب إليها البنى الصرفية والتركيبية للغة الغالبة على مراحل وتستولي قواعد اللغة الغالبة على الألسنة وتحل محل قواعد اللغة المغلوبة وتحرز النصر النهائي في معركتها^(٦٨).

^١ - انظر : وافي : علم اللغة : ٢١٦ .

المبحث السادس

علم
اللغة السياسي

تمهيد :

السياسة شأن من شؤون المجتمع الإنساني يعنى بالدول والحكومات والأنظمة وسبل الحكم والعلاقة بين الحكام والمحكومين وما يترتب عليها من حقوق وواجبات لكلا الطرفين.

وتهتم السياسة أيضاً بقيام المؤسسات المختلفة لأجهزة الدولة ووضع الخطط والبرامج الاقتصادية والاجتماعية والنهوض بالمجتمعات تجاه رقيها الحضاري والثقافي ، وتتبنى العلاقات بين الدولة وجاراتها الإقليمية والدول الأخرى ... الخ .

وأمر هذا شأنه لابد له من سبل الاتصال والمواصلة لبيان البرامج والأفكار والمناهج والخطط . وتعد اللغة من أهم وسائل الاتصال في هذا المجال ، ثم إذا أضفنا الى ذلك كله النواحي الدعائية لترويج الأطروحات السياسية سواء أكانت على مستوى العقائد السياسية للأحزاب والكتل والجماعات الممثلة لها أم على مستوى الجوانب العملية لتطبيق الشعارات وجدنا أن اللغة لها النصيب الأوفى في هذا المجال أيضاً .

ولا يمكننا النظر الى ما ذكرناه سابقاً على أنه وجه واحد للسياسة ، وهو الوجه الأمثل لها ، إذ إن للسياسة أوجهاً متعددة تتأرجح بين الخير والشر وما يتوسط بينهما . وللأحزاب التي تسعى الى قيادة الحكومات سلوك متفاوت للوصول الى أهدافها ، وغالباً ما يكون هذا السلوك في جوهره وحقيقته مخالفاً للقيم الأخلاقية والإنسانية .

واستغلت السياسة عوامل التناقض الفكري والاجتماعي لتبويب أفكارها في (قوالب تعبيرية محددة) ودرجت على (أنماط أسلوبية) فارغة المحتوى ولكنها مفيدة وقد تكون شديدة في استنهاض همم العامة والدهماء، ولذلك عمدت أغلب الأحزاب الى الكلمات والعبارات ذات المدلول المعنوي (الهائم) الذي لا يجد صوراً ذهنية واضحة لقبول فهمه واستيعابه على نحو راجح .

ولما كانت البشرية عاجزة عن (توحيد اللغات) فهي أكثر عجزاً عن (توحيد الأفكار) . والعلاقة بين الكلمات والأفكار علاقة سببية ترابطية استيحائية منذ أن وجدت اللغة ؛ فقد تستوحي الألفاظ والعبارات أفكاراً معينة، وقد يحصل العكس فتستوحي الأفكار عبارات وألفاظاً معينة . ولقد تنازع الفلاسفة منذ أن ظهرت الفلسفة في هذه المقولة ، ولهذا كانت اللغة خير مطية لبيان أوجه التناقض بين الخصوم .

ويجمل هذا المبحث موارد من هذا القبيل أو غيرها من العلائق الترابطية بين السياسة بمفهومها الاصطلاحي العام واللغة من حيث وظيفتها في الإيصال والاتصال .

التعريف بعلم اللغة السياسي :

يُعرف (علم اللغة السياسي) أو (علم السياسة اللغوي) (glottopolitic- institutional linguistics) بأنه " دراسة تهتم بإيجاد أو تدعيم لغة موحدة أو كتابة موحدة لشعب متعدد اللغات " . وهذا التعريف يفتقر الى الدقة والشمول لأنه لا يبين إلا وجهاً واحداً من أوجه علم اللغة

السياسي وهو إيجاد لغة موحدة لشعب من الشعوب متعدد اللغات؛ فاللغة الواحدة أو تعدد اللغات مبحث من مباحث هذا العلم يعنى بما يعرف باللغة الرسمية واللغة المشتركة كما سيتبين لنا في موضعه .

وكان (لوتز) أوفق في استجلاء مفهوم علم اللغة السياسي أو كما أطلق عليه (المباحث اللغوية السياسية والإقليمية) في معرض كلامه على استعمال الحروف اللاتينية بدلاً من العربية في تركيا ، وذكر أن التوسع في " إدراك خطورة اللغة في القضايا السياسية والاتصال الدولي " كان المسوغ لظهورها .

وهذا فهم أوسع وأكثر شمولاً لمعطيات هذا الميدان من ميادين البحث اللغوي . ويمكن أن نضيف إليه أن علم اللغة السياسي يبحث في كل ما له صلة بالسياسة من حيث العلاقة المتبادلة بينها وبين اللغة بما في ذلك العوامل الداخلية والخارجية التي تعرف بالمفاهيم والتقاليد (الدبلوماسية)، وهي " مجموعة القواعد والأعراف والمبادئ التي ترسخت بمرور الزمن بهدف تنظيم وإدارة العلاقات القائمة بين أطراف المحيط الدولي " .

السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي

كتب اللغوي الأمريكي هوغن (E. Haugen) مقالاً في سنة ١٩٥٩ مخصصاً للحالة اللغوية في النروج استعمل فيه عبارة (التخطيط اللغوي) (Language Planning) ، ومن ثم شاع هذا المصطلح في الدراسات اللغوية ولاسيما الدراسات التطبيقية . وفي سنة ١٩٧٠ أضاف فيشمان (Joshua , A. Fishman) عبارة (السياسة اللغوية) (Language Policy) في كتيب ؛ فشاع هذا المصطلح أيضاً ، وأصبح استعمالهما مقرونين ببعضهما (السياسة / التخطيط) من دون أن يحدان حدّاً دقيقاً ، بيد أن التخطيط في مفهوم هوغن يعد جزءاً من اللسانيات التطبيقية (علم اللغة التطبيقي) ، في حين تدارسه فيشمان في فصل عنوانه : (لسانيات اجتماعية تطبيقية) ، أي جعله ضمن علم اللغة الاجتماعي التطبيقي .

وتطرق اللغويون المعنيون بهذا المنحى من البحث اللغوي الى هذا الموضوع فيما بعد وتناولوا التخطيط اللغوي على اختلاف مفهومه وفحواه عندهم . وأشهر من تناوله لغويان يدعى أحدهما فرغيسون (Ferguson) ، ويدعى الآخر غوبتا (J. Das, gupta) فقد شرحا مفهوم التخطيط اللغوي في مقدمة كتاب مشترك بينهما ، وجعلاه مرتبطاً بـ(أسرة تخطيط التطور الوطني) التي تهدف الى تغيير اللغات أو الحفاظ عليها أو استعمالها ، وهي من القضايا القديمة قدم السياسة الاقتصادية كما ذكرنا ذلك ، و " لكن لم

يعترف إلا حديثاً بهذا النشاط مظهراً من مظاهر التخطيط الوطني في الميدان اللغوي " .

وللباحثين مآخذ واستدراكات على ما يدل عليه هذان المصطلحان أو على ما قيل فيهما ، ولكي تتضح لنا الرؤية لأبد من عرض بعض ما قيل في هذه المسألة . ونبدأ بجذور المفهوم أي بمحاولة تدخل الإنسان في اللغات ، إذ إن مبدأ السياسة اللغوية مبدأ قديم وإن لم يصطلح عليه قدم التعدد اللغوي نفسه . وفي التاريخ أمثلة كثيرة لما يسمى بتدخل الإنسان في اللغات بمعنى فرض لغة من اللغات على شعب ما ، أو سلب لغة من الاستعمال ، أو تهذيب لغة من بعض المفردات ... الخ .

وبناء على هذا التوصيف يشوب الغموض أو عدم الوضوح مصطلحي (التخطيط اللغوي) و (السياسة اللغوية) المستعملين في الدراسات اللغوية الحديثة وما بينهما من فروق . وربما يتضح لنا ذلك إذا نظرنا الى قصة (شارل كونيت) في سنة (١٥٥٠م) ، فقد حاول أن يحل الإسبانية محل لغة الهنود الأمريكيين (الهنود الحمر) ، واقترح لتحقيق هذه الرغبة ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : مرحلة التفكير في المشكلة اللغوية وتحليل الوضع ، ومعنى ذلك يكمن في السؤال الآتي : " أيمكن تدريس تعاليم المسيحية باللغة المحلية لهؤلاء الهنود ؟

المرحلة الثانية: مرحلة التقرير ، ويعني ذلك استعمال اللغة الإسبانية لجعل الهنود مسيحيين .

المرحلة الثالثة : مرحلة التطبيق ، أي (وضع القرار موضع التنفيذ) ويفترض ذلك تعليم اللغة الإسبانية قبل تعليم المسيحية بهذه اللغة .

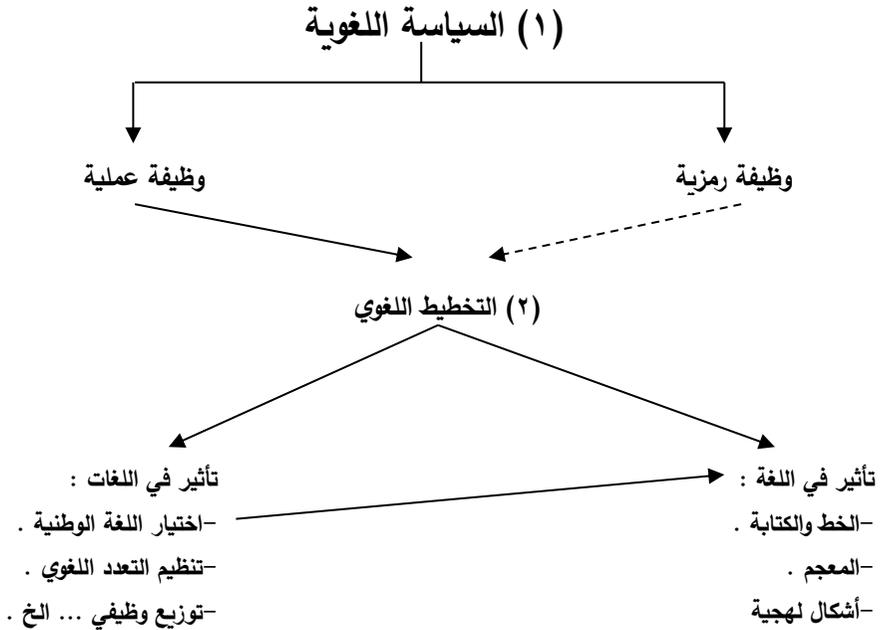
قال كالفلي مبيناً معنى السياسة اللغوية والفرق بينها وبين التخطيط اللغوي في رأيه : "نحن نرى أن السياسة اللغوية هي مجمل الخيارات الواعية المتخذة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية ، ولاسيما بين اللغة والحياة في الوطن، ونرى أن التخطيط اللغوي هو البحث عن الوسائل الضرورية لتطبيق سياسة لغوية وعن وضع هذه الوسائل موضع التنفيذ " . وبالعودة الى قصة شارل كونيت يتبين لنا أن القرار " يشكل خياراً في السياسة اللغوية ، وأما احتمال وضعه موضع التنفيذ على الساحة الأمريكية الجنوبية فيشكل تخطيطاً لغوياً " .

ومعنى هذا التمييز أن السياسة اللغوية هي قرار وفكرة ومقولة ، وأما تنفيذ هذا القرار أو محاولة تنفيذه فهو ما يسمى بـ(التخطيط اللغوي) ؛ فالفرق بين المفهومين فرق ما بين القرار التنظيري والتنفيذ العملي التطبيقي . وربما كان هذا التمايز الذي ذكره كالفلي يمثل فهماً واضحاً قدر الإمكان لمعنى المصطلحين .

ويكون هذا المعنى أكثر وضوحاً ودقة إذا ما فرقنا بين ما يدعى بـ(الوظيفة العملية) و (الوظيفة الرمزية) في هذا المجال ؛ فالدولة التي

تتخذ قراراً باتخاذ لغتها المحلية لغة وطنية يعد قرارها رمزياً ، وحيثما تتبع ذلك بتخطيط تستعمل فيه هذه اللغة في المجالات العامة كالإدارة والقضاء والإعلام والتدريس ... الخ يوصف تخطيطها بـ (الوظيفة العملية) . ويبقى القرار رمزياً ما لم يوضع موضع التخطيط والتنفيذ . ومثال ذلك ما حصل في أندونيسيا في عهد الاستعمار الهولندي ؛ فقد قرر الحزب الوطني الأندونيسي اتخاذ اللغة الماليزية لغة وطنية في (ظل الحكم الاستعماري) ، ولما انعدمت الوسائل لتنفيذ مثل هذا القرار الذي يتضمن معنى رمزياً لوجود (أمة أندونيسية) بقي القرار ينقصه التنفيذ الى أن تحررت أندونيسيا من الاستعمار الهولندي فطبق القرار ووضع موضع التنفيذ .

وفيما يأتي رسم توضيحي لمعنى الوظيفتين الرمزية والعملية :



تشير الأسهم المتصلة في هذا الرسم الى الروابط المنطقية ذات الصفة العملية التطبيقية بين السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي . وأما السهم المتقطع فيشير الى إمكانية ترابط الحلول المفترضة بين السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي .

ولنا أن نستدرك بعض المآخذ على ما ذهب إليه فرغيسون وغوبتا في مفهومهما للتخطيط اللغوي ، أهمها أن الوصف بـ(التخطيط) يفهم منه أن اللغة تصنف مع (الأشياء التي يمكن التخطيط لها) أي بمعنى الأشياء التي للسلطة نفوذ عليها من حيث الإنشاء والإدارة والتوجيه كالمدارس والمعاهد والمصانع ... الخ . وهذا ما لا ينطبق على الظاهرة اللغوية كما يفهم من معنى التخطيط ، ويصعب على السلطة في كثير من الجوانب أن توجه اللغة بحسب هواها إلا إذا كان عن طريق القسر ، ولكن القسر أيضاً يخضع للتطور الاجتماعي ، وبما أن اللغة ظاهرة اجتماعية فما يطرأ على المجتمع يطرأ عليها أيضاً . نعم ، يمكن للسلطة أن تفرض لغة ما أو لغات ، ويمكن لها أن تخضع القاموس اللغوي للمجتمع الى تغيير في بعض المفردات كالحذف والاستبدال ، ويمكنها أن تغير الأبجدية الكتابية ، وأن تفرض نمطاً معيناً من الأساليب والعبارات كما يلحظ في تأريخ الأحزاب الشمولية التي مارست السلطة القهرية كالشيوعية في الاتحاد السوفيتي والصين والاشتراكية القومية في ألمانيا على عهد هتلر . ولكن ما عمدوا إليه قد تغير أو في سبيله الى التغير بعد انهيار النظام في الاتحاد السوفيتي والرايخ الثالث في ألمانيا .

وقابلية اللغة للتغير في ذاتها وقابليتها للتغير من حيث علاقتها باللغات الأخرى لا تفسح مجالاً كبيراً للتأثير المباشر المقصود فيها ، وإنما يكون التأثير من مجموعة عوامل مشتركة غير مقصودة في الأعم الأغلب . قال كالفني موضعاً هذا المعنى : " إن التطور سواء أكان تطور اللغة نفسها أم تطور العلاقات بين اللغات يخضع للحدث الاجتماعي لا للتدخل الموجه ؛ فاللساني [اللغوي] يشرح الحدث الاجتماعي ولكنه لا يُحدثه ، ولهذا تشكل فكرة التخطيط اللغوي بحد ذاتها نوعاً من التحدي للسانيات " .

وأخذت مقولة السياسة اللغوية وما يتبعها من التخطيط اللغوي مجالها في الدراسات اللغوية الحديثة على الرغم من المآخذ عليها لأنه لا يمكن إغفال حقيقة وجودها غير المنظر عبر العصور ووجودها المنظر والتطبيقي في القرن العشرين ابتداءً وانتهاءً ، ولذلك ظهرت مجموعة من الدراسات والبحوث هيأت لما يعرف بعلم اللغة السياسي كما أشرنا الى ذلك سابقاً .

وللسياسة اللغوية والتخطيط اللغوي سمات وأهداف من باب المقدمة والنتائج مترتبة عليها نختصر المهم منها فيما يأتي :

- ١- إن السياسة اللغوية مرتبطة بالدولة .
- ٢- قد تكون السياسة اللغوية عابرة للحدود أو على العكس من ذلك محصورة (بجماعة محدودة أصغر من الدولة تتعايش في كنفها مع جماعات أخرى) .

٣- يستدعي التنفيذ العملي للتخطيط اللغوي تدخل الدولة في أغلب الأحيان .

٤- من الأهداف الرئيسة للسياسة اللغوية والتخطيط اللغوي التأثير في (شكل اللغة) أي ما يعرف بـ(تميط اللغة وتقسيمها) ، ويحصل ذلك على مستويات ثلاثة :

أ. مستوى الكتابة بابتداع كتابة للغة الشفوية أو بتغيير الكتابة المعتمدة فيها أو بتغيير أبجديتها .

ب. مستوى المعجم بإيجاد (وحدات معجمية جديدة) اعتماداً على الاقتراض والتوليد لكي تعبر اللغة عن معاني كانت تتضمن مفردات لغة أخرى كألفاظ الحضارة والثقافة والفنون والسياسة والعلوم ... الخ .

ت. مستوى اللهجات باتخاذ لهجة واحدة من لهجات اللغة التي اتخذت حديثاً (لغة وطنية شاملة إذا كانت تلك اللغة ذات لهجات مختلفة باختلاف مناطقها ، أو أن تستحدث لغة تستمد عناصرها ولاسيما مفرداتها من لهجاتها جميعاً .

٥- تستطيع السياسة اللغوية أن تتدخل في العلاقات بين اللغات من حيث اختيار لغة وطنية واحدة من اللغات الشائعة في إحدى المناطق أو عدد من اللغات، أو اختيار لغات التعليم ووسائل الإعلام والإدارة

والقضاء والمخاطبات الرسمية وما يتصل بذلك كله من شؤون الدولة
الداخلية والخارجية .

اللغة عامل سياسي :

العامل السياسي من العوامل المؤثرة في اللغة من حيث التوجيه
والاختيار ، وغالباً ما تكون الأسباب السياسية مقصودة ومتعمدة . وفي
التأريخ قديمه وحديثه شواهد وأمثلة على تدخل العامل السياسي في سير
اللغات . قال هارمان : " اللغة ليست فقط وسيلة اتصال ، ولا وسيلة تتبلور
فيها الهوية الثقافية . إن اللغة أيضاً - الى حد بعيد - عامل سياسي نظراً
لأن الناس والمؤسسات قد حولوها الى ذلك " .

وتظهر الأهمية السياسية للغة في الأنظمة المختلفة بما فيها الأنظمة
الشمولية أيضاً كالنظام السوفيتي الذي جعل من اللغة (أداة مهمة لنشر
الأفكار الشيوعية وتوحيد الدولة) وأنجز إصلاحات في هذا المجال شملت
الكتابة أيضاً . وحصل في عهد ستالين جدل في هذا الموضوع انتهى الى
الإقرار بأهمية اللغة في شؤون الحياة العامة ، واضطر ستالين الى الإعلان
عن " وجوب جعل اللغة مستقلة عن المبادئ الماركسية المتعلقة بالقاعدة
الاقتصادية للمجتمع وتركيباته المختلفة الأخرى التي تقوم عليه " .

وقد يتأثر الاستعمال اللغوي بالعاطفة الوطنية أو إظهار الاستقلال أو
النفور من دولة مجاورة فتميل بعض الشعوب الى استعمال لغة دون أخرى ،
ومن جملة الأمثلة لذلك تمسك الإيرلنديين بلغتهم الوطنية القديمة ودأبهم على

إحيائها لبواعث سياسية وهي " التخلص من لغة الإنكليز أعدائهم التقليديين". وقد شاعت في الألزاس لهجات جرمانية قبل انضمامها الى الإمبراطورية الألمانية ، وبعد انضمامها الى ألمانيا واقتطاعها من فرنسا أدت البواعث الوطنية الى شيوع استعمال اللغة الفرنسية فيها خلافاً لما كان عليه الحال حينما كانت المقاطعة جزءاً من فرنسا قبل سنة ١٨٧١ إذ لم يضطر أهل المقاطعة الى اتخاذ لغة معينة ولم يكن لديهم " باعث قوي على ترك لهجاتهم المحلة الجرمانية " .

وأدت المنافسة اللغوية مدفوعة بأسباب سياسية في دول البلقان الى اتخاذ لغات بعينها ، وكان للبواعث الدينية أهميتها في هذه المنافسة أيضاً . ولما نشأت الأفكار القومية المشوبة بالاتجاهات السياسية في أوروبا اتجه بعض الزعماء والقادة الى تهذيب لغاتهم من المفردات الأجنبية قدر الجهد والطاقة . فعل ذلك هتلر في ألمانيا وبعض القادة في الاتحاد السوفيتي في أواسط القرن العشرين ، وقبل ذلك جدّ أتاتورك في تركيا محاولاً (تترك) بعض الألفاظ الدخيلة في اللغة التركية بعد أن استبدل بحروفها العربية حروفاً لاتينية ، وحاول شاه إيران محمد رضا أن ينحو هذا المنحى أيضاً .

ولا يمكن فصل مقولة (اللغة العالمية) عن أسبابها السياسية والثقافية والاقتصادية المتمثلة بالاستعمار . وقد بدأت المحاولات الجادة في أوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر ، وبخاصة في فرنسا بعد الثورة الفرنسية. واتجه بعض الساسة الى الترويج للفرنسية على أنها لغة عالمية .

ويمكن توضيح هذا الأمر من خلال التقرير الذي قدمه الأب (غريغوار) الى الجمعية التأسيسية الفرنسية في الثامن والعشرين من شهر أيار سنة ١٧٩٤ ، فقد جاء فيه :

"لئن حظيت لغتنا بهذه المنزلة عند الطغاة وفي البلاطات حيث كانت فرنسا الملكية تقدم لهم المسارح وريش الزينة والأزياء وآداب اللياقة ، فكم هي المنزلة التي لم تحظ بها عند أفراد الشعوب التي كشفت لها فرنسا الجمهورية عن حقوقها وفتحت لها الطريق الى الحرية ؟ " .

وقال في تقريره أيضاً : " يمكن أن نؤكد من دون مبالغة أن ستة ملايين على الأقل من الفرنسيين ولاسيما في الأرياف لا يعرفون لغتهم الوطنية، وأن عدداً مماثلاً لهم لا يحسن إنشاء خطاب متماسك بهذه اللغة ، وأن عدد الذين يحسنونها في نهاية المطاف لا يتجاوز ثلاثة ملايين نسمة، والأرجح أن عدد الذين يكتبونها كتابة صحيحة أقل من ذلك أيضاً".

وذهب كالفلي الى أن الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر كانت أوسع اللغات الأوروبية انتشاراً ثم يستدرك ذاكراً أن توسعها ظل محدوداً جداً على الصعيد الجغرافي " فالناس لا يتكلمون بها في بولونيا ولا في المجر ، وهي قليلة في البرتغال " ، والظاهر أنه يعني انتشارها في أوروبا ولكن ذلك يستدرك عليه أيضاً لأن أماكن كثيرة من شرق أوروبا وروسيا والنمسا وألمانيا لم يلحظ فيها في تلك الفترة وجود ملموس للفرنسية فضلاً عن شيوعها وانتشارها ، ولذلك يبقى الحكم على أنها كانت بمثابة لغة عالمية في أواخر

القرن الثامن عشر ضرباً من المبالغة دعت بعض الساسة الفرنسيين بعد الثورة لترويج هذه المقولة لأسباب سياسية محضة ، ويعد ذلك أيضاً وجه من أوجه (تصدير الثورة) بمعطياتها الثقافية الجديدة .

ويخضع التغيير السياسي لبعض الأنظمة الى تغيير لأنظمتها اللغوية من حيث انتقاء (لغة مشتركة) أو (لغات مشتركة) تبعاً لواقعها السكاني والقومي ، وأفضل مثال لذلك ما حصل في جنوب إفريقيا ؛ فالانقلاب الذي أدركته الدولة في سنة ١٩٩٤ بإلغاء الحكم العنصري للبيض تبعته قرارات سياسية باستعمال اللغة ، و " لم تكن هذه القرارات معايير علمية موضوعية بل طموحات وأمانّي شعوب إفريقيا السوداء في أن ترى لغاتها الأم الأصلية تؤدي الوظائف الرسمية في البلاد".

وحدث ما هو أعظم في شرق أوروبا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الشرقية لا على مستوى الأفراد حسب بل على مستوى الدول والقوميات ، فتفتت دول كبرى مثل يوغسلافيا الى دول مستقلة ذات نزاعات قومية لا تخلو من تطرف متخذة نظماً جديدة مستقاة من (الليبرالية الغربية)، وحصل في بعض أقطارها ما حصل من مذابح وسفك للدماء وتصفية عرقية كما جرى في البوسنة وكوسوفا . وهياً ذلك كله الى سبل جديدة ومستجدة للتوظيف اللغوي واتساع لغات وانحسار بعضها .

ولم يقتصر العامل السياسي وتأثيره في اللغة على ما ذكرناه سابقاً بل تعداه الى نظم الكتابة والأبجدية التي تحولت الى عوامل سياسية في بعض

الأقطار ؛ فقد كان اتخاذ الكتابة الكيرليّة (نسبة الى كريلوس واضع الأبجدية السلافية) من الآداب الدينية للشعوب غير الروسية قبل سنة ١٩١٨ أي قبل أول حكومة شيوعية، وكانت هذه الكتابة وسيلة للتعبير عن الاتجاه الديني لهذه الشعوب .

وفي عهد لينين اتخذت " الكتابة اللاتينية وسيلة للتحديث " ، ولكن في عهد ستالين حصل العكس بالعودة الى الكتابة الكيريلية وعدّها " أداة لاتجاه سلطوي وحيد في السياسة الداخلية " . وبعد انفراط عقد الاتحاد السوفيتي واستقلال الأقطار التي كانت منضوية تحت لوائه سواء منها الشرقية أم الغربية عادت تلك الأمم الى نقيض ما كان سائداً كما جرى للغة الأذرية في آذربيجان السوفيتية ؛ فبعد أن كانت الكيرليّة تستعمل في الكتابة تغير الحال في سنة ١٩٩١ الى اتخاذ الأبجدية اللاتينية . وينبغي ألا ننسى أثر تركيا في هذه المسألة لأن الأذريين أترك تحركهم الدوافع القومية ، وتأثروا بسياسة (التغريب = التأثر بالغرب) التي اتبعها أتاتورك بعد سقوط الدولة العثمانية إذ استبدل بالحروف العربية التي كانت تكتب بها التركية العثمانية الحروف اللاتينية ؛ فالدافع القومي التقليدي لسياسة أتاتورك العلمانية كان هو السبب الأقوى لاتخاذ الأبجدية اللاتينية ، فلو كان الدافع القومي القديم حاضراً في ذهن الساسة الأذريين لعادوا الى تراثهم القديم واتخذوا الأبجدية العربية كمجموعة اللغات الإيرانية ، لأن هذا الدافع كان مزيجاً من الشعور القومي والانتماء الديني للإسلام الذي ساد آواسط آسيا قروناً من الزمان

وجعل القوميات في هذه الأنحاء تتخذ الأبجدية العربية في كتابة لغاتها كما نلاحظ ذلك الى عصرنا هذا في الفارسية والكردية والبشتو والأردو .

وبلغت المنافسة بين الكتابات في دول البلقان أشدها ، وما تزال مستمرة الى يومنا هذا بين نمطين من الكتابة : الأبجدية اللاتينية التي انتشرت في هذا المكان قبل قرون من الزمان وجاء بها الرومان الى جنوب شرق أوروبا ، وتعد اللغة الثقافية والكنسية في بعض الأقطار .

والأبجدية الكيريلية التي شاعت لأسباب سياسية وقومية مع قيام الاتحاد اليوغسلافي . ثم أصبح هذان النمطان أداة سياسية بعد انهيار الاتحاد واندلاع الحرب بين أقسام يوغسلافيا . وتشهد البوسنة والهرسك الى يوم الناس هذا صراعاً ثقافياً كبيراً تخوضانه الأبجديتان معاً .

الحدود السياسية والحدود اللغوية :

للدول حدودها السياسية التي تفصل بعضها عن بعض وفق اتفاقيات دولية ملزمة . وللغة حدودها أيضاً وفق التوزيع اللغوي الجغرافي . والفرق بين الحدودين ثبات الحدود السياسية إلا إذا طرأ طارئ من حرب أو غزو ، أو تغيرت الجغرافية السياسية لتغير إقليمي أو دولي ، أو تفككت الدولة الكبيرة الواحدة الى دول أو دويلات .

أما الحدود اللغوية بين اللغات أو بين اللهجات المختلفة للغة الواحدة فمن الصعب الإبقاء على ثباتها زمنياً طويلاً ؛ فهي حدود متداخلة تتسع تارة

وتتحسر أخرى تبعاً لجملة من العوامل والأسباب . ولا تبقى لغة ما أو لهجة من اللهجات ثابتة ضمن حدود معينة مدة طويلة من الزمن .
ومن المعروف أن الحدود اللغوية أقدم من حدود الدولة زمنياً طويلاً ؛ فالدول تنشأ - عادة - بعد استقرار المجتمعات في بقاع معينة ، وتظهر الحدود اللغوية لهذه المجتمعات قبل قيام الدولة .
وتعود أسباب قيام بعض الدول الى عامل النفوذ اللغوي ومدى انتشاره كما يشاهد في أمثلة عديدة من التأريخ البعيد والقريب .
وبناء على ما تقدم ذكره لا يمكن أن تتطابق حدود الدولة مع حدود اللغة في أي مكان من العالم إلا نادراً ، " فالخارطة السياسية تظهر ملامح مختلفة تماماً عن ملامح خارطة انتشار اللغات " .
وسعى الأوروبيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهو عصر النهضة القومية في أوروبا الى المؤالفة بين حدودهم القومية الدولية وحدودهم اللغوية ولكنهم أخفقوا في تحقيق ذلك على الوجه الذي سعوا إليه .
وكان التقسيم في أمريكا اللاتينية الى وحدات سياسية تقسيمياً اعتبارياً إذ تداخلت الحدود اللغوية للناطقين باللغة الإسبانية مع مناطق انتشار لغات الهنود الأمريكيين . ويستثنى من هذا الوصف ما جرى في البرازيل إذ تطابقت الحدود اللغوية فيها على نحو ملحوظ مع الحدود السياسية للدولة وما يفصلها عن الدول المجاورة لها . والمعروف أن اللغة السائدة في البرازيل هي اللغة

البرتغالية خلافاً لما هو شائع في أغلب أنحاء أمريكا اللاتينية التي انتشرت فيها اللغة الإسبانية .

وما قيل عن الحدود اللغوية ينطبق على الحدود اللهجية أيضاً إذ يمكن وضع خرائط لغوية جغرافية لانتشار اللهجات في القطر الواحد أو الأقطار المتعددة وإن كان انتشار اللهجات أكثر تداخلاً من انتشار اللغات ، ويمكن كذلك أن تتضح حدود اللهجة من حيث تطابقها مع التقسيم السياسي، وغالباً ما تبقى الحدود اللهجية زمناً طويلاً " بعد زوال الظروف التي أدت الى تحديدها " .

ونلاحظ - على سبيل المثال - الانتشار اللهجي في بعض الأقاليم الألمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فقد اتضحت هذه الحدود بفعل العاملين الديني والسياسي ، وبقيت الخصائص اللغوية واللهجية في بعض النقط التي تطابقت فيها الحدود اللغوية مع الحدود السياسية التي سبقت سنة ١٧٨٩ .

سياسة القهر اللغوي :

تطلق عبارة (القهر اللغوي) أو (الانصهار اللغوي) على ما تتبعه دولة ما من إرغام الأقليات العرقية أو الطائفية في محيط سيادتها على لغة تبنتها الدولة على أنها لغة رسمية مشتركة لها .

ولهذه السياسة جذور ممتدة في التأريخ الحضاري والاجتماعي والسياسي . وكان الإغريق من جملة الأوائل الذين تحصنوا بلغتهم مولعين بها لا يعتدون بغيرها من لغات البشر ، ولذلك سموا من لا يتكلم الإغريقية بالغرباء أي البرابرة المتوحشين (Barbaroi) . وأخذ الرومان منهم هذه التسمية بمدلولها (Barbarus) وأطلقوها على غير الناطقين باللاتينية والإغريقية .

ويعود أصل الكلمة من حيث مدلولها الى معنى (من لا يتكلم) لأنه لا يتكلم الإغريقية ، وما يصدره من أصوات ما هو إلا أشبه بالضجيج منه بالكلام . ودرجت اللغات المعروفة بمجموعة اللغات الرومانية فيما بعد على هذا المعنى للكلمة ، ومنها اللغة الإسبانية ؛ فقد قال أحد لغويهم وهو أنطونيو دونبريجا (Antonio de Nebrija) في كتابه عن (نحو اللغة الإسبانية) المؤلف في سنة ١٤٩٢ : " البربرة عيب لا يمكن التسامح معه في جزء من الجملة ، ويسمى هذا بربرة (Barbarism) لأن الإغريق كانوا يسمون الشعوب كلها برابرة (Barbares) باستثناءهم هم . وقد أطلق اللاتينيون هذه التسمية على الشعوب الأخرى باستثناءهم هم مع الإغريق . ولأن الغرباء

الذين كانوا يسمونهم برابرة كانوا يفسدون عليهم لغتهم حين كانوا يريدون التكلم بها سمو العيب الذي يقع في كلمة من كلامهم (بربرة) . ويمكن أن نسمي (بربرة) جميع الغرباء عن لغتنا باستثناء اللاتين والإغريق " .

والأمثلة للقهر اللغوي في التاريخ الحديث ولاسيما المعاصر منه متباينة من حيث الشدة والغلو والأنماط الوسطية المتسامحة . ولعل الصراع بين الصرب والألبان في تسعينيات القرن العشرين من الشواهد الدالة على التشدد والمغالاة ؛ فقد فرض الصرب لغتهم على ألبان كوسوفو في المدارس التعليمية وأماكن العمل والوظائف الإدارية ، ومنعواهم من استعمال الألبانية فاضطروا الى الكلام بها داخل منازلهم فقط . وهذا القهر اللغوي جعل الألبان ينظرون الى الصربية على أنها تمثل (أداة قمعية تستعمل ضدهم) . قال هارمان واصفاً السجال بين الصربية والألبانية في كوسوفو : " لقد كانت اللغة في كوسوفو أكثر من مجرد أداة سياسية ، فبالنسبة الى الطرف الأول (الصرب) كانت اللغة الصربية رمزاً الى ممارسة مطلقة للسلطة الوطنية ، أما بالنسبة الى الطرف الثاني (الألبان) فإن اللغة الألبانية كانت رمزاً الى البقاء الجسدي والمقاومة الثقافية ضد سياسة الانصهار الصربية " .

السياسة و (اللغة المشتركة) :

اللغة المشتركة هي اللغة التي يتعارف على الكلام بها جمهور من الناس في مكان ما ، وغالباً ما تكون هذه اللغة لهجة من اللهجات أو خليطاً من اللهجات تغلب عليها لهجة ما وتتسع أهميتها الحضارية والثقافية أو تطفو على السطح لأسباب سياسية اقتضت ذلك كالعظمة العسكرية ، أو انتماء أغلب الطبقة الحاكمة ورؤساء أجهزة الدولة المختلفة إليها ، أو تفرض قسراً لدواعي سياسية أو دينية ، أو تتغلب على ما سواها لبنيتها الحضارية والثقافية . وقد تكون البنية الذاتية للغة عاملاً من عوامل رقيها لتصبح لغة مشتركة .

وثمة توافق وصلة بين (اللغة المشتركة) وما يسمى بـ(اللغة الرسمية) التي تتخذها الدولة لشؤونها المختلفة فتكون لغة المخاطبات الرسمية والشؤون السياسية الداخلية والخارجية ولغة القضاء والإدارة والتعليم والإعلام ومجمل الحياة الرسمية العامة . واللغة المشتركة التي هذه سماتها يكتب لها الانتشار والشيوع في مختلفة أجزاء الدولة على الرغم من تعدد اللهجات ، وتكون اللغة التي بوساطتها يحصل التفاهم بين مختلف طبقات الناس وطوائفهم وانتمائهم العرقي والديني والمذهبي .

وغالباً ما تتخذ الدول لغة مشتركة واحدة . وقد تتخذ بعض الدول عدة لغات مشتركة ولكنها في هذه الحال تعد اللغة المشتركة أقرب الى اللغة الرسمية ، لأنه لا ينظر في الاختيار الى مدة شيوع اللغة أو انتشارها بمقدار ما ينظر الى ما تمثله من القوميات والجماعات الدينية والسياسية ؛ فتعد

اللغات المشتركة في الدولة الواحدة ذات صلة في كثير من الأمثلة والشواهد
بسياسة الدولة والأحزاب الحاكمة فيها .

ويعود ظهور اللغة المشتركة الى قيام دول كبرى وحضارات عظيمة
في التاريخ ، ولأسباب مختلفة تنصدر إحدى اللهجات ويكتب لها الشيوخ
ويحسم لها الأمر لتكون لغة مشتركة ؛ فقد حدث في بلاد الإغريق القديمة
أن تبوأَت اللهجة الأتيكية (Attique) منزلة مهمة وأصبحت لساناً للحضارة
(الهيلينية) ابتداء من عهد الإسكندر المقدوني ، علماً بأن هذه اللهجة
ظلت حتى القرن الخامس ق.م لغة محلية لإقليم منعزل عن باقي الأقاليم
اليونانية وكان أغلب سكانه من الفلاحين والمزارعين لم يختلطوا كثيراً
بالجماعات الأخرى محافظين قدر الإمكان على (عنصر نقى) . والفضل
لأثينا في ظهور لغة مشتركة جمعت الأقاليم اليونانية نظراً لأهميتها السياسية
والأدبية والفنية . وبقيت هذه اللغة أداة للحضارة الإغريقية منذ القرن الرابع
ق.م الى القرن التاسع الميلادي ، وما هذه اللغة من حيث الأصل إلا اللهجة
الأتيكية التي كانت منحسرة في إقليم شبه منعزل ثم كتب لها أن تتحول الى
لغة الحضارة والثقافة .

و(للمدينة) في مقابل (الريف) أهمية كبيرة في بلورة اللغة المشتركة
ولاسيما المدينة التي تتخذ عاصمة للدولة، وخير شاهد على ذلك في التاريخ
القديم اتخاذ اللاتينية لغة مشتركة لإيطاليا ومن ثم لغة للعالم الغربي كله .

وكانت اللاتينية لغة (روما) أي لغة (المدينة) عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، وبعد أن غزت اللهجات المجاورة لها انفردت بهذه الصفة . ويمثل تأريخ اللغة المشتركة في ألمانيا (القرار السياسي المقصود باتخاذ لغة مشتركة) ؛ فقد أظهرت مستشاريات المدن والإمارات الألمانية ميلاً الى اتخاذ لغة مشتركة مختلفة عن اللهجات الإقليمية منذ القرن الرابع عشر ، وأقرت المستشارية الإمبراطورية هذا المطالب وعمدت الى اختيار لغة واحدة في جميع الأقاليم الألمانية تتجنب الخصائص اللهجية ، وبدا ذلك واضحاً في عهد الإمبراطوري شارل الرابع في القرن الرابع عشر الميلادي . واستمدت هذه اللغة الألمانية المشتركة عنصر القوة من كونها (لغة الاستعمار) إذ حلت محل اللغات السلافية التي كانت ألمانيا تحتل أراضيها ، وبذلك تكونت الألمانية المشتركة في المدن المستعمرة ، ويعني ذلك أن عنصر القهر اللغوي قد مارسه المخططون للسياسة الألمانية في ذلك العصر . وتضافرت أسباب أخرى لقيام هذه اللغة المشتركة ، منها (سياسة الإصلاح الديني) التي جعلت منها لغة أدبية مرموقة ، ومنها أيضاً (اكتشاف الطباعة) التي هيأت لها أن تكون لغة الثقافة والمتقنين في ألمانيا ومستعمراتها الأوربية .

ومن الشواهد على أهمية لغة (العاصمة) باتخاذها لغة مشتركة تأريخ اللغة الفرنسية في فرنسا والأقاليم التابعة لها ومناطق نفوذ اللغة الفرنسية في أوروبا ؛ فقد تهيأت السبل للهجة (باريس) لتكون اللغة المشتركة لعموم فرنسا

للأهمية السياسية والثقافية اللتين كانت تتمتعان بها هذه اللهجة ، يضاف الى ذلك أنها لهجة العاصمة . وامتد نفوذ الفرنسية المشتركة وشمل بعض اللهجات من فصيلتها اللغوية التاريخية أي الفصيلة اللاتينية ، وبلغت أبعد من ذلك فشملت لغات من غير فصيلتها وأصبحت لغة مشتركة للفلمنكيين والبريتانيين ، علماً بأن الفلمنكية والبريتانية من أصل جرمانى أو كلتى . ونفذت الفرنسية أيضاً الى إقليم الباسك الواقع في الجنوب الغربي من فرنسا، وتعدت حدود فرنسا السياسية الى أجزاء من بلجيكا وسويسرا .

ومن العوامل الموجبة لانتشار الفرنسية العامل الاجتماعي فضلاً عن العاملين السياسي والاقتصادي ، لأن الفرنسية المشتركة انبثقت من الطبقة البرجوازية في العاصمة . قال برينو (Brunot) : " إن لغتنا المشتركة على النحو الذي استقرت عليه في القرن السابع عشر هي لغة البرجوازية الباريسية، برجوازية المدينة ، وقد سلم بها القصر ثم الأقاليم . والكتاب الكبار باستعمالهم إياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائياً وعلى استمرار " .

السياسة و (اللغة الرسمية) :

اللغة الرسمية هي اللغة التي تتخذها دولة ما لشؤونها العامة في الداخل والخارج كالإدارة والقضاء والمؤسسات الرسمية الحكومية والمجالس النيابية والمحلية والمعاهد العلمية والتربوية ووسائل الإعلام المختلفة والمخاطبات الرسمية ولغة السلك الدبلوماسي للدولة في سفاراتها وقنصلياتها

وملحقياتها الثقافية والتجارية وما أشبه، يضاف الى ذلك مخاطبة الدول الخارجية الممثلة في داخل الدولة...الخ.

وأغلب اللغات الحية المنتشرة في العالم ليس لها الصفة الرسمية بالتوصيف الذي ذكرناه آنفاً ولا تتجاوز اللغات المستعملة في المعاملات الرسمية بضع مئات فقط .

ويعد التطور السياسي للدول والحكومات من العوامل الأساسية في اتخاذ لغة رسمية حكومية عامة تشمل أجزاء الدولة وأطرافها بغض النظر عن اللهجات أو اللغات الأخرى السائدة فيها . ومن جملة الأسباب الموجبة لاتخاذ اللغة الرسمية السياسة الثقافية التي تنتهجها الدولة ، ولذلك يعتمد فهم العلاقة بين اللغات التي لها (وظائف رسمية) واللغات التي ليس لها مثل هذه الوظائف على السياسة الثقافية الرسمية للدولة .

ويجب ألا ينظر الى تعدد اللغات الرسمية في الدولة الواحدة على أنه سمة (إيجابية) بل العكس هو الحاصل فتعدد اللغات " يؤثر سلباً على سلسلة التواصل في الحياة اليومية " . وربما يعد ذلك سبباً لكثرة الدول التي تستخدم لغة رسمية واحدة قياساً بالدول التي تستعمل لغتين أو أكثر . ولدينا أمثلة في التأريخ للدول التي استعملت لغة رسمية واحدة ، منها اتخاذ الفرنسية لغة للدولة والقضاء في فرنسا بإرادة ملكية ، إذ أصدر الملك فرانسوا الأول في الخامس عشر من شهر تموز سنة ١٥٣٩ المرسوم المعروف بفييلار-كوتري (Villers – Cotteret) الخاص بالقضاء ، ونصت فيه المادتان (١١٠)

و(١١١) على أن الفرنسية لغة القضاء . وحلت بذلك الفرنسية محل اللاتينية وتقدمت على اللغات المحلية التي كانت شائعة في الأقاليم الفرنسية الأخرى ما خلا العاصمة باريس وتوابعها من المناطق التي شاعت فيها الفرنسية المشتركة . وقد أشار (برتو) الى هذا الحدث بقوله : " إن الفرنسية صارت لغة الدولة " ، أي اللغة الرسمية .

وتعد تركيا من الدول التي انتهجت (سياسة القهر اللغوي) ؛ فقد اتبعت سياسة (التتريك) في عصرها السلطاني والجمهوري ، وزادت من هيمنة هذه السياسة بعد قيام الجمهورية التركية الحديثة ذات البعد القومي المتطرف في سنة ١٩٢٣ ، لذلك أصبحت تركيا من البلدان التي اتخذت لغة رسمية واحدة على الرغم من وجود قوميات أخرى في أقاليمها ، فالأتراك لا يتجاوز عددهم من مجمل عدد السكان ال(٧٠%) في حين تبلغ نسبة الأكراد (٢٠%) ، وأما المجموعات اللغوية الأخرى فنسبتهم حوالي (١٠%) ، وهم خليط من القوميات أشهرها الأرمن والجورجيون والشركس والعرب .

وعلى هذا النهج عمدت دول أخرى أيضاً الى اتباع سياسة لغوية قهرية مثل المغرب وأندونيسيا وفيتنام .

وهناك دول قليلة في العالم فيها لغات ولهجات كثيرة وليس بالإمكان اتخاذها جميعاً لغات رسمية للدولة تدار بها شؤونها المختلفة لأن مثل هذا الأمر يكلف أموالاً طائلة فضلاً عن المزايا العملية التي ترجح استعمال عدد محدود من اللغات .

وخير مثال لكثرة اللغات في دولة هو نيجيريا التي اتخذت اللغة الإنكليزية لغة رسمية لها على الرغم من وجود ما يقرب من (٤٠٠) لغة ولهجة محلية فيها .

و(للمسعة الوطنية) أثر مهم في استعمال بعض اللغات الرسمية ، فرعاية هذه المسعة تستوجب تعدد اللغات في بعض الدول والمحافل الدولية كالاتحاد الأوروبي إذ كانت اللغات الرسمية المستعملة فيه قد بلغت حتى سنة ١٩٩٤ تسع لغات ، وفي سنة ١٩٩٥ زاد العدد الى إحدى عشرة لغة رسمية.

وكانت اللغتان (الإفريقية والإنكليزية) لغتين رسميتين في جنوب إفريقيا قبل تحررها من سيادة البيض ، وبعد أن انتقلت السيادة الى السود بقيادة (نيسلون مانديلا) حصل فيها تغيير جذري وأصبحت اللغات الرسمية فيها إحدى عشرة لغة ، أي الإنكليزية والإفريقية يضاف إليهما تسع لغات إفريقية محلية .

وجنوب إفريقيا من الأمثلة القليلة للدول التي عالجت تعدد اللغات فيها باتباع نظام لغوي جديد يضمن التعاون بين المجموعات (الإثنية) المختلفة في البلاد ، ويعد ذلك إجراءً سياسياً لحل الإشكال اقتضته ضرورة التسوية لمسألة اللغات الرسمية ؛ فاختارت البلاد تسع لغات محلية من أصل إفريقي وأضافت إليهما لغتين من أصل أوروبي وهما الإنكليزية والإفريقية .

والأنموذج الهندي بعد الاستقلال من النماذج النادرة للسياسة اللغوية والتخطيط اللغوي ، وربما كانت الهند الدولة الوحيدة في العالم التي تكفلت بتشجيع لغاتها المحلية ، فقد صنفت فيها اللغات الى ثلاثة مستويات ، فهناك لغات (رسمية عامة) تشمل أقاليم البلاد كلها ويبلغ عددها (١٦) لغة أكثرها انتشاراً الهندوستانية والإنكليزية ، وهناك لغات (رسمية إقليمية) تقتصر على بعض الأقاليم كالبنغالية والمراثية والأردو ، وهناك لغات (رسمية اختيارية) معترف بها كالنيبالية والميزو .

وهذا التقسيم والتوصيف انفردت به الهند لكثرة ما فيها من لغات وعقائد وأديان ومذاهب وطوائف ؛ فقد تجاوز عدد اللغات واللهجات فيها (٤٠٠) لغة ولهجة ، يضاف الى ذلك ما هو الأهم إذ لم تتبع الهند سياسة القهر اللغوي كتركيا وفرنسا بل عالجت مشكلة تعدد اللغات فيها بالتصنيف المذكور آنفاً وتخلصت من مشاكل كثيرة تثيرها اضطرابات دينية وطائفية ذات علاقة باستعمال اللغة .

واتخذت بعض الدول أسماء لها تشير الى تعدد اللغات ، مثل روسيا الحديثة التي سميت بالاتحاد الروسي ؛ فالنظام الاتحادي فيها هو الذي سوغ اتخاذ هذه التسمية لأن البلاد لا تضم الروس حسب وإنما فيها قوميات وشعوب أخرى كالشعوب السلافية والقوميات التركية والشعوب الفنلندية والمجموعات المغولية وشعوب التندرة (Tundra) الساكنين في الأصقاع الشمالية من سيبيريا .

ومن الأمثلة القليلة المتصفة بالشذوذ أو بالخروج عن المألوف أن تتخذ دولة ثنائية اللغة لغة الأقلية لغة رسمية لها كالفنلندية والسويدية في فنلندا ؛ فمن المعروف أن فنلندا تتخذ الفنلندية والسويدية لغتين رسميتين فيها، ونفع ذلك لا يعود إلا على نحو (٤%) من سكان البلاد لأن السكان المنحدرين من أصل سويدي في فنلندا يعدون أقلية ولكن لغتهم احتلت مرتبة لغة سكان البلاد الأصليين للمكانة المرموقة التي اتصفت بها سابقاً إذ كانت لغة (النخب الاقتصادية والثقافية والسياسية) في البلاد .

ومن الأمثلة الطريفة أيضاً أن يستدعي العامل السياسي استعمال لغة رسمية لأغراض السياسة الخارجية ، اي للأغراض الدبلوماسية ، ويشار في هذا المثال الى جزيرة مالطة التي يتكلم سكانها (المالطية) ، وهي ضرب من اللغة العربية وتعد اللغة الرسمية في داخل الجزيرة ، ولكن الحكومة المالطية تستعمل اللغة الانكليزية في علاقتها الرسمية الخارجية ، لأن الجزيرة كانت مستعمرة إنكليزية ، وهذا ضرب من القهر اللغوي أيضاً خلفه الاستعمار الإنكليزية .

السياسة و (التوظيف اللغوي) :

اللغة من أهم الأدوات التي تستعملها السياسة وتوظفها للوصول الى أغراضها لأنها أداة الى التواصل الفردي والجماعي على المستويات المختلفة سواء في الخطابة والكتابة أم في الإعلام بأنواعه وأشكاله من سمعي الى مرئي ؛ فالدعاية لنشر الأفكار الحزبية - مثلاً- تكون اللغة فيها عاملاً حاسماً

سلباً أو إيجاباً ، ناهيك عن الدعايات الانتخابية في النظم البرلمانية ، ولذلك ارتبطت اللغة بعوامل (التشكل) و (التحفيز) السياسيين . يضاف الى ما ذكرناه صلة اللغة بالسياسة الخارجية والعلاقات الدولية .

وغالباً ما يعمد الساسة الى استعمال اللغة إيجاباً للترويج عن أفكارهم وسلباً لدحض أفكار مناوئهم . ويشهد التأريخ القديم والحديث على ما للغة من تأثير مباشر في اندلاع الحروب أو انتهائها ؛ فالكلمات كما يقال أمضى سلاح في إثارة الفتن والاضطرابات والحروب أو على النقيض من ذلك .

والسياسي البارع هو من يتقن (فن الكلمة) ويوصل المعنى الى الطرف الآخر كما يريده هو لا كما يراد منه . وهنا تظهر أهمية (علم الدلالة) وفهمه وتدارسه وتدريبه للسياسيين كما نلاحظ ذلك في بعض المعاهد المختصة بتعليم (السلك الدبلوماسي الخارجي) أو مراكز البحوث التي تخرج السياسيين ويستفاد من خبراتها في القضايا السياسية وما يتصل بها من الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

والصلة بين السياسة واللغة تبدو أكثر وضوحاً في (الحقل الدلالي)، أي الحقل الذي يعنى بالمعنى وبكيفية فهمه وإيصاله والإستفادة منه . وهذا الحقل من البحث اللغوي له صلة (ترابطية) بين (الأفكار) و (الكلمات)، ويعود البحث في هذه المسألة في أوروبا الى القرن السابع عشر إذ قسم جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤) الأفكار على قسمين : أفكار بسيطة وأخرى معقدة ، وذهب الى " أن من بين تلك الأفكار المعقدة أفكاراً يسميها (الأنماط

المختلطة) ، وتشمل جميع المصطلحات الأخلاقية ، وهي الأكثر احتمالاً لخلق سوء الفهم ما لم يتم تحديدها على نحو دقيق وفق الأفكار البسيطة المستفادة من التجربة الحسية المباشرة التي تتحد مع بعضها لتشكل تلك المصطلحات " .

ومشكلة الألفاظ ذات المدلولات المعنوية ، ومنها الألفاظ الأخلاقية أثارت جدلاً كبيراً بين اللغويين والفلاسفة وعلماء النفس وأهل المنطق وعلماء العقائد وغيرهم من المعنيين بدلالة الألفاظ . ويمتد الجدل في هذا الموضوع الى عصور الفلسفة اليونانية ، ولم يقتصر على الحضارة الأوروبية حسب بل شمل حضارات شرقية ، ومنها الحضارة الإسلامية .

والدلالة المعنوية للألفاظ هي التي توقع في اللبس والإبهام ، وعنها ينشأ ما يدعى بـ(سوء استعمال الكلمات) أو سوء فهمها أو إفهامها . وبعض الألفاظ السياسية ولاسيما المصطلحات الحديثة كالديمقراطية والحرية والعدالة وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات والمجتمع الدولي ... الخ لها دخل في هذا العنوان لأنها أثارت الكثير من المحن والأزمات والمشاكل والفتن والحروب . ذهب أوكدن (Charles , k , Ogden) (١٨٨٩ - ١٩٥٧) في كتابه الذي ألفه مع رفيقه ريتشاردز (Ivor , A , Richards) ونشر في سنة ١٩٢٣ ، وهو الكتاب الموسوم بـ(معنى المعنى) الى أن " الحرب العالمية الأولى ذاتها كانت نتيجة لسوء استعمال الكلمات المجردة مثل الديمقراطية والحرية لأغراض دعائية ، وأي أمل في السلام العالمي في

المستقبل يعتمد على قدرة سيطرة الأشخاص المفكرين على معاني تلك الكلمات لئلا يساء استعمالها " .

وجرت محاولات من بعض الدالبيين لتفادي الإيهام الذي يتلبس الكلمات ذات المدلولات المجردة بصياغة لغة أنموذجية أساسية يختار فيها عدد محدود من الألفاظ ، وتبنى (أوكدن) هذه الفكرة وذكرها في الفصل الخاص بالمصطلحات في كتاب (معنى المعنى) ، وأشار الى أنه بالإمكان اختيار ثمانمائة وخمسين (٨٥٠) كلمة من اللغة الإنكليزية لصياغة فكرة (اللغة الإنكليزية الأساسية) القادرة على التعبير عن كل شيء ، وأغلب هذه الكلمات التي اختارها تدل على معاني حسية ، وظن أنه بذلك " سيجعل من المستحيل في النهاية استعمال اللغة بطريقة يخدع فيها الناس لأغراض دعائية " .

وكان (ستيوارت جيس ١٨٨٨-١٩٨٥) من أشهر الدالبيين الذين تبنا مقولة (التفكير الواضح) بالتدخل المباشر في الاستعمال اللغوي ؛ فقد نشر كتابه المعنون بـ(طغيان الكلمات) في سنة ١٩٣٨ ، وأسهم في اتجاه بدا واضحاً في النصف الأول من القرن العشرين ، وهو اتجاه معني " بالكيفية التي تقودنا فيها الفخاخ المجردة المحملة باللغة الى أنماط مزيفة من التفكير " .
وخلاصة مقولته في هذا الموضوع تتدرج فيما يأتي :

١- دعا جيس الى " التدخل المباشر في الاستعمال اللغوي من أجل الوصول الى التفكير الواضح " .

٢- بلغ شك جيس في (الكلمات المجردة) أي ذات الدلالات المعنوية مبلغاً توهم فيه أن (طغيان) هذه الكلمات " أكثر واقعية من طغيان هتلر ". قال في كتابه : " تتجسد المصطلحات المجردة في هيئة أشخاص لتصبح وقائع مُخرقة ومقاتلة. مع ذلك تكون المعرفة في علم المعاني عامة ، فإن النار المدمرة نادراً ما تبدأ".

٣- ذهب الى أن الكلمات المجردة عن المعاني المادية المحسوسة خاوية الدلالة ، قال مشيراً الى ذلك : " الكلمات والمصطلحات المجردة التي ليس لها مدلولات يمكن الرجوع إليها إنما تسجل فراغاً في المعنى وضجيجاً لا معنى له " .

وينبغي لنا أن نتوقف بمزيد من الشرح عند آراء أورويل (Georges Orwell) في الصلة بين اللغة والسياسة ، ولاسيما أفكاره في سوء استعمال اللغة وتوظيفها لدى الأحزاب السياسية ، ومقولاته في التفكير الواضح وقوة اللغة والتدخل المباشر في اللغة و (تقييس) اللغة والخطابة والكتابة في المنظور السياسي الدعائي .

ربط جورج أورويل (١٩٠٣-١٩٥٠) بين الفكر والكلمات من خلال استدعاء الصور الذهنية ، وفرّق بين تصور الأشياء المادية المحسوسة والأشياء المعنوية المجردة إذا أريد التعبير عنها باستعمال اللغة أي باستعمال الكلمات . وفي رؤيته أن المعاني المادية تستدعي الأفكار قبل الكلمات بخلاف المعاني المجردة التي تستدعي الكلمات قبل الأفكار .

وترتبط هذه المقولة بالمنظرات القديمة في الفلسفة الغربية بين مدرستين ، تدعى إحداهما بالمدرسة الواقعية ، وهي تنظر في الكلمات من خلال صلتها بالواقع أي بالأشياء خارج نطاق اللغة . وتدعى الأخرى بالمدرسة الأسمائية وترى أن المفاهيم المجردة أو الكلمات الدالة عليها ليس لها وجود حقيقي بل هي مجرد أسماء لا غير .

قال أرويل موضحاً رؤيته : " عندما تفكر في مادة ملموسة فإنك تفكر من غير كلمات ، وعند ذلك إذا رغبت في وصف الشيء الذي كنت تتصوره فربما تبدأ بتصيد الكلمات الى أن تعثر على الكلمات التي تبدو لك مناسبة لذلك الشيء . وعندما تفكر في شيء مجرد فإنك تميل الى استعمال الكلمات من البداية ، وربما من الأفضل تأجيل استعمال الكلمات ما أمكن ذلك والوصول الى المعنى الواضح قدر المستطاع من خلال الصور والأحاسيس " . ومعنى ذلك أن الصور الذهنية والإحساس بها سبيل للوصول الى المعنى الواضح ، ومتى ما استبعدت هذه الصور من الحضور الذهني أدخل ذلك بوضوح المعنى ، ويترتب هذا الأمر على الكلمات ذات المدلول المعنوي المجرد أكثر من غيرها .

وقد انتقد أرويل الخطاب السياسي للأحزاب والتجمعات السياسية من خلال هذا المنظور ، وهو منظور يرى فيه فصلاً للغة عن الواقع المشاهد ومنعاً للصور الذهنية من الحضور لتوضيح المقاصد ، لأن فصل اللغة عن واقع الأشياء يخل بالمعنى ويربكه ويخدع المتلقي و " يمكّن الحزب السياسي

من أن يديم معتقداً سياسياً بين أتباعه ويخدع أولئك الذين يريد استعبادهم .
وإذا افلح الحزب في استعمال اللغة بطريقة تمنع الصور الذهنية من الحضور
لا يصبح بمقدور الناس فهم ما يجري لهم ، وهكذا لا يستطيعون الثورة على
أمر لا يفهمونه " .

ودعوة أورويل للتدخل في اللغة يجب ألا تفهم على أنها إعادة بناء
اللغة بل هي تغيير للسبل التي تستعمل فيها مكونات اللغة ، ويستدعي ذلك
البدء (بالأفكار لا بالكلمات) ، وبالتفكير بما هو ملموس يمكن ملاحظته
والتحقق منه ، " وعند ذلك فقط يمكن للغة أن تطمح الى خدمة مصالح
الحقيقة وليس لمجرد خدمة مصالح السلطة " .

ودعا أورويل الى ما أطلق عليه (اللغة المبتكرة) ، وهو يريد بها
كيفية استعمال اللغة . وحذّر في هذه المقولة من خطر التوحيد القياسي ،
أي (التقييس) باتخاذ عبارات وأنماط تتخذ قياساً في الاستعمال ، لأن
التقييس في اللغة - على ما ذكر - يقود الى التقييس في الفكر ، ويتضح
ذلك في محاولة إعادة صياغة بنية اللغة التي تهدف الى تطوير الفكر ، إذ
يرى أورويل أن مثل هذه المحاولة تؤدي الى استبداد لا يقل خطراً " عما
فعلته الثورات الشيوعية) ، ويتعاضم الخطر عنده عندما يصبح (تقليص
اللغة) عملاً يهدف الى ذلك أيضاً كما حصل في الدعوة الى اللغة (المبسطة)
واختيار مجموعات من الكلمات كما ذهب إليه (أوكدن) وذكرناه سابقاً .

وحذر أورويل أيضاً من مغبة المبالغة في (التشكك في الأفكار المجردة) لأن ذلك (يمكن أن يؤدي الى نتائج سياسية وخيمة لا تحمد عقباها) ، ورد على جيس مبالغته في تجنب الكلمات ذات المدلول المعنوي المجرد قائلاً : " لقد ذهب ستيوارت جيس وآخرون الى الادعاء بأن الكلمات المجردة جميعها خالية من المعنى ، واتخذوا ذلك ذريعة للدفاع ونوعاً من الاستسلام السياسي ، فمثلاً كيف يتسنى لك النضال ضد الفاشية طالما لا تعرف معناها ؟ " .

وسدّد سهامه الى اللغة الإنكليزية الفصيحة في عقد الأربعينيات من القرن العشرين ورأى فيها أنها عدوة (اللغة الإنكليزية الجيدة) لأنها تتخذ من لغة الإعلام والخطب السياسية أمثلة نمطية وقوالب جاهزة " لتعليب الأفكار " ، ولا تبدو علاقتها باللغة الإنكليزية الحية إلا كعلاقة " العُكّازة بالساق " . قال في كتابه (الشعب الإنكليزي المنشور في سنة ١٩٤٧) : " ربما نجد اللغة الفصحى من أشد أعداء اللغة الإنكليزية الجيدة . هذا اللهجة المميّنة (المملة) - لغة المقالات الرئيسية في الصحف والكراسات الحكومية والخطب السياسية ونشرات الأخبار في هيئة الإذاعة البريطانية - آخذة بالانتشار من غير شك ، وهي تتغلغل في السلم الاجتماعي نزولاً وفي اللغة المحلية صعوداً . وسمتها البارزة اعتمادها على العبارات الجاهزة ، مثل : (في الوقت المناسب) و (أغتم أول فرصة) و (تقدير عميق) التي كانت يوماً ما جديدة وواضحة بيد أنها أصبحت الآن مجرد وسائل لتعليب الأفكار ، وعلاقتها باللغة الإنكليزية

الحية مثل علاقة العُكَّازة بالساق، وكل من يحضر مادة إذاعية أو يكتب لجريدة (التايمز) يتبنى هذا النوع من اللغة بطريقة تكاد تكون غريزية ، وهي تنقل العدوى الى اللغة المحكية كذلك".

وخلص في مقاله المعنون ب(السياسة واللغة الإنكليزية) المنشور في سنة ١٩٤٦ الى أن التفكير الواضح وقوة اللغة يكمنان في لغة الطبقة العاملة، وينبغي مقاومة الاتجاهات الفكرية واللغوية للطبقتين المتوسطة والثرية لأن انحطاط اللغة الإنكليزية يعود الى فوضى نظام الطبقات في بريطانيا . والظاهر أن مقولته هذه تنبع من فكره الاشتراكي وميله الى طبقة العامة الفقيرة لأنها هي التي تعبّر في تعاطيها للغة عن وضوح الفكر باستعمال الاستعارات التي تستدعي الصور المرئية كما عبّر عن ذلك . قال : " إن الانحطاط المؤقت في اللغة الإنكليزية مرده - مثل أشياء أخرى كثيرة - الى نظام الطبقات الفوضوي لدينا . لقد أصبحت اللغة الإنكليزية (المصقولة) تعاني من فقر لأنها لم تستمد القوة من الطبقات الكادحة فترة طويلة . إن أكثر الناس استعمالاً للغة البسيطة الملموسة الذين يفكرون في الاستعارات التي تستدعي - فعلاً - صوراً مرئية هم أولئك الذين يعيشون في تماس تام مع الواقع الفعلي . وتعتمد حيوية اللغة الإنكليزية على الإمدادات المستمرة من ذلك النوع من الصور ، وهكذا فان اللغة - واللغة الإنكليزية بخاصة - ستعاني عندما تفقد الطبقات المثقفة تواصلها مع العمال الكادحين " .

وعلى النقيض ما روج له جيس من أن اللغة البذيئة أقوى سلاح متوافر في مستودع الأسلحة عند الطغاة الديماغوجيين (زعماء الدهماء) وأنهم فرغوا اللغة من محتواها الفكري الواضح باستعمالهم الكلمات ذات المدلولات المجردة وهي محض لغو لا معنى له ، ذهب أروويل الى ان لغة هؤلاء الطغاة ليست فارغة من المعنى والهدف ، وإن كانت كذلك فكيف لنا أن نفسر قيام المجتمعات الصناعية العسكرية التي أقامها هتلر وستالين ؟ وكيف يتسنى لنا أن نقول (لغة هتلر الرنانة) ودعاية (غوبلز) وزير إعلامه وأثرهما المباشر وغير المباشر في وصول النازيين الى سدة الحكم ؟ ويرى أروويل أن أمثل السبل في مناهضة السلطة لا يكمن في الادعاء بأن أفكارهم التجريدية خاوية من المعنى والمحتوى بل بكشفهم في أعين الناس ليروا "كيف أن استخدام الطغاة للكلمات المجردة ملأهم بالمعاني الملموسة الرهيبة " .

وخلافاً لما ذهب إليه (أوكدن) في (حصر الألفاظ قدر الإمكان بالألفاظ ذات المدلولات الحسية) تجنباً لسوء الاستعمال وتحميل الكلمات أكثر من معنى واحد ، أكد أروويل أن هذا السبيل (قد يكون له في الواقع أثر عكسي) ، ورأى أن أنجع السبل في (محاربة الدعاية) هو (التحليل المنطقي والمناظرة) والنظر في العبارات والصيغ ومنع أن تتخذ الفكرة الواحدة (أشكالاً لغوية متعددة) لفقدان الكلمات المرادفة بعد إعادة كتابة العبارات

الدعائية ، وبمعنى آخر (جعل أنماط التفكير الأخرى مستحيلة) ، وإذا ما تحقق ذلك امتنع الشك في أي عبارة من العبارات .

وسعى أورويل الى تطبيق هذا المنظور على لغته الإنكليزية المنتقاة التي أطلق عليها عبارة (الكلام الجديد) أو (اللغة المبتكرة) وبنى عليها أفكاره ومقولاته في صلة اللغة بالسياسة .

وكان ظن أورويل بـ(لغة الأحزاب) ولاسيما اللغة الدعائية لها ظناً سيئاً مشوباً بالحذر ، وشمل ذلك أيضاً الكتابة السياسية في عصره أي في أواخر العقد الرابع من القرن العشرين . ووصف أسلوب الأحزاب بالأسلوب (التقليدي الجامد) إذ قال : " إن الحقيقة الثابتة في زماننا أن الكتابات السياسية رديئة ، وإذا لم يصح ذلك وجدنا الكاتب - عموماً - متمرداً بعض الشيء على تقاليد حزبه ويعبر عن آرائه الخاصة وليس عن (خط الحزب) ، ومهما كان لون المعتد السياسي فهو يتطلب أسلوباً تقليدياً جامداً " ، ولذلك رأى أن الخطابة السياسية والكتابة فيها " دفاع عن شيء لا ينبغي الدفاع عنه " .

ونجتزئ ببعض الأمثلة من روايته الموسومة بـ(ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين = ١٩٨٤) المنشورة في سنة ١٩٤٩ ، وهي رواية راجت وشاعت في بريطانيا وتجل -بالأسلوب الروائي - بعض نظرياته في الصلة بين اللغة والسياسة ولاسيما ما ارتبط منها بمصادرة الأحزاب السياسية لأفكار المنتمين إليها:

- ١- مصادرة الحزب لأبسط المعادلات المنطقية كحاصل جمع اثنين مع اثنين فتكون النتيجة خمسة لا أربعة ، لأن الحزب أراد أن يوهم بذلك: " نجد بطل الرواية (وينستن سميث) يدرك بالدليل الذي تراه عيناه أن ذلك خطأ ولكن الحزب يتمتع بسيطرة كافية على أفكاره ولغته إذ إنه لا يستطيع جمع خيوط المناظرة التي يعرفها بالحدس والتي يمكن لإثبات خطأ المعادلة الحسابية " .
- ٢- إعادة كتابة التاريخ : " ويصح الشيء نفسه على عمليات الحزب في إعادة كتابة التاريخ التي ينهك (وينستن) نفسه بها وبشعاراتها الثلاثة :

الحرب هي السلام

الحرية هي العبودية

الجهل قوة

- ٣- شعارات الأحزاب : أما (كاثرين) زوج وينستن المطلقة " فليس لديها فكرة تدور في خلدائها إلا وكانت شعاراً " .
- وخلاصة ما تقدم ذكره ومعناه وفحواه وما يرمز إليه بيان الملازمة اللفظية بين (الكلمات) و (الأفكار) التي يروج لها الحزب ويضعها في قوالب لفظية جاهزة للاستعمال في أي مناسبة .

ومن المفيد أن نختم هذا المبحث ببيان أهم المجالات والملاحظات التي يمكن أن يستفيد منها منظرو السياسة والعاملون فيها من حيث الاستعمال اللغوي :

١- مجال الموائيق والعهود والمعاهدات والقرارات الدولية : اختيار الألفاظ المحددة تحديداً دقيقاً واضحاً قدر الإمكان . وإذا أريد الاستفادة من (هامش المناورات السياسية) يلجأ واضع النص الى ألفاظ عامة تحتل وجوهاً مختلفة تبني عليها تفسيرات متداخلة أو متباعدة بحسب المراد من وضع النص أو الهدف السياسي المتوخى منه . ويدخل في هذا المجال ما يمكن حمله على (حسن النوايا أو سوءها) وما يمكن أن يستعمل في المناورة السياسية وصولاً الى تحقيق الأهداف الحقيقية من وضع النص .

٢- التصريح السياسي : دقة استعمال الدلالة من حيث دلالة الألفاظ على الأهداف المتوخاة من التصريح ؛ ويتضح ذلك جلياً في ميادين الحروب والأزمات السياسية وما يسمى ب(الضغوط السياسية) تجاه الخصم . ويندرج ضمن هذا المفهوم الوصول الى الحل الوسطى في (الصفقات السياسية) بارتفاع سقف المطالب نزولاً الى الوسطية المقبولة من الطرفين.

٣- مجال الدساتير وقوانين الدولة : يراعى في وضع الدستور وملحقاته من التشريعات القانونية ، وكذلك القوانين المحلية المختلفة منتهى الدقة والحيلة في توضيح المعنى والفحوى والمقصد من المادة الدستورية أو

التشريعية أو القانونية لكي لا يحصل التأويل المخل بوجود ثغرات يمكن أن تستغل خلافاً للمادة .

٤- المجال (الدبلوماسي) في العلاقات الدولية : وهو مجال خطير إذ يترتب على المبعوثين الدبلوماسيين وممثلي الدول كالسفراء والملحقين والمبعوثين المختصين بقضية من القضايا أن يكونوا على أتم الحرص في الإفادة والتصريح والتعليق مشافهة أو كتابة بما يضمن تحقيق الأهداف السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها لدولهم التي يمثلونها .

٥- إذا فهمت السياسة في بعض معاييرها ومقاصدها على أنها (فن الخدعة) لزم ذلك أن تقوم اللغة بهذه الخدعة مع ما يصاحبها من السلوك العملي.

٦- غالباً ما تكون (الكلمة) على مرّ العصور منذ نشأة الدولة الحدّ الفاصل في الحرب والسلام .

٧- مجال الأحزاب والأفكار والعقائد السياسية : تبرز اللغة أو ما يمكن تسميته بـ(فن الأداء الكلامي) الى مرحلة القيادة والريادة لكثير من الأحزاب السياسية ، وكثيراً ما تغلّف المدارس السياسية أطروحاتها بغلاف من الكلمات والعبارات والمدلولات والمصطلحات خدمة لأهدافها الظاهرة والمستترة . وتتخذ اللغة أيضاً أداة لنشر العقائد السياسية ذات المنحى الفلسفي . والمضامين الاجتماعية والاقتصادية . ويظهر في هذا المجال ما يطلق عليه (غسل العقول) والتهيئة العقائدية للفئات التابعة لحزب

ما أو تنظيم ما ولاسيما فئة الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين (١٨) سنة و (٣٠) سنة .

٨- مجال الإعلام : يعد هذا المجال في عصرنا هذا من أخطر المجالات ولاسيما بعد التطور المتسارع لأجهزة الإعلام المقروءة منها والمسموعة والمرئية . وأحدث التطور الآلي في مجال الاتصالات تغييراً عظيماً في كثير من المفاهيم الإعلامية ، واتجهت الوسائل الإعلامية الى خدمة الأغراض السياسية بمختلف السبل والوسائل المباحة منها وغير المباحة بصرف النظر عن المفاهيم الأخلاقية والأدبية العامة للعقل الإنساني الواعي والمدرك لحقيقة الأشياء .

واستغلت هذه الوسائل أبشع استغلال في الكذب والتضليل والتدليس وقلب الحقائق و(فبركة) الأحداث السياسية ولاسيما المظاهرات والثورات الشعبية والعصيان المدني والانقلاب العسكري ... الخ . وبلغ الأمر بها الى اصطناع ما يعرف ب(الثورات الافتراضية) ، وهي ثورات لا حقيقة لحدوثها صورت على وسائل الاتصال هذه عبر الأقمار الاصطناعية على أنها أحداث وحقائق جارية في بلد من البلدان .

٩- إن (سوء استعمال الكلمة) قد يكون في بعض الموارد أقل خطراً في السياسة الداخلية والإقليمية والدولية من (سوء فهمها) ، لأن سوء الاستعمال قد يكون مقصوداً يستهدف أغراضاً معينة ، وأما سوء الفهم فهو غير مقصود وقد تترتب عليه نتائج خطيرة .

المبحث السابع

أسس علم
اللغة الجغرافي

التعريف بعلم اللغة الجغرافي(مصطلحاته وموضوعاته وميادينه والعوامل المؤثرة فيه):

علم اللغة الجغرافي من مناهج علم اللغة الحديث ، وهو من حيث الظهور حديث بالنسبة الى المنهجين التاريخي والمقارن والمنهج الوصفي إذ يعود الى منتصف الخمسينيات من القرن الماضي ، وله صفة تطبيقية ويستفاد منه في المجالات العملية المختلفة وله علائق ووشائج بتوزيع اللغات واللهجات في العالم ودراسة اهميتها الثقافية والسياسية والاقتصادية. وتطلق - عادة - ثلاثة مصطلحات على هذا المنهج (1) هي : (area linguistics)، و (geographical linguistics) ، و (geo linguistics) .

ويمكن التعريف بعلم اللغة الجغرافي ببيان اهم عناصره المتمثلة بانتشار اللغات في العالم وعقد المقارنة بينها من حيث عدد المتكلمين بها والتوزيع الجغرافي لها وأهميتها العلمية والعملية والثقافية ، ولذلك وضح ماريو باي هذه العناصر بقوله : "علم اللغة الجغرافي يغطي بشيء من التفصيل الوضع الحالي للغات العالم عاقداً المقارنة بينها على ضوء العوامل الموضوعية الحديثة مثل عدد المتكلمين والتوزيع الجغرافي للغات

1- انظر: نخبة من اللغويين العرب : معجم مصطلحات علم اللغة الحديث : ٦٥ .

واحتمالات الاستفادة منها وأهميتها التجارية والعلمية والسياسية والاستراتيجية في إطار عالما الذي نعيش فيه" (١).

والصفة التطبيقية العملية الغالبة على علم اللغة الجغرافي جعلته ينظر الى اللغات واللهجات المنتشرة في عالما اليوم على أنها " ماذا تمثل من وجهة النظر العملية للرجل العسكري والموظف الحكومي والباحث العلمي والفني والمبشر وقوات الأمن الدولية...الخ" (٢).

وتعد الاحصاءات اللغوية من العناصر المهمة التي يعتمد عليها عالم اللغة الجغرافي. وهي إحصاءات تهتم بجمع الحقائق اللغوية " وتصنيفها وتهذيبها من الناحية الجغرافية مع استخدام المناهج الإحصائية الدقيقة " (٣).

ومن الميادين التطبيقية لهذا العلم النظر في الخلافات اللهجية في اللغات الحية المنتشرة على الأرض ، والخلافات المحلية في الكلام ، ومعرفة أي اللهجات أكثر نفوذاً في الاتصال في البقعة الجغرافية التي يتناولها بالدرس . قال ماريو باي بهذا الصدد : "أما عالم اللغة الجغرافي فيجب أن ينظر الى هذه الخلافات في ضوء لغة اليوم ومدى تأثيرها على صورة الكرة الأرضية . وإذا ما تطورت الخلافات المحلية في الكلام حتى

١- أسس علم اللغة : ٦٤ .

٢- أسس علم اللغة : ١٨٦ .

٣- أسس علم اللغة : ٢٢١ .

وصلت الى نقطة أصبح معها التفاهم المشترك أمراً صعباً أو مستحيلأً وأصبح مركز اللغة باعتبارها أداة اتصال في خطر أو عجز كبير . والى جانب هذا فإن دراسة اللهجات المعنية تصبح أمراً أساسياً إذا أراد الشخص أن يعرف أيها أكثر نفوذاً في الاتصال داخل المنطقة موضوع دراسته" (١).

ومن مباحث علم اللغة الجغرافي (٢): اللغات المحلية ، واللغات الوطنية ، واللغات الاستعمارية ونفوذها في اللغات الوطنية ، واللغات الأولية والثانوية في منطقة معينة وما يترتب عليها من ثنائية اللغة أو تعددها ، واللغات الناشئة عن الهجرة والتجنس ، وانتشار اللغات التي تكونت عن طريق الانتخاب المعتمد من اللهجات الاقليمية ثم حلت محلها، واللغات التي توضع للتفاهم بين الأقاليم المتجاورة على نحو مبسط وكلمات مختلفة ، واللغات التي تتولد عن لغة وتتميز ببساطة تركيبها ، واللغة التي يعتمد تغييرها من ناحية الهجاء أو النطق أو القواعد النحوية بقصد تيسيرها على المتعلمين ، والاهتمام بالمركز الاجتماعي أو التربوي وما ينتج عنه من لغة رسمية ولغة وطنية ولغة أدبية ، ولهجة شائعة بين أفراد الطبقة الدنيا في المجتمع ، واللغة الطبقية وهي الكلمات أو التعبيرات أو المصطلحات المختصة بمهنة أو جماعة ما .

١- أسس علم اللغة : ٢١٠ .

٢- انظر : أسس علم اللغة : ٦٤ .

علم اللهجات :-

علم اللهجات (dialectology)^(١) يتناول بالدرس والبحث اللهجات المتفرعة من اللغات بأنواعها المختلفة . ويطلق عليه أيضاً علم الجغرافية اللغوية ، وهو "فرع من فروع علم اللغة يعنى بتحليل ووصف التنوعات المحلية أو الاجتماعية أو الزمنية للغة معينة مبيناً كيف تختلف هذه التنوعات المحلية أو الاجتماعية أو الزمنية للغة معينة مبيناً كيف تختلف هذه التنوعات في المنطق أو في القواعد أو في المعجم ؟ وكيف تتوزع هذه التنوعات الجغرافية؟"^(٢).

وما يعني علم اللغة الجغرافي التنوعات المحلية والاجتماعية للهجات الحية المستعملة في الحاضر . أما الدراسات اللهجية التاريخية - وإن كانت من العوامل المساعدة في علم اللغة الجغرافي - فإنها ألصق بعلم اللغة التاريخي ، أي أنها ليست هدفاً وغاية بل وسيلة لأن المناهج اللغوية يستفيد بعضها من بعض آخر .

ويمكن أن نفهم المعنى المقصود باللهجات من حيث استعمالها محلياً في محيط واسع ولها سمات عامة ، وبذلك تصنف الى وحدات كبيرة

١- معجم مصطلحات علم اللغة الحديث : ٦٦ .

٢- هارتمان وستورك : قاموس اللغة وعلم اللغة (Dictionary of language and linguistics- London. ١٩٧٣) .

نقلا من محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى علم اللغة: ١٥٥ .

وفقاً لهذه السمات^(١). ويعود التقسيم اللهجي الى إدراك التباين بين لهجة وأخرى عند المتكلمين بها في منطقة جغرافية معينة ، ولذلك يرى بعض الباحثين أن التقسيم اللهجي " يرجع الى إحساس حقيقي لدى سكان الإقليم الواحد ، إحساس بأنهم يتكلمون بصورة ما ليست هي الصورة التي يسير عليها سكان الإقليم المجاور"^(٢).

والبحث في اللهجات يعتمد على أسس منهجية من أهمها الاستفادة من مناهج البحث اللغوي الأخرى ، واتخاذ المكان محورا في البحث ، وجمع نماذج من لغة الكلام في المكان المراد دراسة اللهجة أو اللهجات فيه ، والمقارنة بين هذه النماذج للوصول الى النتائج ، ومن ثم عقد مقارنة أخرى بين نظم الاستعمال اللهجي في مناطق مختلفة وطبقات اجتماعية متعددة . واختصر أحد الباحثين هذا المنهج بقوله : "الباحث في اللهجات عادة ما يستخدم الأصول المقررة في علم اللغة بفروعه (الوصفي والتأريخي والمقارن) ؛ فهو يبدأ بدراسة وصفية على محور المكان تقوم على جمع عينات من لغة الخطاب في المنطقة المراد دراستها ، ثم بعد ذلك يستخدم الطريقة المقارنة لدراسة الخلافات بين عينات متوازنة من حديث أفراد مختلفين ، وأخيراً يصل الى نتائج تأريخية تتعلق بتغيرات متوازنة

١- انظر : أسس علم اللغة : ٦٩.

٢- رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية : ٧٢.

ومتعارضة في نظام الحديث المستخدم في مناطق مختلفة وطبقات اجتماعية متباينة " (١).

ومن المعروف في البحث اللغوي ان اللغة الواحدة تنشعب الى لهجات نقل أو تكثر تبعاً للمساحات الجغرافية التي تنتشر فيها ، وأن ظهور اللهجات وتفرعها من تلك اللغة يطرد مع انتشارها في مساحات واسعة ، و "متى ما انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض تحت تأثير عامل أو أكثر من العوامل السابق ذكرها وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً فلا تلبث ان تنشعب الى لهجات " (٢).

ولذلك وصف فندريس اللغة بأنها " الصورة المثالية التي تفرض نفسها على جميع الأفراد في مجموعة واحدة" ، وأن خصائصها " تتوقف على طبيعة المجموعة وعلى مقدار امتدادها " (٣).

ويصعب التفريق على نحو دقيق بين (اللغة) و (اللهجة) غير أن شعور الأفراد بانتمائهم الى لغة أو لهجة ما وما يجمعهم من تقاليد

١- مدخل الى علم اللغة : ١٥٨.

٢- علي عبد الواحد واقفي : علم اللغة : ١٥٩.

٣- اللغة : ٣٠٦.

ومعتقدات مشتركة ومدى التشابه في طرائق حديثهم جعل التفريق بينهما ممكناً الى مستوى مقبول (١).

وكان اللغويون العرب القدامى لا يفرقون بين اللغة واللهجة ويخلطون بينهما لأن العلاقة بين اللغة واللهجة لم تكن واضحة في أذهانهم ، وذهب بعضهم الى أن اللهجات العربية لغات مختلفة و(كلها حجة) (٢).

ويرى دي سوسير أن شعور الأمة بلغتها يعود الى تنوع اللغات ولاسيما التنوع المكاني. قال : " إن أبرز ما يظهر في دراسة اللغات هو تنوعها ، أي الفروق اللغوية التي تظهر عند الانتقال من بلد الى آخر بل من منطقة الى أخرى، وكثيراً ما يغيب عن بال الملاحظ التنوع الزمني ، أما التنوع المكاني فيظهر للمرء في الحال ، بل يدركه حتى الرجل البدائي بفضل اتصاله بأبناء قبيلة تتكلم لغة أخرى . وهذه المقارنات هي التي تجعل الأمة تشعر بلغتها" (٣).

وصعوبة التفريق بين اللغة واللهجة ربما أدت الى أن كثيراً من علماء اللغة أنكروا وجود اللهجات وتصور الحالة اللغوية وتطورها في مظهرين : مظهر اللغة التي تشتمل على صور التكلم المحلية جميعها ،

١- انظر : مدخل الى علم اللغة : ١٦٠ ، ١٦١ .

٢- فصول في فقه العربية : ٧٣ .

٣- علم اللغة العام : ٢١٤ .

ومظهر صور التكلم المحلية التي إليها تنفتت اللغة (١)، غير أن لغويين آخرين أقروا بوجود اللهجات ، منهم (ميهه) الذي ذهب الى أن في الهندية الأوربية لهجات وربط ذلك بوجود الخطوط الفاصلة بين الخصائص ، ولكل لهجة خصائص مشتركة في منطقتها ، وإذا تعذر رسم خطوط فاصلة بقيت سمات عامة تفصل بين اللهجات ومناطقها .

قال فندريس موضعاً رأي ميهه في اللهجات الهندية الأوربية :
"الأستاذ ميهه قد دافع بحق عن اللهجات الهندية الأوربية فأبان أنه يمكننا أن نقوم بتقسيم لهجي حتى في زمن الهندية الأوربية ، وهذا التقسيم يقوم على المبدأ القائل بأن من حقنا أن نتكلم على وجود لهجات كلما رأينا عدداً كبيراً من الخطوط التي تفصل بين الخصائص ينطبق بعضها على بعض ولو بشكل تقريبي ، فهناك لهجة محددة في كل منطقة يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة ، وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة للفصل بين منطقتين متجاورتين فإنه يبقى أن كلاً تتميز في مجموعها ببعض السمات العامة التي لا توجد في الأخرى" (٢) .

ويرى دي سوسير أن عاملي التوحيد والتفتت اللغويين يرجعان الى القوانين التي تتحكم بانتشار الظواهر اللغوية ، ونتيجة لصراع هذين العاملين تبقى اللغة الواحدة متماسكة أو تنفتت الى لغات ولهجات أخرى . وعنده أن

١ - انظر : اللغة : ٣١١ .

٢ - اللغة : ٣١٢ .

التفتت ناتج عن عمل الإقليمية ، والتوحد ناتج عن الاتصال بين الناس . قال : "إن القوانين التي تتحكم بانتشار الظواهر اللغوية هي نفسها التي تتحكم بالعادات مهما كان نوعها كطراز الأزياء ، ففي كل مجموعة بشرية تعمل قوتان في آن واحد وباتجاهين متضادين : القوة الأولى هي الفردية أو الإقليمية ، والثانية : الإتصال بين الناس . تدفع الإقليمية بمجتمع لغوي محدد الى أن يتمسك بتقاليده الخاصة والأنماط التي يكتسبها الفرد في طفولته قوية ثابتة . ولو عملت هذه الأنماط وحدها لخلقت عدداً لا يحصى من الصفات الخاصة في اللسان ... ولكن الاتصال وهو القوة المضادة يجد من أثر العامل الأول ؛ فالإقليمية تدفع الناس الى الاستقرار ، أما الاتصال فيدفع بهم الى التنقل ... وبعبارة أخرى : الاتصال هو القوة الرابطة التي تقف بوجه التفتت الناتج عن عمل الإقليمية " (١).

وقريب من هذا الطرح ما ارتآه فنديس ، فقد ذهب الى أن العامل الأساسي لنشأة اللهجات واللغات هو صراع التوازن بين التفريق والتوحيد ، أي بين عامل تفتت اللغة الى لهجات وعامل توحيدها الذي يعيد التوازن . قال في توضيح هذا المعنى الذي عدّه قانوناً لتطور اللغات جميعاً : "... فهذان ميلان متعارضان يوجهان اللغة في طريقين متباينين . وأحد هذين الميادين يتجه نحو التفريق ؛ فتطور اللغة يؤدي الى انفصالات تزداد مع الزمن تعدداً وتكون النتيجة تفتت اللغة تفتتاً يزداد بازدياد استعمالها إذ

١ - علم اللغة العام : ٢٢٧.

تضطرها الى هذا التفتت مجاميع الأفراد التي تترك وشأنها دون احتكاك بينها ، غير أن هذا التفريق لا يصل إطلاقاً الى تمامه لأن سبباً حيويًا يوقفه في الطريق إذ أنه بإمعانه التدريجي في الحد من امتداد المجموعات التي تستخدم اللغة وسيلة للتفاهم بينها ينتهي بحرمان اللغة من قيمها الجوهرية فتحطم اللغة نفسها وتصير غير قادرة على إيصال الناس بعضهم ببعض . لذلك يقوم ميل آخر يعمل دوماً على مناهضة التفريق وهو الميل الى التوحيد الذي يعيد التوازن . ومن صراع هذين الميلين تنتج أنواع اللغات المختلفة من لهجات ولغات خاصة ولغات مشتركة" (١).

ومن القضايا التي تعترض البحث في اللهجات تحديد حدودها ، فمن الصعوبة تحديد حدود اللهجات لتداخلها وتغيرها المستمر ، ويبدو هذا الأمر أكثر صعوبة بمعزل عن التقسيم السياسي للأقاليم " فاللهجات تنشأ فجأة من التعاون الطبيعي للأحداث اللغوية إذ توجد اللهجة في كل مكان توجد فيه صور تكلم متجاوزة ذات خصائص مشتركة وتشابه محسوس في المظهر العام لدى المتكلمين؛ فاللهجات لا يمكن تحديدها إلا على وجه التقريب . وقد قلنا إننا إذا جمعنا كل المعايير اللغوية لم نستطع بها أن نخط حدوداً للهجة من اللهجات" (٢)، غير أن اللهجات تتضح حدودها بعاملين ، أحدهما : التقسيم السياسي للأقاليم ، فإذا لم تستخدم هذه الأقاليم

١ - اللغة: ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

٢ - اللغة: ٣٢٦ .

التي ينقسم إليها قطر من الأقطار بقيت حدود اللهجات غير ثابتة ،
والآخر: العامل الديني فهو يشترك مع العامل السياسي في تعيين حدود
اللهجات^(١).

اللغة المشتركة :-

اللغة المشتركة هي اللغة التي يتكلم بها الأفراد الذين ينتمون الى
مجتمع مترابط من حيث القيم الأخلاقية والثقافية والعادات والتقاليد إذ
يشترك جميعهم في استعمال هذه اللغة في كلامهم وكتاباتهم وخطبهم
ومقالاتهم بغض النظر عن اللهجات الخاصة الموجودة في ذلك المجتمع .
وقد يعبر عنها باللغة الفصحى أو اللغة الوطنية أو لغة الدولة أو اللغة
القومية^(٢).

والعوامل التي تجعل إحدى اللهجات أو اللغات تطفو على السطح
وتتخذ لغة مشتركة لمجتمع ما تعود الى (قوة سياسية منظمة) ، أي تفوق
سياسي لتلك اللهجة أو الى تأثير (طبقة اجتماعية غالبية) أو (تفوق أحد
الآداب) ؛ فالأسباب السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية تعمل على
استيفاء تلك اللغة وعدم تفتتها . قال رينان موضحاً أثر المدنية في نشر

^١ - انظر : اللغة : ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

^٢ - انظر : أسس علم اللغة : ٦٨ ، ٦٩ ، وعلم اللغة : ١٧٠ .

اللغة : "المدنية وحدها هي التي تستطيع أن تنتشر اللغة بين كتل عظيمة من البشر " (١).

وتتصف اللغة المشتركة بأنها لغة متوازنة بين الثبات والتطور . قال ميه : "ليست لغة ثابتة وليست لغة تتطور تطوراً مطرداً، بل هي لغة فيها نوع من التوازن دائم التغير بين الثبات والتطور" (٢).

وخير مثال تاريخي للغة المشتركة هو اللغة العربية الفصيحة ، وكيف نشأت قبل الإسلام؟ ، والمعروف أن العربية إحدى اللغات السامية ، وقد انقسمت منذ أقدم عصورها الى لهجات تختلف في بعض المظاهر الصوتية والصرفية والتركيبية والدالية ، "واختصت كل قبيلة وكل جماعة متحدة في ظروفها الطبيعية والاجتماعية بلهجة من هذه اللهجات " (٣).

واقترضت عوامل دينية وسياسية واقتصادية أن تظهر لغة مشتركة موحدة للقبائل العربية قبل الاسلام بحوالي قرنين أو أكثر اتخذت لغة أشبه ما تكون باللغة الرسمية والثقافية للعرب جميعاً على اختلاف لهجاتهم يتكلمون بها في نواديهم ومحافلهم ومجالسهم العامة المشتركة وأسواقهم الموسمية ، وينظمون بها الأشعار ويلقون الخطب ، وقد عرفت في ما بعد

١ - اللغة : ٣٢٨ .

٢ - اللغة : ٣٣٩ .

٣ - فقه اللغة : ١٠٤ .

الإسلام وفي فترة تدوين العلوم والمعارف في القرون الهجرية الثلاثة الأولى بالعربية الفصيحة أو الفصحى .

ونشأت هذه اللغة في مكة مجمع العرب لوجود الكعبة المشرفة فيها ولما اتسمت به قريش من تفوق حضاري وقوة سياسية واقتصادية (١). واستمدت العربية الفصيحة عناصرها اللغوية منتقاة من اللهجات العربية غير الموغلة في المحلية ، بيد أن لهجة قريش كان لها حصة الأسد في هذا المجال إذ رفدت الفصيحة بكثير من المفردات والعناصر اللغوية الأخرى (٢).

اللهجات الاجتماعية :-

تطلق اللهجات الاجتماعية على لهجات تختص بطبقات المجتمع الواحد الذي يتحدث لغة واحدة . ونتيجة لاختلاف طبقات الناس اصطاح علماء اللغة على هذا الضرب من اللهجات باللهجات الاجتماعية تمييزاً لها عن اللهجات المحلية (٣) . ويصطاح عليها أيضاً باللغات الطبقيّة تبعاً للمستويات المختلفة للغة على أساس الطبقة الاجتماعية أو التعليمية ، "وهذه الطبقات الاجتماعية أو الثقافية للغة مهمة جداً من وجهة نظر علم

١- انظر : فقه اللغة : ١٠٥ ، وفصول في فقه العربية : ٧٨.

٢- فصول في فقه العربية ، ٨٤.

٣- علم اللغة : ١٧٣.

اللغة الجغرافي لأنها تبلور الصورة العامة للتنوعات اللغوية المستعملة على ظهر الكرة الأرضية " (١).

ومن مصطلحات علم اللغة الاجتماعي (٢) ما يسمى بـ (الجماعة الكلامية) speech community وهو مصطلح شائع الاستعمال يطلق على جماعة تعرف على أساس اللغة ، ويرادفه في المعنى مصطلح آخر هو : (الجماعة اللغوية) linguistics community .

وتعرف الجماعة الكلامية على أنها جماعة من الناس (يستخدمون لغة أو لهجة بعينها) (٣) . وبهذا المدلول تكون قريبة من مدلولي (اللهجات الاجتماعية) أو (اللهجات الطباقية) .

وتنشأ اللهجات الاجتماعية بمختلف مسمياتها من تلقاء نفسها عبر مراحل زمنية ، شأنها في ذلك شأن الظواهر اللغوية التي تخضع لسنن التغيير عبر الزمان. وذهب بعض علماء الإثنوكرافيا خلافاً لهذا المبدأ ؛ فاللهجات الاجتماعية عند هؤلاء "لا تنشأ من تلقاء نفسها بل تخلق وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها ارتجالاً".

١- أسس علم اللغة : ٧٠.

٢- هدمس : علم اللغة الاجتماعي : ٥٢ .

٣- علم اللغة الاجتماعي : ٥٢ .

وقد فند الدكتور علي عبد الواحد وافي هذا الدعم بقوله : "ليس لهذه النظرية أي سند عقلي أو تاريخي ، بل ان ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية ، فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقاً ، بل تتكون بالتدرج من تلقاء نفسها . هذا الى أن معظم هذه اللهجات منتشرة بين طبقات فقيرة جاهلة منحلة المدارك ضعيفة التفكير لا يتاح لمثلها أن تنشئ انشاء لغة كاملة المفردات متميزة القواعد ، بل لا يتاح لها مجرد التفكير في مثل هذا المشروع الخطير" (١).

وقد تتباعد اللهجات الاجتماعية بعضها عن بعض فيتعذر على طبقة أن تفهم لغة الطبقة الأخرى ولاسيما مصطلحاتها في الحياة اليومية . قال فندريس متمثلاً ببعض اللهجات الاجتماعية في فرنسية باريس : "يوجد في فرنسا الى جانب اللغة الأدبية التي تكتب في كل مكان والتي يزعم المثقفون بأنهم يحققونها في كلامهم مجموعة من اللهجات... هذا الى أنه يوجد داخل مدينة واحدة كباريس عدد من اللغات المختلفة تسير كلها جنباً الى جنب ؛ فلغة الصالونات مثلاً ليست لغة الثكنات ، ولغة الأعيان ليست لغة العمال ، وهناك رطانة المحاكم والعامية الخاصة التي تتكلم في حواشي المدينة . وهذه اللغات يختلف بعضها عن بعض الى حد أنه قد يعرف الإنسان إحداها دون أن يفهم الأخرى" (٢).

١ - علم اللغة : ١٧٦.

٢ - اللغة : ٣٠٦ .

ومن اللهجات الاجتماعية ما يعرف باللهجات الحرفية ، وهي اللهجات المختصة بأهل الحرف والمهن المختلفة ، وتظهر هذه اللهجات واضحة في المناطق التي يسود فيها (نظام الطوائف)^(١) وهو نظام عرفي اجتماعي يقضي بأن تختص كل طبقة بحرفة بتوارثها الأبناء عن الأجداد وتكون وفقاً عليهم لا يجوز لهم ولا لأعقابهم الاشتغال بغيرها ولا يسمح لغيرهم العمل بها . ونظام الطوائف هذا كان معروفاً في الهند وربما ما يزال سائداً في المجتمعات الهندية .

توزيع اللغات والأطلس اللغوي :-

توزيع اللغات في العالم من المباحث الميدانية لعلم اللغة الجغرافي . ويعد الأطلس اللغوي (linguistics atlas) ثمرة هذا العلم . ويقصد بتوزيع اللغات بيان اللغات المتكلمة في أنحاء العالم وأصناف المتكلمين بها . ويعتمد هذا التوزيع على الدراسة الإحصائية للغات وتوزيعها على المناطق والوحدات السياسية وأعداد المتكلمين بها ، والدراسة الإحصائية للدول من حيث اللغات القومية المستعملة فيها وأعداد المتكلمين بكل لغة.

ونذكر لنا ماريو باي خلاصة للمنهج الذي ينبغي أن يتبع في هذا المجال إذ قال: "... وطبقاً لهذا المنهج نضع قائمة باللغات - شاملة بقدر الإمكان - مع السعي لجعلها متضمنة لكل لغات العالم الرئيسية وغير الرئيسية على الكرة الأرضية . وكل لغة تقرر بتقرير يصف المناطق

^١ - علم اللغة : ١٧٦ .

الجغرافية التي تتكلم بها وتعداد السكان مع بيان نوع اللغة بالنسبة إليهم ،
أهي لغتهم الأم؟ أم لغة استعمارية؟ أم نصف استعمارية؟ أم لغة ثقافة؟ " .
ومن ثمرات توزيع اللغات ما عرف بالأطلس اللغوي ، وهو "
مجموعة من الخرائط واللوحات توضح التوزيع الجغرافي للخصائص
الصوتية أو النحوية أو المعجمية للغة أو لهجة أو لكليهما ، ويجمع مادته
باحثون مدربون تدريباً ميدانياً من رواة مختارين بعناية من بين المتحدثين
باللغة أو اللهجة المدونة من خلال الأحاديث المعتادة أو الاجابة عن أسئلة
أو الاستعانة بأشرطة التسجيل ، ثم تسجل هذه البيانات على خرائط وتنتشر
في كتاب" .

والأطلس اللغوي كالأطلس الجغرافي غير أنه يبين لنا في خرائط
اللهجات المختلفة وما بينها من فروق في الأصوات والمفردات والصيغ
وغيرها من الظواهر اللغوية ، و "تختص كل خريطة بكلمة أو بظاهرة
صوتية أو بظاهرة صوتية معينة يبدو فيها الاتفاق أو الاختلاف بين
المناطق اللغوية المتعددة".

ولا تقتصر فائدة الأطلس اللغوي على القضايا اللهجية حسب وإنما
يستفاد منه أيضاً في الدراسات التاريخية والنفسية والاجتماعية.

المبحث الثامن

اللغة و (العولمة) : قراءة في التوظيف اللغوي

المقدمة :

من شأن الحداثة - كما تحسن لبعض الباحثين التسمية - أن تولد ألفاظاً وتستحدث مصطلحات . وهذا أمر يروق لمن ينظر الى التغيرات الحضارية والثقافية التي تترى مسرعة في المجتمعات المدنية ، وكما أنها تحتاج الى سلع وبضائع ومعلومات واتصالات فهي أحوج الى مواضع لفهم ما يحصل من أفكار وثقافات وقيم حضارية متعددة ومتنوعة ، بعضها واضح مفهوم على مستويات مختلفة من الفهم ، وبعضها الآخر يشوبه الغموض ويفتقر الى دقة الفهم على نسب مختلفة أيضاً إذا أردنا أن نضع متوسطي المعرفة من الناس معياراً لذلك ؛ فالموازن مختلفة وتبدو في كثير من المشاهدات متضاربة ، وقد تؤدي الى صراع بين القيم لتناقص في فهمها واستيعابها .

ومن جملة هذه المصطلحات المستحدثات كلمات من قبيل (العولمة) و(الأقلمة) و (العلمنة) و (الغربية) و (الأمريكية) ... الخ . وما يعيننا منها خاصة مصطلح (العولمة) المأخوذ اشتقاقاً من (العالم) والمنصرف مدلولاً الى عالمية الشيء ، أي جعله على المستوى العالمي من حيث تجاوزه حدود الدول والأقاليم .

ولما كان مفهوم العولمة بين أخذ وردٍّ ولم يتضح على نحو دقيق في فهم الناس فضلاً عن اختلاف المعنيين به من المفكرين والباحثين - كما سيتضح بعد هذه المقدمة - ارتأيت أن أنظر في الموضوع من خلال اللغة، وأعني بذلك العلاقة الوظيفية الثقافية للغة في العولمة التي يراد شيوعها بين الحضارات والمجتمعات في زماننا هذا ، على أن اللغة أداة الفعل الحاسمة في كل ما له علاقة بالأفكار والرؤى والفلسفات إذا أريد لها أن تفهم وتشيع بين الناس وتخرق حدود الأذهان قبل البلدان .

العولمة : مصطلحاً ومفهوماً ومجالات

البحث في (العولمة) على اختلاف مفاهيمها وعناية الدارسين بها بدأ في أواسط القرن العشرين . واهتم بالموضوع في ثنايا مباحثهم علماء الاقتصاد والاجتماع والسياسة والعلاقات الدولية والتأريخ والانثروبولوجيا والاقتصاد السياسي ، والمعنيون بالإعلام والدراسات الحضارية والثقافية . وكان علماء الاقتصاد أسبق من غيرهم في هذا المضمار^(١) ، إلا أن جل هذه الدراسات لم تفرد للعولمة موضوعاً ومعرفة مستقلة .

وفي العقد السابع من القرن العشرين أخذت الدراسات في هذا الموضوع منحىً مستقلاً^(٢) ، وأفردت للعولمة كتب وبحوث مستقلة ، وتهيأت لها مادة البحث المنهجي ، وبدأت تظهر ملامحها الاصطلاحية الى أن شاع مصطلحها منذ العقد التاسع من القرن العشرين الى آواخره ومطلع القرن الحادي والعشرين .

١ - انظر : أرمكي : العولمة وأثرها على الهوية والثقافة الإيرانية : ٢٩ .

٢ - انظر : أرمكي : العولمة ٤٩ .

وأطلق مصطلحان في اللغة الانكليزية على العولمة ، أحدهما :
(Globalisation) أو (Globalization) ، والآخر : (Mondialisation)^(١) .

وأما من حيث المضمون فنجد التفاوت في النظر والرؤية بين المعنيين بالعولمة إذ لا يستقر مفهومها على مضامين متقاربة فضلاً عن مضمون واحد لا يمكن أن نجده في هذا الموضوع أو في غيره من المصطلحات ذات المنحى الفكري والثقافي الجديد أو المستجد ؛ فقد عرّف (هرمييه) وآخرون العولمة - على سبيل المثال - بأنها " مفهوم في العلاقات الدولية يصف حالة العالم المعاصر الذي يتميز في وقت واحد بتعزيز للارتباطات والتضامانات ، وبانفتاح الدول والمجالات الإقليمية ، وبتوحيد في الممارسات والنماذج الاجتماعية على مستوى الكوكب بأسره"^(٢).

وهذا التعريف يجمع العلاقات بين المجتمعات الإقليمية والدولية على أسس الارتباط فيما بينها والتضامن ، وهو معيار إيجابي ليصل الى توحيد المفاهيم الاجتماعية ، ولذلك ذهب هرمييه وزملاؤه الى بيان أهمية العولمة من خلال عدم عزل الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية " عن

١ - هرمييه وآخرون : قاموس علم السياسة والمؤسسات السياسية : ٢٨٥ .

٢ - قاموس علم السياسة : ٢٨٥ .

دورها داخل منظومة عالم تتوسع لتغطي الكرة الأرضية بعكس ما كانت عليه في الماضي " وأقروا بأن طرح العولمة يثير اضطراباً لما سموه (الفئات الكلاسيكية للتحليل الدلالي) ^(١) ، ويعني ذلك التمييز بين ما هو داخلي وخارجي للدول والشعوب ، ومفاهيم كالدولة والقومية والإقليم والسيادة ... الخ ، وهي سمات (الخصوصية والذاتية) التي تزيد من ردة الفعل تجاه آثار العولمة حماية لها .

وعلى خلاف ما ورد سابقاً تتخذ العولمة عند (ريتشارد هيغوت) معنى آخر يكاد يرادف المضمون الشائع لكلمة (الاستعمار) ، ولا يرى هيغوت أنها مرادفة للتدويل وخلافاً للجغرافية الدولية ، وليست من قبيل (العالمية) و (الكونية) ، بل هي مزيج من العلاقات المتداخلة التي تضع النظام العالمي الجديد. قال في تعريفها: " هي إحدى المصطلحات المحددة للوعي الاجتماعي في أواخر القرن العشرين ، وهي ليست مرادفة للتدويل ، وخلاف الجغرافية الدولية ... وليست مثل مذهب العالمية (Globalism) الذي يشير الى طموحات الوصول الى حالة من الأوضاع تصبح فيها القيم شراكة ، أو لا تكون متاحة للبشر كافة في العالم ... على اختلاف بيئاتهم

^١ - انظر : قاموس علم السياسة : ٢٨٦ .

وادوارهم مواطنين مستهلكين أو منتجين يجمعهم اهتمام العمل الجماعي المقصود به حل المشكلات المشتركة . ولا هي مذهب الكونية (Universalism) ، أي القيم التي تخص كل البشرية على سبيل الافتراض أو من منطلق الأمر الواقع ... تعد العولمة مزيجاً متبايناً من الروابط والعلاقات المتداخلة التي تتجاوز الدولة القومية (ومن ضمنها المجتمعات) ، وهو ما يصنع النظام العالمي الجديد . إنها تحدد عملية يمكن أن يترتب عليها أن يكون للاحداث والقرارات والأنشطة في جزء ما من العالم نتائج مهمة بالنسبة الى الأفراد والجماعات في أجزاء أخرى بعيدة من الكرة الأرضية " . ويخلص مما ذكره الى القول إن " العولمة هي ما اعتدنا في العالم الثالث وفي عدة قرون أن نطلق عليه الاستعمار " (١) .

ويرى هيغوت أن للعولمة بعدين ، أحدهما : أنها تمثل " ظهور مجموعة من المتتاليات والعمليات التي لا تعوقها حواجز حدودية أو قضائية، ويعزز هذا بالفعل سيادة الممارسات عبر الحدود في المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية " ، والآخر : " بوصفها خطاباً

١ - العولمة والأقلمة ، اتجاهاً جديداً في السياسات العالمية : ٣.

للمعرفة السياسية بعرض وجهة نظر واحدة للكيفية التي يمكن بها جعل عالم (ما بعد الحداثة) سهل القيادة" (١) .

وفي هذين البعدين المذكورين أنفأ احتواء للعالم على نحو منظم ومبرمج يتجاوز الحدود الجغرافية والاجتماعية والسياسية الى تأسيس لعالم على نمط مشترك موحد .

وعلق على تجاوز الحواجز المادية والفكرية لعالم العولمة بقوله : " نحن نعيش في عالم بلا حدود ، ولكننا نعيش في عالم لم تعد الحدود تمثل فيه حواجز مادية أو فكرية في وجه فيض من التأثيرات العالمية في وجودنا اليومي ، ولهذا - إن لم يكن لشيء آخر سواه - فإن ظهور خطاب العولمة يجعل من مثل هذه الممارسات في التمييز بين الحدود مجرد كلام لا معنى له " (٢) . وبعد أن أقر هيغوت بتعدد الأبعاد السياسية و (الأيدولوجية) والاقتصادية والثقافية في التعريفات بالعولمة وانتفاء تعريف واحد لها لأن

١ - العولمة والأقلمة : ٩ .

٢ - العولمة والأقلمة : ٥ .

معناها (يظل موهماً) اقترح أربعة معانٍ لها يمكن أن ينظر من خلالها الى مفهوم منسجم لها (١) ، وهي :

١- العولمة من حيث كونها حقبة تاريخية تبدأ من بداية الانفراج الى نهاية الحرب الباردة : " إن العولمة جاءت في أعقاب الحرب الباردة من حيث كونها مرحلة تاريخية" .

٢- العولمة من حيث كونها ملتقى للظواهر الاقتصادية .

٣- العولمة وسيلة لهيمنة (القيم الأمريكية) من خلال استيعاب (التقنية) الأمريكية والتمويل والمؤسسات السياسية والاقتصادية في القطاع العام ، وممارسات الأعمال في القطاع الخاص ، وانتشار (الحداثة) و(الديمقراطية الليبرالية) بمعناها الرأسمالي الأمريكي . ونظر بعضهم الى مثل هذه الأمور على أنها (صورة جديدة للامبريالية) .

٤- العولمة من حيث كونها ثورة (تقنية) واجتماعية ستنقل العالم في القرن الحادي والعشرين الى " بدايات حضارة عالمية ، حضارة جديدة مؤتلفة من عدد من الحضارات ستزدهر من خلال القرن المقبل " .

١ - انظر : العولمة والأقلمة : ص ٢٦ وما بعدها الى ص ٣٣ .

وأهم ما في العناصر المذكورة آنفاً عنصران ، هما : التغير (التقني)
الجوهري ، والروح الجديدة للانفتاح .

ويرى هيغوت أن العولمة يمكن أن تتحقق من خلال أربعة سبل -
على أقل تقدير (١) - : تفاعلات من جانبيين ، والمحاكاة ، والاتصالات
من طرف واحد ، والمماثلة المؤسسية (أي النزعة الى اكتساب الشكل
نفسه) .

وعرف (رونالد رابرتسون) العولمة الثقافية - وهي نوع من أنواع
العولمة - بما يمكن أن يعرف بالتلاقي الحضاري أو التكامل الحضاري ،
وهو تعريف إيجابي للعولمة الثقافية ، فقال : " العولمة الثقافية ليست عاملاً
للإدماج الثقافي ، إذ لا تناقض بين العالمية والمحلية ... العولمة هي تلك
الظروف العالمية التي بموجبها تتمكن الثقافات المحلية من التواصل فيما
بينها " (٢) .

وانصرف (أنتوني غيدنز) في تعريفه للعولمة الى المضمون
الاجتماعي المتمثل بالعلاقات الاجتماعية العالمية ، فقال في كتابه المعنون

١ - انظر : العولمة والأقلمة : ٨ .

٢ - آرمكي : العولمة : ٥٢ .

بـ(تداعيات الحادثة) : " يمكن تعريف العولمة بأنها تشديد وتركيز للعلاقات الاجتماعية العالمية. تلك العلاقات التي تربط أمكنة متباعدة بطريقة تتأثر فيها كل حادثة محلية الطابع بحوادث أخرى بعيدة مكانياً . وهذه الظاهرة ذات طابع ديكالكتيكي لأن المؤثرات يمكن أن تنطلق أيضاً على شكل ردات فعل في جهة معاكسة. إن الثقافة المحلية والعلاقات الاجتماعية في قالب الزمان والمكان وتغيراتها هي جزء من عملية العولمة" (١) .

والعولمة في نظر سيمون رايش (Simon Reich) " سلسلة من الظواهر الاقتصادية " ، وهو بذلك يفسرها تفسيراً (عملياً) من خلال المفهوم الاقتصادي وما يتصل بالانتاج ورؤوس الأموال وانتشار (التقنية) والصناعات ... الخ . قال: " العولمة ربما اتسمت عملياً بأنها سلسلة من الظواهر الاقتصادية المتصلة في جوهرها ، وهذه تشمل تحرير الأسواق ورفع القيود عنها ، وخصخصة الأصول ، وتراجع وظائف الدولة (ولاسيما ما يتعلق منها بالرفاهية الاجتماعية) ، وانتشار التقنية ، وتوزيع الإنتاج التصنيعي عبر الحدود (الاستثمار الأجنبي المباشر) ، وتكامل أسواق رأس المال . وتشير العولمة في قالبها الاقتصادي الأضيق الى انتشار

١ - أرمكي : العولمة : ٥٣ .

المبيعات ، ومنشآت الانتاج ، وعمليات التصنيع على مستوى العالم والتي تعيد معاً تشكيل تقسيم العمل عالمياً" (١) .

وربط (ألبرو) بين العولمة والحدثة ، ورأى أن العولمة تطور لاحق للحدثة ، فقال : " العصر العالمي يستهدف بشكل رئيس إحلال العولمة بدلاً من الحدثة ، وهذا الأمر يستدعي تحولات جذرية يكون أساسها عمل المنظمات الاجتماعية والأفراد" (٢) .

وذهب كينيتشي أوهمان (Kenichi Ohman) الى أن العولمة " تمثل تطوراً طبيعياً وثابتاً نحو عالم بلا حدود " ، معلناً عن " قرب زوال نظام الدولة العالمي الحديث كما نعرفه " ، وذكر أن جوهر النزاع حاصل في الجدل بين فريقين ، أحدهما : يرى أن العالم يتجه نحو العولمة ، والآخر : يرى أنه ما يزال باقياً على نمطه الدولي الى حد كبير " (٣) .

ويمكن أن نستنتج من التعريفات المذكورة آنفاً أن للعولمة مفاهيم مختلفة ،وينظر إليها وفيها من اتجاهات متعددة ، أهمها : الاقتصاد

١ - العولمة والأقلمة : ٢٨ .

٢ - آرمكي : العولمة : ٥٥ .

٣ - العولمة والأقلمة : ٤ .

والسياسة والمجتمع والثقافة ، يضاف الى ذلك أن تلك المفاهيم للعولمة قد تكون إيجابية أو بعكس ذلك، وضمن هذين التوجهين نسترسل في بيان الاختلاف في الرؤى مع تأكيد القيم الثقافية وتعزيزها لأنها تعد المدخل الى ما يعرف بالعولمة اللغوية .

يرى بعض القائلين بنظرية العولمة والمؤيدين لها أنها تهتم بالعالم كله ، وتكمن فائدتها في أنها تغير رؤيتنا لما سموه بـ(الوحدات الصغرى) - وهم يعنون بذلك مختلف النظم والتنظيمات داخل الدول والأمم بما في ذلك المؤسسات الاجتماعية والطوائف والأديان والعقائد ... الخ - وتجعلها أكثر شمولاً وأوسع مجالاً إذا تخطت حدود الدولة والإقليم .

ومن الباحثين في العولمة الثقافية من عرفها بأنها " الحضور المتزامن والمتربط لجميع الثقافات لا هيمنة ثقافة ما وإبادة التجارب الثقافية الأخرى " (١) . وهذا التعريف يمثل فهماً تكاملياً للحضارات والثقافات ، ويرى في العولمة طرحاً مفيداً في التكامل بين الحضارات بعيداً عن الصراع والاحتواء والغلبة ، ولذلك ينبغي أن تكون الدراسة بحسب هذا الوصف (من الثقافة الى العولمة لا من العولمة الى الثقافة) .

١ - آرمكي : العولمة : ٣٠ .

والظاهر أن علماء الاجتماع والمعنيين بالدراسات الثقافية يرون في العولمة معنى (أوسع وأعمق وأكثر تعقيداً) من المعاني السياسية والاقتصادية التي تطفو على السطح والتي تعتمد على (المؤشرات الكمية) (١) ؛ فنظرة هؤلاء في هذا الموضوع تشمل العلاقات الاجتماعية والثقافية وثقافات الشعوب المختلفة ، يضاف إليها النتائج الاقتصادية المترتبة على العولمة .

وللباحثين والمفكرين من ذوي النزعة الاشتراكية والماركسية سبيل آخر يختلف الى حد التناقض في تفسيرهم للعولمة ونتائجها وأثرها في الأمم والشعوب، فهؤلاء يرونها على أنها " مشروع للعالم العربي للهيمنة على الشرق " ، ويترتب على ذلك أن " ينظر الشرق الى العولمة بوصفها المعادل للغربنة (= الأخذ بالنمط الغربي) والهجمة الثقافية " (٢) ، ولذلك عدّها الماركسيون الجدد امتداداً للرأسمالية و (اللامعادلة الاجتماعية والثقافية) .

١ - آرمكي : العولمة : ٥٠ .

٢ - آرمكي : العولمة : ٥٤ .

وتتطلق فكرة الماركسيين من المعايير الاقتصادية والصراع الطبقي والثقافي بين الأمم والمجتمعات ، وذهبوا الى أن مآل العولمة ومصيرها ينتهي الى تعميق " الفجوة الطبقيّة على مستوى العالم بين الدول الفقيرة والأخرى الغنية ، وستعمق أيضاً بين الفقراء والأغنياء على المستوى المحلي " .

وذكر (فالرشتاين) في سنة ١٩٩٩م أن بعضهم تناول الموضوع من العولمة الى الثقافة ، أي من الثقافات المتعددة لإيجاد قواسم مشتركة بينها وجعلها جميعاً تحت هيمنة الثقافة الرأسمالية . وكان فالرشتاين من المتحمسين للرأسمالية ، وفي كلامه على النظام الاقتصادي الحديث في العالم الذي (تميزه الرأسمالية) رأى أن جوهر هذه الرأسمالية هي (تجارة السوق والسلع) ، ولذلك جعل من الاقتصاد الرأسمالي العالمي أساساً وجوهراً للحياة الاجتماعية على المستوى العالمي يتجاوز البلدان والأقاليم والقيم الأخرى للشعوب ، و " يحدد ملامح الحياة الاجتماعية في وجوهها السياسية والثقافية " (١) .

١ - أرمكي : العولمة : ٧٣ .

وهؤلاء المتحمسون للرأسمالية العالمية الحديثة ذهبوا الى أبعد من ذلك جعلوا مصطلح العولمة مرادفاً لمصطلحي (الغربية والأمركة) ، أي الأخذ بالسبيلين الغربي والأمريكي ،وبعبارة أخرى الأخذ بالرأسمالية الغربية والأمريكية . والهدف من ذلك كله احتواء العالم والسير فيه تجاه (التوحيد) و " إشاعة الثقافة التجارية الغربية " .

وعلى خلاف المتحمسين للغرب وسبله الاقتصادية والثقافية نرى آراءً أخرى مناهضة للعولمة بهذا المعنى إذ ذهب فريق من هؤلاء الى أنها تمثل تهديداً خطيراً للاقتصاد المحلي والهوية الوطنية وسيادة الدول والحكومات وشرعيتها الأممية . وبلغ فريق آخر الى أبعد من ذلك كله فرأى في العولمة تهديداً " لصميم الوجود الحياتي كما خبرناه " (١) .

ويبني المناهضون آراءهم هذه وغيرها على أن (الاندماج العالمي) لا يتحقق إلا بمحو التراث الوطني والقومي للشعوب ، ولذلك دعوا الى الدفاع عن التراث ومقاومة هذا التوجه الخطير لمنع اندثار التراث والقيم الحضارية والثقافية لشعوب العالم .

١ - العولمة والأقلمة : ١٣ .

ومن المفيد أن نذكر خلاصة للاستبيان الذي أجراه أحد الباحثين (١) العرب مديلاً به مقاله ونتائج التي غلبت عليها الرؤى السلبية للعولمة الثقافية في بيئة عربية . وقد أجري الاستبيان على (عينة عشوائية) من المثقفين العرب . وفيما يأتي أهم نتائجه مذكورة بنسبها المئوية :

- ١- ٦٣% " العولمة تمثل اعتداءً على الثقافة العربية وتهددها بالتشويه والذوبان "
- ٢- ٦٢% " تهدف العولمة الى فرض الأنموذج الثقافي الأمريكي على الثقافة العربية "
- ٣- ٦٢% " تستهدف العولمة الهوية القومية وتسعى الى تفكيكها وطمسها ومن ثم إعادة صياغتها "
- ٤- ٥٤% " إن النسيج اللازم للحياة الاجتماعية سيكون عرضة للتدمير من خلال قدرة العولمة على استهداف الثقافة العربية . "
- ٥- ٥٦,٣% " اللغة العربية ستشهد تراجعاً في الاستخدام والاهتمام في ظل العولمة " .

^١ - هو محمد حسن برغثي ، وعنوان مقاله (الثقافة العربية والعولمة) ، نشر ضمن مجموع (أسس التحديث والتنمية في زمن العولمة) ، انظر : من ص(١٦٦) الى ص (١٧٠) .

- ٦- ٥٦,٧% " الدين الإسلامي في وضع استهداف من جانب العولمة".
- ٧- ٥٢% " العولمة عززت ثقافة (الصورة) في حين تراجع ثقافة (المكتوب) " .
- ٨- ٥٧,٧% " ستهيئ العولمة المناخ اللازم لصراع المجموعات العرقية والدينية والمذهبية في داخل الثقافة القومية " .
- ٩- ٥٩,٣% " إن مؤسسات الأسرة والمدرسة والإعلام - وهي تنتج القيم والرموز والثقافة-ستقع تحت طائلة التأثير السلبي للعولمة".

العولمة الحضارية والثقافية :

- عالم متعدد وحضارات متعددة :

إن سمة التعدد الحضاري في عالم متعدد هي النشأة الطبيعية والواقعية لمجمل الحضارات الإنسانية التي ظهرت عبر الأجيال منذ أولى الحضارات في عصور التاريخ المتعاقبة . وهذا التعدد لا ينفي مبدأ الاحتواء الثقافي سواء عن طريق المغالبة والقهر والتسلط أم عن طريق التأثير المباشر أو غير المباشر .

وتكون الغلبة في الأعم الأغلب للحضارات المتقدمة بفعل عوامل الانجذاب والمنافع الفكرية والمادية ، وليس من يصف أمراً غير ذلك إذا استقرأ تاريخ الحضارات الإنسانية .

وما نلاحظه من سعي حثيث في أواخر القرن الماضي للحضارة الغربية والأمريكية تبعاً لها الى احتواء الحضارات الأخرى هو اجترار للماضي بأسلوب جديد وسبيل مختلف وفلسفة عملية تصنعها آلات المدنية التي بلغت سن الشيخوخة والهرم . والأسئلة التي ينبغي أن تسأل دائماً هي: هل يمكن أن نفصل العالم عن تعدده؟ وكيف لنا أن نفصله؟ وكيف لنا أن ننشئ عالماً أحادي التوجه؟ وهل بإمكان مثل هذا العالم أن يحيا ويستمر في الحياة؟

ولا أظن أحداً أوتي حظاً من المعرفة أن يلتفت الى مثل هذه (المُثل) التي تجاوزت مُثل أفلاطون؛ فالمسألة - إذن - غير ذلك وأسبابها الجوهرية مخفية تحت حجب الخطاب اللفظي الذي يتوخى فيه الخطيب التعمية والتغطية وشيئاً كثيراً من الاستغفال والاستصغار .

وثمة من يرى الثقافة من خلال المعاني والرموز الدالة عليها؛ فقد عرّف (كلفورد كيرتز) الثقافة في دراسته المعنونة بـ(تأويل الثقافة) بأنها "

نمط من المعاني منقول تاريخياً ومتجسد بالرموز . إنها نظام مؤلف من التصورات والفهم المتوارث المعبر عنه في أشكال رمزية تعين الإنسان على التواصل والبقاء وتطوير معارفه ومواقفه حول الحياة " (١) .

وهذه المعاني تكون الرموز وساطتها ، وتشمل - كما ذكر (آن مودلر) :- " المعتقدات والشعائر والأشكال الفنية والاحتفالات ، يضاف إليها المظاهر والممارسات الثقافية العامة مثل اللغة والقصص وطقوس الحياة اليومية " (٢) ؛ فإذا كانت هذه الأمور سمة من أهم سمات الثقافة ، وكانت الثقافة الجوهر الصلب للحضارة فكيف يتأتى لنظام دولي أن يختصر ذلك كله في بوتقة واحدة ويصهره في أتون واحد كيفما يشاء ويحب ويرضى !!؟

-عالم واحد وحضارات متعددة :

إن محاولات الهيمنة السياسية والعسكرية على العالم قديمة قدم التاريخ ؛ فمنذ فجر الإمبراطوريات دأبت الدول الكبرى على ابتلاع الدول الصغرى وفرض هيمنتها السياسية عليها وتغيير نمط الحياة فيها ، بدءاً من مؤسسات الدولة كالنظم الإدارية والاقتصادية والعسكرية وغيرها وانتهاءً الى

١ - مجموعة من الباحثين : مقالات في الثقافة الاستراتيجية : ٧ .

٢ - مقالات في الثقافة الاستراتيجية : ٧ .

نظم الحياة الاجتماعية . هذا إذا كانت نوايا تلك الدول نقل حضارتها الى غيرها ، وأما إذا كانت النوايا الإبادة والفناء فالأمر خلاف ذلك تماماً .

ومقتضى الكلام أن توحيد العالم أو توحيد جزء كبير منه بالقهر والإكراه أمر ملحوظ في تأريخ الحضارات ، ولكن النتائج لم تكن بالحسبان كما أراد الغزاة. ويترتب على هذه النتيجة سؤال يبيّن الجواب عنه مدى فاعلية القوى العظمى في (هضم العالم) ، وهو : هل استطاعت إمبراطورية ما أن تبسط نفوذها السياسي والعسكري على العالم ؟ وهل تستطيع إمبراطورية ما في الحاضر والمستقبل أن تفعل ذلك؟ ولا أظن أحداً له أدنى معرفة بتاريخ الممالك أن يجيب بالإيجاب عما سبق فضلاً عما هو حاصل أو سيحصل .

وإذا افترضنا إمكانية سيطرة إمبراطورية ما على العالم كله كما تسعى إليه في عصرنا هذا الإمبراطورية الإمبريالية الأمريكية ، فهل بإمكان هذه الإمبراطورية الدوام ؟ وهل يجعل دوامها الى ما شاء الله من الزمن أن تحصر العالم كله وتختصره في (زجاجتها) وتحكم غلقها ؟

إن من السمات الواقعية للحضارات عبر تأريخها الطويل أنها متعددة على الرغم من المحاولات التي حصلت بين الحين والآخر الى توحيدها عن

طريق القهر السياسي والعسكري غالباً أو عن طرق أخرى ، غير أن ما ثبت هو مبدأ التعدد ، وذهبت جهود الموحدين سدىً .

والظاهر أن المنادين بالعولمة الثقافية في الفكر المعاصر ولاسيما المعنيين منهم بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الحضارية طرحوا هذه المقولة على أن مسيرها ومصيرها سيؤول الى (اندماج ثقافي عالمي) . وبدا هذا الاتجاه ظاهراً للعيان في التسعينيات من القرن العشرين إذ أشار (رونالد رابرتسون) في كتابه المعنون بـ (النظرية الاجتماعية والثقافة العالمية) الى هذا الطرح الجديد (١) .

وحاول بعض الباحثين في موضوع العولمة الثقافية التقليل من التناقض الحاصل بين الثقافة الوطنية أو المحلية والثقافة العامة العالمية بالترويج لفكرة (التواصل) بين (التوجه المحلي) و (التوجه العالمي) ، وهذا الأمر في حقيقته هو مبدأ التكامل الحضاري . ويرى هؤلاء أن العلاقات الثقافية للشعوب ترتبط بعضها ببعض في عالم يتجه سريعاً نحو العولمة ، وهذه المقالة في مضمونها الجوهرية هي التأليف بين نظرية

١ - انظر : آرمكي : العولمة : ٣٠ .

(التسلط الثقافي) - وهي نتيجة من نتائج الصراع الحضاري - ونظرية
(حوار الحضارات) .

ومن الباحثين المفكرين في هذا الميدان (تاملينسون) الذي عرّف
العولمة من خلال التفاعل بين الثقافة والمجتمع ، فقال : " العولمة شبكة
متسارعة النمو والتوسع من العلاقات والارتباطات والتفاعلات المتبادلة
والمترامية في الوقت نفسه . العولمة هي رمز للحياة الاجتماعية
المعاصرة".

ويرى تاملينسون للاستدلال على مقالته " أن العلاقات المعقدة ،
تراثنا ، تجاربنا ، مصائرنا السياسية والاقتصادية والبيئية تربطنا بعضنا
ببعض في عالم الحداثة المعاصر " . وعالم الحداثة هذا عبّر عنه
تاملينسون بقوله : " العولمة هي جوهر ثقافة الحداثة ، والثقافة هي جوهر
العولمة " (١) .

١ - أرمكي : العولمة : ٨٢.

-عالم واحد وحضارة واحدة :

إذا تعذر عالم واحد وحضارات متعددة - وإن وجدت في التاريخ إرهابات ومساع لتحقيق ذلك - فإن تحقيق عالم واحد ذي حضارة واحدة متعذر الإمكان إن لم يكن أقرب الى حلم أفلاطون في جمهوريته .

والغريب في الأمر أن عصرنا هذا شهد محاولات حثيثة في هذا المجال ؛ فالشيوعية في الاتحاد السوفيتي حاولت ذلك جاهدة ، والإشتراكية القومية في ألمانيا أتخذت مبدأ الحرب والقسر الجماعي الذي لا يخلو من إبادة شعوب سببياً لتحقيق ذلك ، ولو اتخذنا ظواهر الأمور والأسباب المباشرة لاندلاع الحروب والنزاع بين الدول والأمم لوجدنا أن لهذه الظواهر أسباباً خفية حقيقية ربما تتجاوز الأفكار والمبادئ هيأت لذلك . ولعل العوامل الاقتصادية والهيمنة على السوق العالمية والسيطرة على المناطق (الاستراتيجية) أرضية كانت أو بحرية من أهم العوامل غير المنظورة في الحروب التي اندلعت في أوروبا ابتداءً من القرون الثلاثة قبل القرن العشرين ومروراً بالحربين العالميتين الأولى والثانية والحروب المحلية والإقليمية والنزاعات الداخلية ، وانتهاءً الى انهيار الإتحاد السوفيتي في العقد الأخير من القرن العشرين ، وما تلا ذلك من فوضى الحروب الداخلية في المناطق

التي عرفت بـ(مناطق التصدع) بحسب نظرية صراع الحضارات كالشرق الأوسط ووسط آسيا.

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر تنبه ماركس رفيقه إنغلس الى خطر البرجوازية في احتواء العالم على الرغم من أفكارهما التي تنصب أيضاً في هذا الاتجاه وإن غلفت بغلاف (الصراع الطبقي) ، و (حاكمية العمال) ، ومآل الرأسمال الى (اشتراكية الإنتاج والتسويق) ، وسيطرة الدولة على عوامله ، ومن ثم انحلال (الملكيات الخاصة) الى ملكيات عامة للدولة العمالية ... الخ من المقولات المعروفة في الفكر الماركسي .

وقد ذكر الرفيقان في سنة (١٨٤٨م) أنه " عبر التحسين لجميع أدوات الإنتاج ووسائل الاتصالات المسهلة بصورة هائلة تقوم البرجوازية بجر الجميع بمن فيهم الأمم الأكثر بربرية الى حلبة الحضارة ... تقوم - باختصار - بخلق عالم على صورتها هي " (١) .

وفي أواخر القرن العشرين روجت الإمبراطورية الإمبريالية الأمريكية خصوصاً، والغرب التابع لها عموماً مقولة في منتهى الخطورة على العالم بأسره ، وهي مقوله (صراع الحضارات) ، والدعوة الى حضارة عالمية

١ - هوبز باون : ضمن مجموع (العولمة ، الطوفان أم التحدي) : ص ١٠٣ .

على النمط الأمريكي والغربي (Universal Civilization) . و يعد (صموئيل هنتغتون) من أشهر الذين روجوا لهذه النظرية في كتابه المشهور والمعروف بـ(صدام الحضارات) ، إذ اختصر مفهوم (حضارة عالمية) - مستشهداً بمفكر آخر - في قوله : " يناقش بعضهم أن هذا العصر يشهد انبثاق ما يطلق عليه (نيبول) حضارة عالمية . ما الذي يعنيه هذا المصطلح ؟ الفكرة تتضمن عموماً الالتقاء الثقافي للبشرية والقبول المتزايد للقيم والعقائد والاتجاهات والممارسات والمؤسسات المشتركة للشعوب في جميع العالم " (١) .

إن مبدأ العالمية (Universalism) من مواضع الحضارة الغربية، ويمتد أصوله الى القرن التاسع عشر حين تبنى الغرب فكرة (مسؤولية الرجل الأبيض) للهيمنة على المجتمعات الأخرى غير الغربية ، وكانت العوامل السياسية والاقتصادية من أهم المسوغات لهذه الهيمنة . وظهرت مقولة الحضارة العالمية في القرن العشرين وتبناها الغرب أيضاً للسيطرة على شعوب العالم ليكتمل الاحتواء الغربي السياسي والاقتصادي

١ - صدام الحضارات : ١٢٧ .

والاجتماعي والثقافي للعالم ، لأنه أدى الى حاجة المجتمعات تلك الى (تقليد الممارسات الغربية) .

واللافت للنظر في خضم هذا الصراع الفكري أن بعض المثقفين من غير الغربيين المهاجرين الى الغرب تحمسوا أكثر من الغربيين أنفسهم لهذه المقولة ، وكانوا كما يقال (علمانيين أكثر من دعائها) . ولا يخفى أن من أسباب ذلك الشعور بالنقص والضعف وغلبة (عقدة الخواجة) عليهم كما يعبر عنه في مصر؛ فأمثال هؤلاء طفيليون لا قيمة لهم ولا شأن في حضاراتهم ولا في حضارة الغرب إلا بقدر ما للمرتزقة .

ومن البديهة القول إن حضارات الأمم الأخرى وثقافاتهما وقفت ضد مبدأ العالمية لأنها شعرت بمخاطرة عليها ، ولم يلق القبول إلا يسيراً . وقد وقفت منه بعض الحضارات موقفاً صلباً قوياً رافضاً كما يستنتج من أفكار هنتنغتون الذي أقر في كتابه بصعوبة احتواء بعض الحضارات كالحضارة الإسلامية والحضارة الصينية التي سماها الحضارة (الكنفوشيوسية) ، والحضارة الروسية التي أطلق عليها (الحضارة الأرثوذكسية) .

قال هنتنغتون معلقاً على هذا الموضوع : " إن غير الغربيين ينظرون الى الشيء على أنه غير غربي ، وينظر إليه الغربيون على أنه

عالمي . إن ما يحكم عليه الغربيون بأنه تكامل دولي طيّب ، مثل تنامي انتشار وسائل الإعلام العالمية يدينه غير الغربيين على أنه إمبريالية غربية مشينة . والى المدى نفسه الذي يرى فيه الغربيون العالم على أنه واحد يرى الآخرون أنه تهديد " (١) .

والدعوى الى تقليد الغرب بدعوى الحداثة والرقى ليست وليدة القرن العشرين وإنما ظهرت قبل ذلك ، ومضمون هذه الدعوى تجاوز مبدأ التأثير والتأثر في منظومة حوار الحضارات أو تكاملها أو تعايشها الى التبعية المطلقة للغرب . ودعا هؤلاء - وأغلبهم من المنقطعين عن شعوبهم وثقافتهم - الى مقولة مفادها أن على المجتمعات غير الغربية أن تتحول الى النمط الغربي في الحداثة لكي تحقق النجاح ، وقد دعا الى هذه التبعية بعض المثقفين من اليابانيين والصينيين في أواخر القرن التاسع عشر ، ودعوا مجتمعاتهم الى ترك لغاتها التاريخية والأخذ باللغة الانكليزية لغة وطنية لها لإدراكهم أن اللغة مفتاح الحضارة.

وكانت فكرة الأخذ بالنمط الغربي أكثر انتشاراً بين النخب الغربية لأنها صدرت منهم ، وهذا تحصيل حاصل . وتفاوت مقدار الحماسة بين

١ - صدام الحضارات : ١٤٣ .

تلك النخب من حيث الطرح بين متشدد في الخطاب ومتساهل فيه ، ولكن لغة الخطاب رجحت كفة المتشددين . ومضمون ما كانوا يدعون إليه يتلخص في العبارات الآتية : " لإحراز النجاح عليك أن تكون مثلنا ، طريقنا هو الطريق الوحيد ... وأن القيم الدينية والمثل الأخلاقية والبنى الاجتماعية لهذه المجتمعات غير الغربية هي - على أفضل تقدير - شيء غريب ، وفي بعض الأحيان مناقضة للقيم والممارسات في المجتمع الصناعي ، ومن ثم فإن التطور الاقتصادي سيتطلب إعادة بناء جذرية وأساسية للحياة والمجتمع ، وغالباً ما إعادة تفسير لمعنى الوجود ذاته الذي في أذهان الشعوب التي تعيش في هذه الحضارات " (١) .

ووجه أحد الباحثين الغربيين خطابه الى المسلمين حصراً ، فقال : " لتقادي الفوضى ، ليس للمسلمين إلا خيار واحد ، لأن الحداثة تتطلب الأخذ بالنمط الغربي... الإسلام لم يعط بديلاً من الحداثة ... العلمانية لا يمكن تقاؤها . العلم الحديث والتقنية تتطلب استيعاب عمليات الفكر التي تصاحبها ، وكذلك المؤسسات السياسية ، ولأن (المضمون) يجب أن يحاكي ليس أقل من (الشكل) فإنه يجب الاعتراف بتفوق الحضارة الغربية

١ - صدام الحضارات : ١٥٥ .

حتى يكونوا قادرين على التعلم منها . اللغات الغربية والمؤسسات التعليمية الغربية لا يمكن تفاديها وإن كانت الأخيرة تشجع حرية الفكر والحياة السهلة ... عندما يقبل المسلمون على نحو صريح الأنموذج الغربي فعند ذلك فقط يمكن لهم أن يتحولوا الى التقنية وأن يتطوروا " (١) .

أليس هذا الخطاب وأشباهه ونظائره كخطاب الإغريق والرومان لغيرهم من الشعوب ووصفهم إياها بالشعوب البربرية !!؟

واختلفت استجابة الزعماء السياسيين للشعوب غير الغربية ومفكريهم من مواضعة الأخذ بالتمدن الغربي بعد ظهور مصطلحات باللغة الإنكليزية وقريناتها الأوربيات دالة على هذا المنهج ، مثل : (Modernization) ، أي الحداثة أو الأخذ بها في شؤون الحياة المختلفة، و (Westernization) ، أي التمدن أو الأخذ به على النمط الغربي . وكانت مدى الاستجابة تتفاوت على ثلاثة مستويات: رفض الحداثة والتمدن على النمط الغربي ، أو قبول كليهما ، أو قبول الحداثة ورفض التمدن على النمط الغربي .

إن أغلب الحضارات غير الغربية رفضت التبعية للغرب في سبله الحضارية مع الاحتفاظ بمبدأ الحداثة ، ووقف زعماء بعض الدول ولاسيما

١ - صدام الحضارات : ١٥٦ .

الكبيرة منها كالهند والصين موقفاً مناهضاً للعولمة الثقافية وتصدير ثقافة الغرب ومفاهيمه وتفسيره للأحداث وحجب ما يراه العالم الثالث من رؤى للأحداث في بلدانه .

وها هي (أنديرا غاندي) زعيمة الهند تقول في سنة ١٩٧٦: " نحن نريد أن نسمع الأفارقة وهم يتحدثون عن الأحداث الجارية في إفريقيا ، ولا بد من أن تكونوا بالمثل قادرين على سماع تفسير هندي للأحداث الجارية في الهند . من المدهش أننا لا نعرف إلا القليل جداً عن كبار الشعراء والروائيين والمؤرخين والكتّاب المنتمين الى مختلف البلدان الآسيوية والإفريقية والأمريكية اللاتينية ، في حين أننا نعرف أسماء مؤلفين وصحفيين ثانويين كثر من أمريكا وأوروبا " (١) .

العولمة اللغوية نتاج للعولمة الحضارية :

من المسائل التي يتناولها علم اللغة الجغرافي توزيع اللغات واللهجات بحسب التقسيم الجغرافي . وإذا أضفنا الى ذلك مسألة (الأجناس) والأعراق صار البحث في هذه المسائل ينطلق من معايير (إثنوغرافية) .

١ - ماكبرايد ورونتش: النظام الإعلامي الدولي الجديد ، ضمن (العولمة، الطوفان أم التحدي) ، ص:٤٩٥.

وكان السؤال الذي يطرح في هذا المجال هو : هل بالإمكان إعداد خارطة لغوية أو خارطة سكانية للأماكن المختلطة من حيث الأجناس والأعراق ؟ وكان الجواب بالإيجاب ، ولكن إذا أريد من تلك الخرائط تحديد مواقع الاتصال اللغوي بين قوميات شتى على نحو دقيق تعذرت إمكانية فرز خرائط واضحة المعالم، وينطبق ذلك أيضاً على تعدد اللغات والناطقين بها^(١) .

وحاصل ما يستنتج من هذه المسألة أن تشابك اللغات واللهجات في مناطق (الاتصال الإثنوغرافي) يحدد معالم التطابق بين اللغة والثقافة ، وليس بالضرورة أن يحصل التطابق بينهما في كل مكان ، فقد تتشابه ثقافات شعوب صغيرة تتحدث بلغات مختلفة كالشعوب التي تقطن بشمال سيبيريا . ويعود السبب في ذلك الى تشابه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بين تلك الشعوب وليس الى تشابه لغاتها^(٢) ، فالعوامل الاقتصادية والاجتماعية - إذن - لها سمة التقريب بين الشعوب وإن

١ - انظر : هارمان : تاريخ اللغات ومستقبلها : ٥٣ ، ٥٤ .

٢ - انظر : تاريخ اللغات ومستقبلها : ٤٩ ، ٥٠ .

اختلفت لغاتها . وإذا تعذر التطابق بين اللغات والثقافات فكيف يمكن أن نتصور طرحاً يدعو الى عولمة لغوية تشمل العالم ؟

إن الداعين الى مثل هذه العولمة أدركوا جيداً أن العولمة الحضارية الشاملة يجب أن تسبق جمع العالم على لغة اتصال واحدة ، أو عدد محدود من اللغات التي تمثل أرقى الحضارات المعاصرة .

إن مثل هذا الإدراك يشوبه شيء كثير من التضليل لأن المسألة المهمة ليست في كيفية حصول ذلك وإنما في الأسئلة الثلاثة الآتية : ما الجدوى من هذا الطرح ؟ وهل بالإمكان إنجازه ؟ وكيف يكون العالم إذا ما تحقق الإنجاز ؟ فالجواب عن هذه الأسئلة هو الذي يقودنا الى تصور كيفية الإنجاز .

ولا يخفى على المعنيين بتاريخ اللغات أن فرض لغة ما ولو على سبيل القسر وعدها اللغة الأنموذجية التي يجب أن تحتذى قديم قدم التاريخ؛ فمنذ فجر الحضارات الكبرى نشاهد توجهاً واضحاً الى النظرة (العرقية) في فرض لغة ما على شعوب أخرى ، فالإغريق - مثلاً - وصفوا كل من لا يتكلم بلغتهم بـ(البرابرة = Barbaroi) أي المتوحشين ، واستعار الرومان منهم هذه الكلمة وأطلقوها على الغريب (Barbarus) ، وشاع هذا الوصف

أيضاً في بعض اللغات الأوروبية إذ ينقل القاموس الفرنسي (Littre) نصّاً من القرن الرابع عشر فيه : " البرابرة كل من كانت لغتهم غريبة " .

ويرى (كالفى) أن علة الوصف بالبربرية تعود الى المعنى العرقي الذي تضمنته الكلمة . قال : " نرى أنه حتى وإن اتسعت رقعة غير البرابرة اتساعاً تدريجياً يعطي مشروعية للاتينية بعد الإغريقية ، ثم للإسبانية التي تصبح في عداد اللغات المشروعة فإن مفهوم البربرية في أصله مفهوم عرقي لتمييز اللغة الإغريقية " (١) .

وفي خضم ما يعرف بـ(صراع اللغات) ظهرت اتجاهات أخرى داخل اللغات الأوروبية نفسها لتمييزها بعضها من بعض ، وأخذ الحديث عن عالمية لغة ما يتسع في الأوساط الجامعية والعلمية والنخب الثقافية ؛ فمن الملاحظ - على سبيل المثال - ميل الفرنسيين في أواخر القرن الثامن عشر الى الترويج للغتهم ووصفها باللغة العالمية ، أو على أقل تقدير بلغة عموم أوروبا . والظاهر أن هذه المسألة تجاوزت مرحلة الترويج الى مرحلة الأمر الواقع ولو عند النخب ، لأننا نرى غير الفرنسيين ينظرون الى الفرنسية على أنها لغة عالمية لأوروبا؛ فقد اختارت - مثلاً - أكاديمية برلين

١ - كالفى : حرب اللغات والسياسات اللغوية : ١٠٣ .

في السادس من شهر حزيران (يونيو) سنة (١٧٨٢م) الموضوع الآتي
لسباقها العلمي السنوي :

ما الذي جعل اللغة الفرنسية لغة عالمية لأوروبا ؟ وما الذي جعلها
تستحق هذا الامتياز ؟ أيمن الافتراض أن بإمكانها الاحتفاظ بهذه المزية ؟
ولم تأت الأكاديمية بجديد ، فقد روج لذلك قبل هذا التاريخ كثيرون
من مفكري فرنسا ، منهم (مونتسكيو) الذي قال بعد رحلة الى فينا سنة
١٧٢٨م : "إن لغتنا فيها لغة عالمية " ، وورد في معجم الأكاديمية الألمانية
في طبعة سنة ١٧٦٢م أنها (أي الفرنسية) تكون ضرورية للأجانب
كلغتهم الطبيعية . وقال (فولتير) في كتابه (عصر لويس الرابع عشر) :
" إن لغتنا أصبحت لغة أوروبا" (١) .

ومقولة (عالمية اللغة) لها صلة بمبدأ التفوق اللغوي الذي يسري
في العقل الجمعي لقومية تتكلم بلغتها أو المتحدثين بلغة ما سواء اتفقوا في
أصولهم الإثنية أو اختلفوا . وتعود هذه المقالة في تأريخ اليهودية والمسيحية
والإسلام الى مسوغات دينية ، ولكننا نلاحظ أيضاً حواراً في هذا الموضوع
يشدد جدلاً في القرن السادس عشر بين الفرنسيين والألمان ومحاولة كل

١ - حرب اللغات : ١١٣ .

فريق أن ينعت لغته بأنها الأقرب من لغة (ما قبل بابل) "لأن هذا القرب يعطيها بلا ريب تفوقاً على غيرها " . والمراد بلغة ما قبل بابل إشارة الى الأسطورة المشهورة في الأدبيات اليهودية والمسيحية والأدبيات الأوربية الى ما بعد العصور الوسطى، أو حتى الأدبيات العربية والإسلامية . وتتضمن هذه الأسطورة أن اللغة كانت واحدة قبل بابل ولكنها تشعبت الى لغات كثيرة في بابل وأن اللعنة الإلهية أصابت سكانها ، ولذلك نلاحظ أن بعض المولعين بالاشتقاق من اللغويين العرب يذهب الى أن تسمية بابل مشتقة من (ببلبة) الألسنة أي تفرق اللغات وتشعبها .

ونجد الشعور بالتفوق اللغوي عند كثير من الشعوب ولاسيما المتطورة منها حضارياً . ويشيع ذلك في الأوساط العامة فضلاً عن الخاصة والنخب ؛ فهؤلاء ميالون الى السخرية من لغات الآخرين ويرون لغتهم الأفضل والأجمل والأدق ، واختصروا الشعور والإحساس بالعبارة الآتية : " أنت لا تتكلم مثلي إذن أنت تتكلم بصورة مضحكة " (١) .

وكان السعي الى إيجاد لغة عالمية قد أفضى في بعض نتائجه الى مقولة أخرى تكاد تكون أكثر تطرفاً وأقرب الى التمني ، وهي إيجاد لغة

١ - حرب اللغات : ١٠١ .

عالمية مصطنعة حلاً لمشكلة تعدد اللغات . ويقتضي مثل هذا الطرح أن تكون اللغة المزعومة اختيار ألفاظ من لغة واحدة تعد أكثر انتشاراً في العالم تمنع اللبس في إيصال الأفكار وفهمها ، أو خليطاً من لغات شتى تنتقى منها ألفاظ متفاوتة في النسب وتستحدث لها بنى صوتية وصرفية ونحوية .

وتعود هذه الفكرة في تأريخ أوربا الى الثلث الأول من القرن السابع عشر ؛ فقد وردت في كتابات كومينيوس (جان كومينسكي) ، مثل كتابه (الباب المفتوح على اللغات) الذي ألفه بالفرنسية في سنة (١٦٣١ م) . ومن الأمثلة ما ورد في إحدى رسائل ديكارت الجوابية ، إذ سأله ماران ميرسان (Marin Mersenne) في إحدى رسائله إليه عن " مشروع لغة جديدة لا يكون فيها إلا طريقة واحدة في تصريف الأفعال والقواعد وبناء الكلمات " ، فأجابه ديكارت مبتدئاً : " يبدو اقتراح اللغة الجديدة هذا مثار إعجاب في بدايته أكثر مما يبدو عليه ذلك إن أمعنا النظر " . وقال في نهاية رسالته : " وأظن أن هذه اللغة ممكنة " ، ثم استدرك قائلاً : " ولكن لا تأمل أبداً في أن ترى هذه اللغة في حيّز الاستعمال ، فاستعمالها يقتضي

تغيراً كبيراً في نظام الأشياء ، ويتبعه معه ألا يكون العالم إلا جنة على الأرض ، وليس هذا مما يحسن اقتراحه إلا في عالم الروايات " (١) .

وقد بنى ديكارت رده هذا على فهمه العميق للغة ، غير أن فكرة اللغة المصطنعة بدأت بالظهور حينما أخذت وظيفة اللغة اللاتينية بالانحسار ، ويعني ذلك البحث عن بديل للغة كانت شائعة في الأوساط العلمية والدينية والنخب الثقافية، وكتبت بها العلوم والمعارف الأوربية قبل شيوع اللغات المحلية وانتشارها.

ومن الأمثلة أيضاً ما دعا إليه ليبنتز (Leibniz) ، فقد دعا الى " تأسيس نظام رمزي يسمح في الميادين العلمية بالتواصل الذي يستغني عن اللغات الطبيعية" (٢) . وهذه المقولة تعني استحداث (لغة عالمية علمية) ، أي مقتصرة على العلوم والمعارف ولاسيما العقلية والفلسفية منها .

وقد ظهرت في أوروبا منذ سنة (١٨٥٨م) الى سنة (١٩١٤م) خمس وأربعون لغة مصطنعة ، أشهرها لغتان كتب لهما شيء من النجاح والرواج قبل أن تصطدما بواقع الأشياء ونظامها كما عبر عن ذلك ديكارت .

١ - حرب اللغات : ٣٧٦ .

٢ - حرب اللغات : ٣٧٧ .

وهاتان اللغتان هما : فولابوك (Volapük - سنة ١٨٧٩ م) وإسبرنتو (Esperanto - سنة ١٨٨٧م)^(١) .

ومن الملاحظ على هذه اللغات ما يأتي :

- ١- إن أسماءها مشتقة من جذور لغات أوروبا الغربية ، ولاسيما اللغات الرومانية ما يعني " النزعة الأوربية المركزية عند صناع هذه اللغات العالمية " .
 - ٢- ظهور هذه اللغات في مرحلة زمنية بدأت فيها اللغة اللاتينية بالأقول كما أشرنا الى ذلك سابقاً .
 - ٣- ازدياد اللغات المصطنعة كلما اقتربنا من الحرب العالمية الأولى ، و " كأن مشاريع هذه اللغات كانت تحاول تأجيل الكارثة التي بدأت تلوح في الأفق السياسي " .
- وثمة ما يدعو الى عقد صلة بين أفكار للغة (منتقاة) ظهرت في القرن العشرين ومقولة اللغة العالمية . وهذه الأفكار وإن كانت تتدرج ضمن الاستخدام السياسي للغة ، أو بما عرف بـ (علم اللغة السياسي) إلا أنها تنقاد أيضاً الى اصطناع (لغة سياسية) كاللغة العلمية التي دعا إليها

١ - ذكر كالفلي في كتابه (حرب اللغات : ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠) قائمة بأسماء هذه اللغات المصطنعة .

لينتز ، مع فارق جوهرى هو أن اللغة السياسية المقترحة منتقاة من الإنكليزية وليست مصطنعة .

ويعد أروويل (Georges Orwell) أشهر من تبنى هذه الفكرة ، وربما هو أول من تبناها ، وأطلق على لغته المنتقاة (اللغة الجديدة = The New Speech) وتمنى ان تنتشر بين الإنكليز وغيرهم من الناطقين باللغة الإنكليزية . قال أروويل في أحد كتبه سنة ١٩٤٩ : " كانت اللغة الجديدة اللغة الرسمية في أوقيانوسيا (جزر المحيط الهادي واستراليا ونيوزيلندا) والجزر البريطانية والأجزاء الجنوبية من إفريقيا ، وقد ابتدعت لتلبي الحاجات الأيدولوجية للاشتراكية الإنكليزية . ولم يكن الغرض منها توفير وسيلة تعبير عن وجهة النظر العالمية والعادات الفكرية المناسبة للمتحمسين للاشتراكية الإنكليزية فحسب ، بل لجعل أنماط التفكير الأخرى مستحيلة . وقد تم ذلك في جزء منه باختراع كلمات جديدة ، وبحذف الكلمات غير المرغوب فيها بشكل رئيس ، وتجريد الكلمات الباقية من المعاني غير المفيدة والمعاني الثانوية كافة كلما أمكن ذلك" (١) .

١ - جوزيف وآخران: أعلام الفكر اللغوي (التقليد الغربي في القرن العشرين) : ٦١ .

وتمثل أوروبيل للاستدلال على كلامه بكلمة (free) التي تعني حرّاً وخالياً في اللغة الإنكليزية ، فقال : " ولنضرب مثلاً واحداً ، فإن كلمة (Free) التي تعني حرّاً وخالياً ما تزال موجودة في اللغة الجديدة ، ولكنها يمكن أن تستخدم في عبارات مثل : (هذا الكلب خالٍ من القمل) ، أو (هذا الحقل خالٍ من الأدغال) ، ولا يمكن استخدامها بمعناها القديم ، أي بمعنى (حرّاً سياسياً) أو (حرّاً فكرياً) طالما أن الحرية السياسية والفكرية لم تعد موجودة أفكاراً ، وأصبحت بالضرورة خالية من المعنى . ولم تصم اللغة الجديدة لتوسع مدى الفكر بل لتقلص مدها ، وقد ساعد على تحقيق هذا الغرض بشكل غير مباشر تقليل فرصة اختيار المفردات الى الحد الأدنى " (١) .

ولنا أن نستنتج مما تقدم ذكره ما يأتي :

- ١- إن الغرض من لغة أوروبيل الجديدة هو تلبية الحاجات الفكرية للاشترابية الإنكليزية .
- ٢- إن هذه اللغة ليست مبتدعة أو منتقاة من جملة لغات ، بل هي لغة مختارة من اللغة الإنكليزية .

١ - أعلام الفكر اللغوي : ٦١ .

٣- إن الاختيار في هذه اللغة انصب على مستوى المفردات ودلالاتها ولم يتعرض الى البنى الصوتية والصرفية والنحوية .

٤- لم يقتصر الغرض من هذه اللغة على تلبية الحاجات الفكرية للاشتركية الإنكليزية وتوفير وسيلة تعبير عن هذه الأفكار حسب ، بل " لجعل أنماط التفكير الأخرى مستحيلة " .

٥- بين أرويل سبل منع أنماط التفكير الأخرى في ثلاثة أمور :
اختراع كلمات جديدة ، أي معيار التوليد اللغوي ، وحذف الكلمات غير المرغوب فيها ، وتجريد الكلمات الباقية من المعاني غير المفيدة والمعاني الثانوية ، أي ظلال المعاني . ويفهم من المثال الذي استشهد به أنه ينزع الى تجريد الدلالات المعنوية للألفاظ ما استطاع إليه سبيلاً ، وبما يتيح له التعبير المباشر والواضح والمفهوم عن الأشياء بحسب ظنه ، ولذلك قال إن اللغة الجديدة " لم تصمم لتوسع مدى الفكر بل لتقلص ذلك المدى " .

٦- إن مجمل مقولة أرويل في اختيار ما وصفه باللغة الجديدة لا يمكن أن يكون بمعزل عن نظرية اللغة العالمية ، وإن غلب عليه طابع الطرح السياسي .

ويرى أنصار نظرية (صراع الحضارات) أن (الدين) و (اللغة) هما العنصران الأساسيان اللذان يشكلان أي حضارة ، وإذا أريد انبثاق حضارة جديدة ذات صفة عالمية فينبغي نتيجة لذلك أن تنبثق معها (لغة

عالمية) و (ديانة عالمية) . وما يمكن أن يدعم فكرة الحضارة العالمية من حيث الواقع الاجتماعي للشعوب والأمم هو ادعاء لغة عالمية شاملة ، وهذا يعني شيوع لغة عالمية واحدة تستعمل للاتصال على نطاق واسع بين الشعوب في القضايا الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وعبر وسائل الإعلام والاتصال المختلفة . ولا يعني وجود لغة عالمية ازدياد نسبة المتكلمين بها لأن التكلم بلغة ما شيء واستعمالها في القضايا الأساسية والمهمة في العالم شيء آخر .

وأظهرت جداول إحصاء اللغات الكبرى في العالم انخفاض نسبة المتكلمين باللغة الإنكليزية ما بين سنة ١٩٥٨م وسنة ١٩٩٢م ، وهي اللغة المرشحة لأن تكون لغة عالمية ، أو هي اللغة الطاغية على وسائل الاتصال العالمية .

وفيما يأتي جدول باللغات الكبرى في العالم ونسب المتحدثين بكل لغة منها مع الأخذ بنظر الاعتبار العدد الإجمالي للناطقين بلغة ما يربو عددهم على المليون نسمة^(١) .

^١ - انظر : صدام الحضارات : ١٣٤ .

السنة				اللغة
١٩٩٢	١٩٨٠	١٩٧٠	١٩٥٨	
%٣,٥	%٣,٣	%٢,٩	%٢,٧	العربية
%٣,٢	%٣,٢	%٢,٩	%٢,٧	البنغالية (*)
%٧,٦	%٨,٧	%٩,١	%٩,٨	الإنكليزية
%٦,٤	%٥,٣	%٥,٣	%٥,٢	الهندية
%١٥,٢	%١٥,٦	%١٦,٦	%١٥,٦	الماندارينية (**)
%٤,٩	%٦,٠	%٥,٦	%٥,٥	الروسية
%٦,١	%٥,٥	%٥,٢	%٥,٠	الإسبانية

العولمة اللغوية ونظرية صراع الحضارات

إن الصلة بين العولمة اللغوية ونظرية صراع الحضارات صلة سببية، أي إن العولمة اللغوية نتيجة لصراع الحضارات . ولما كان الدين واللغة يمثلان الركنين الأساسيين لكل حضارة وثقافة بحسب القائلين بنظرية

* إحدى اللغات الرئيسية في الهند ، ويتكلم بها أغلب سكان البنغال الشرقية ، وتعد اللغة الشائعة في بنغلادش .

** إحدى اللهجات الصينية الواسعة الانتشار في شمال البلاد ، ويتكلم بها ما يقرب من ٧٠% من سكان الشمال ، وتسمى غالباً في الغرب بـ(Mandarin) .

صراع الحضارات اقتضى ذلك الدعوة الى لغة عالمية ودين عالمي ، ولا يمكن حصول هذا الأمر على المستوى النظري إلا بعد حرب مستعرة بين حضارات الأمم وشعوب العالم بشتى الوسائل كالحروب العسكرية والاقتصادية والإعلامية والثقافية والألكترونية... الخ . ولذلك تبنى أصحاب هذه النظرية فكرة ربط العولمة بالنظام الرأسمالي ، وأنها استمرار لتوسع هذا النظام ليستتجوا من ذلك ربط العولمة نفسها بالصراع الثقافي والحضاري ، والقول بأن العولمة أساسها هذا الصراع . وأشهر من ذهب هذا المذهب ماركس ولينين سلباً وفالرشتاين وهنتغتون إيجاباً .

ولم يلتفت المؤيدون لنظرية الصراع الحضاري الى العوامل السياسية والصراع الفكري بقدر التفاتهم الى الدين عاملاً من أهم عوامل الصراع ، والقوة الكبرى التي تحرك آلية الصراع ، ولذلك لم يكن سقوط الاتحاد السوفيتي وانتصار المعسكر الغربي وانتهاء ما سمي بـ(الحرب الباردة) مبشراً بانتهاء الصراع بين الغرب والشرق . قال هنتغتون : " الدين هو قوة رئيسة ، وربما القوة الرئيسية التي تحرك وتعبئ الشعوب ، إن من الغرور الصرف أن نعتقد فوز الغرب بالعالم كله نتيجة لسقوط الشيوعية السوفيتية ، وأن المسلمين والصينيين والهنود وغيرهم سيهرعون لاحتضان الليبرالية الغربية على أنها الخيار الوحيد . إن انقسام الإنسانية في الحرب الباردة قد

انتهى . وإن الانقسامات الأكثر جوهرية للإنسانية في شكل العرقية و " الأديان والحضارات تبقى وتولد صراعات جديدة " (١) .

وهذا النص يوقفنا لنتأمل القاعدة المشهورة للماركسيين وغيرهم من المناوئين للغرب ، وهي (أن الإمبريالية لا يمكن أن تحيا إلا بوجود عدو لها ، فإن لم تجد عدواً اختلقته) .

ومن الحقائق الثابتة والمدعومة بالشواهد التاريخية العلاقة بين القوة وتوزيع اللغات في العالم . ومفهوم القوة - هنا- الغزو العسكري والاحتواء الثقافي القسري؛ فالتوزيع اللغوي عبر التاريخ يرتبط بتوزيع القوى العالمية ، واللغات التي شاعت وانتشرت هي لغات الإمبراطوريات الكبرى ، وما يحصل من تغير في ميزان القوى ينعكس على استعمال اللغات . وهي قاعدة تكاد تكون مطردة في كل زمان ومكان ، وأوضح مثال في تأريخ أوروبا وأمريكا القوة البريطانية والأمريكية في قرنين من السنين والتي اشتملت على التجارة والصناعة والاقتصاد ونظم الحكم والتعليم العالي في أنحاء العالم .

١ - صدام الحضارات : ١٤٤ .

مظاهر العولمة اللغوية :

للعولمة اللغوية مظاهر متعددة في شؤون مختلفة ، وفيما يأتي

خلاصة لأهم مظاهرها :

١- السياسة :

إن السياسات اللغوية تظهر جلية في الصراع اللغوي عبر تأريخ الحضارات ، ومن نافلة القول أن تنتظر الإمبراطوريات والدول الكبرى ذات القوى العسكرية والاقتصادية الى بسط لغاتها على الدول المغلوبة شريطة أن يكون للدول الغالبة حظ أكبر وأوفى في الرقي الحضاري والثقافي . وهذه قاعدة معروفة في مباحث علم اللغة السياسي على الرغم مما يعترضها من استثناء في بعض الأمثلة والشواهد التاريخية، وإذا ما أضفنا الى العوامل السياسية الدواعي الثقافية والفكرية بدت لنا سبل الاحتواء اللغوي مفهومة مفسرة .

وفي تأريخ أوربا القريب أي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ظهر ما يعرف بالدول القومية ، وحاولت تلك الدول أو بعضها أن تنشئ مجتمعاً متجانساً من حيث اللغة والعرق ، وعملت على نشر لغاتها ولو قسراً بين الشعوب الأخرى التابعة لها . ولم تكن مثل هذه السبل مستجدة

في التاريخ بل سبقتها في ذلك أمم ودول كبرى كالإغريق والرومان في الغرب ، والصينيين والهنود في الشرق على تفاوت في المنحى والأسلوب .

ويرى عدد غير قليل من الباحثين أن مبدأ الدولة القومية المتجانسة عرقياً ولغوياً مبدأً (مثالي) لا يمكن تحقيقه ، غير أن شواهد من التاريخ تدل دلالة لا تقبل المواربة على حصول ذلك مدة من الزمان ، وربما كانت الدولة الأموية مثلاً لذلك في التاريخ الإسلامي ، على أن انتشار العربية في الفتوحات الإسلامية كان بسبب العوامل الدينية في أول الأمر ثم العوامل الثقافية فيما بعد حين ظهرت الحضارة الإسلامية التي جمعت مختلف الشعوب المنضوية تحت السيادة الأموية والعباسية والفاطمية في لغة ثقافية عامة هي اللغة العربية . وشبهه بذلك ما حصل لللاتينية التي أصبحت بعد اعتناق روما للمسيحية اللغة الثقافية والدينية للممالك المسيحية عبر تاريخ أوروبا الى ما بعد القرون الوسطى متمثلة بالكنيسة الكاثوليكية.

وحديث العربية واللاتينية بعد تنصر الرومان أقرب الى الاحتواء الثقافي منه الى الهيمنة السياسية وإن كانت الهيمنة السياسية عاملاً مهماً في ذلك .

وبعيداً عن التجانس العرقي ونتيجة للاحتواء الفكري والسياسي دأبت دول عظمى في تأريخ أوروبا الحديث على نشر لغاتها . وتعد بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا ولاسيما روسيا السوفيتية ، ومن ثم أمريكا التي تصنف ضمن الحضارة الغربية من أشهر الأمثلة والشواهد .

ويعد (هارمان) من الباحثين الذين ذهبوا الى مثالية مبدأ الدولة القومية المتجانسة من حيث العرق واللغة ، وقد بالغ في النفي حينما قال : " ومن خلفية الحقائق حول العلاقة القائمة بين الدولة واللغة في العالم الحديث يتبين أن مبدأ الدولة القومية المتجانسة إثنياً ولغوياً الذي لا يزال العديد من السياسيين يطبلون له ويزمرون ليس سوى سراب وفكرة بعيدة عن الواقع لا غرض لها سوى خدمة التلاعبات السياسية " (١) . وقد أصاب في مبدأ التجانس القومي لأن شرائط تحققه صعبة المنال ، ولكنه أخفق في مبدأ التجانس اللغوي لأنه تحقق في كثير من الأمثلة التاريخية وما يزال سارياً الى عصرنا هذا وإلا كيف لنا أن نفسر سيادة اللغة الإنكليزية على غيرها من اللغات في بريطانيا معقلها وفي أمريكا الشمالية ، وسيادة اللغة الإسبانية في أمريكا الجنوبية مثلاً ، وسيادة اللغة العربية في البلدان العربية على

١ - تأريخ اللغات ومستقبلها : ٦٩ .

اختلاف أجناسها وقومياتها؟ ويستطرد هارمان قائلاً : " وبغض النظر عن أن الأسرة الدولية لا تعرف سوى حالات استثنائية قليلة من التجانس اللغوي تبقى التصورات المثالية حول كيان ذي لغة واحدة موحدة حالة طوبائية لا يمكن الوصول إليها بالنسبة إلى معظم المجموعات اللغوية" .

ويبدو أن هارمان ينكر إمكانية قيام كيان موحد من هذا القبيل بالمعنى المطلق ، أي أن يكون كياناً ليس فيه إلا قومية واحدة ولغة واحدة، فإذا كان هذا هو المقصود فقد أصاب ، وأما إنكار قيام كيان تكون فيه السيادة للغة واحدة من حيث الشيعوع والانتشار بغض النظر عن التجانس القومي أو عدمه فأمر لا يمكن قبوله . وإذا أمكن قبول ذلك فكيف لنا أن نفسر سعي أمريكا والغرب منذ العقود الأخيرة من القرن العشرين إلى بسط نفوذهما اللغوي على العالم والترويج لمبدأ (الاحتواء اللغوي) الذي يتستر بعباءة العولمة ؛ فالعولمة اللغوية سمة من سمات هذا العصر الذي يعرف بـ(عصر الحداثة) و (ما بعد الحداثة) ، وهي محاولة غير مباشرة لاحتواء اللغات والثقافات الأخرى ولكن بدواعٍ غير قومية ، ومعنى ذلك تحول أمريكا والغرب إلى مبدأ الشمولية المستندة إلى اللغة والثقافة والمدنية المعاصرة ، وليس إلى العرق ، أي شمولية ثقافية لغوية حل فيها عامل اللغة محل عاملي الدين والقومية ، وكأن لسان حالهم يقول : (يجب أن تكون

كما نريد لا كما تريد ، لكي نحيا سادة وتحيا عبداً ... هكذا هي سنة التفوق الحضاري) . ومثل هذا المبدأ يتفق في الجوهر ويختلف في المظهر مع مبدأ تفوق العرق عند النازية والفاشية ، والفرق بينهما في الوصف ليس إلا.

٢ - الثقافة :

العامل الثقافي من العوامل المهمة في انتشار اللغات ، ولعله من أهم العوامل إذا فسرنا به ما يعرف بالغزو الثقافي الذي يعد أمضى في كثير من الأحيان من الغزو العسكري ، ولكن هذا العامل لا يكتسب أهميته المؤثرة إلا من خلال التفوق الحضاري ؛ فالأمة الأكثر تفوقاً تحظى بالتأثير الأكبر في الأمم الأخرى الأقل منها رقياً ، وفي التاريخ قديمه وحديثه شواهد كثيرة على ذلك .

ويتسع مدى التأثير الثقافي باتساع وسائله كالتعليم والإعلام ووسائل الاتصال .. الخ ، ولذلك عملت المؤسسات المختلفة في أوروبا وأمريكا على نشر ثقافتها بتوسيع وسائل الإيصال المعرفي . وثمة من يرى^(١) أن اللغة إذا أريد لها أن تكون لغة الاتصال السائدة ينبغي لها ألاّ تحدد "هويتها في

١ - هو (جو شوا فيشمان) أحد علماء اللغة البارزين . انظر : صدام الحضارات : ١٣٦.

شكل عرقي أو ديني أيديولوجي معين " ، ولكن نفي العوامل القومية والدينية والفكرية عن اللغة أمر يجافي حقيقة الغزو اللغوي وصراع اللغات، لأن هذه العوامل الثلاثة هي الأكثر توجيهاً لنشر لغة ما ، وحقائق التأريخ وشواهد تثبت ذلك .

ويصح هذا الكلام في ظاهره على الغزو اللغوي المقنع بالعوامة في الحداثة المعاصرة ؛ فالعوامل الفكرية وربما القومية والدينية تتستر بثوب البراءة منها لإضفاء صفة العالمية عليها ، لأن تجريدها من العوامل المذكورة آنفاً يجعلها أكثر حظوة وقبولاً في المجتمعات التي يراد تصدير هذه البضاعة إليها ، فالمسألة كالبضاعة التي لا بد لها من سوق نافقة . والليبرالية الأوروبية والأمريكية تتعامل مع الشعوب المقهورة وفق هذا المعيار .

٣- المجتمع :

اللغة من حيث الوظيفة ظاهرة اجتماعية كأى ظاهرة أخرى كالأعراف والعادات والتقاليد ... الخ ولما كان الإيصال من أهم وظائف اللغة ظهرت لنا أهميتها الكبرى في العوامة بمفهومها العام الجامع الشامل، ومفهومها المختص باللغة ، ولأشياء يحل محلها إذ إنها تشمل جميع نظم الاتصال المنطوقة والمقروءة والمسموعة والمشاهدة . وهذا يعني اتساع

مدى التعبير الرمزي للغة لأنها تتضوي تحت ما يطلق عليه (علم الرموز العام) ، ولذلك دأبت مراكز البحوث المعنية بالعلومة في أوروبا وأمريكا على توظيف اللغة قدر المستطاع للتوغل في المجتمعات البشرية التي تراها هدفاً مناسباً للتغيير بحسب الأسلوب الأمريكي والأوروبي .

٤-الاقتصاد :

إن عدداً لا بأس به من المنظرين للعلومة يفهمونها فهماً اقتصادياً هدفها الأساسي احتواء الرأسمال والسوق العالمية والتجارة الدولية ونتاج السلع ووسائل الاتصال المتنوعة ، والهيمنة على العالم من خلال صندوق النقد الدولي والمؤسسات الدولية الأخرى ، وتوجيه الاقتصاد بشقيه الانتاجي والاستهلاكي ، واحتكار أساليبه وطرقه ، والتحكم بمصير الشعوب ابتداءً من الطعام والدواء وانتهاءً الى الآلات والأدوات . يضاف الى ذلك كله الانتاج المعرفي ، على أن يكون ذلك كله ضمن التوجيه الأمريكي والأوروبي ووفق المعطيات والأنماط التي يرونها مناسبة .

ولا يمكن أن تكون فكرة العولمة أو العالمية في حقيقتها وجوهرها وأهدافها المعلنة وغير المعلنة سوى ما ذكرناه آنفاً مهما قيل خلاف ذلك أو احتال الغرب بشتى وسائل الحيل والممارسة للتستر على حقيقة العولمة .

وتعد اللغة أفضل وسيلة للترويج الاقتصادي ، فهي تستعمل - مثلاً - في الإعلان عن البضائع ، وتصدير النظم التجارية والمصرفية ، وتكوين المجموعات الاقتصادية الدولية ، والعلاقات الاقتصادية المتبادلة بين الدول... الخ . ونشاهد في أمثلة واضحة خارج نفوذ اللغة الإنكليزية تطور استعمال اللغتين اليابانية والصينية لأسباب اقتصادية ؛ فالقوة الاقتصادية لليابان وسعت تعليم اليابانية لغيرهم ، وكذلك حصل للغة الصينية بعد أن وطدت الصين دعائم اقتصادها المحلي والعالمي ؛ فالصينيون - مثلاً - يعملون على إحلال لغتهم محل الإنكليزية في هونغ كونغ ، ولاتساع النفوذ الاقتصادي الصيني في جنوب شرق آسيا أصبحت الصينية لغة التعامل الاقتصادي للمنظومات الاقتصادية في تلك البقاع^(١) .

٥- الإعلام ووسائل الاتصال وتبادل المعلومات :

لا يخفى ما للإعلام ووسائل الاتصال المختلفة من أهمية في نشر الأفكار والأطروحات والنظريات ، وقد استغلت أمريكا وتبعها لها أوربا هذه الوسائل الى أقصى حد يمكن أن يتصوره الإنسان وبأساليب لا تخلو من كيد ومكر ودهاء؛ فالإعلام هو الذي يضيف صفة التجانس المفتعلة على

^١ - انظر : صدام الحضارات : ١٣٨ .

ما يسمى بـ (الغربة) أو (الأمركة) أو (الإمبريالية الثقافية) ، وهي صفات أطلقها باحثون ومفكرون داخل الغرب وخارجه على العولمة . وصفة التجانس هذه لا تحصل إلا بعد إخضاع الإعلام العالمي الى شركات أمريكية وأوروبية تبتث سمومها في أنحاء الأرض ، وتفرض - كما قال لتشر وبولي (Lecher - Boli) - " صورها القوية وأصواتها النافذة وإعلاناتها المؤثرة في شعوب غير محصنة تستجيب بإذعان لرسائلها المصممة لزيادة أرباح الشركات الرأسمالية " (١) ، فالهدف - إذن - زيادة أرباح الشركات، والمستهدف (شعوب غير محصنة) بعمق حضاري وثقافي واعتداد بالنفس ، وإذا وجد شيء من هذا القبيل أو بعضه كالدين مثلاً فالتشويه والتقبيح والتسفيه سبل مشروعة للإمبريالية الجديدة وبآلية جديدة من داخل تلك الشعوب نفسها .

وقد بلغت هيمنة الإمبراطورية الإمبريالية الأمريكية على وسائل الإعلام المختلفة كالسينما العالمية وصناعة (التلفزيون والفيديو) حداً تجاوزت فيه هيمنتها على صناعة الطائرات كما قال هنتنغتون ، وأضاف مستشهداً ببعض الأمثلة : " إن ثمانية وثمانين شريطاً من كل مائة شريط

^١ - ضمن مجموع (العولمة ، الطوفان أم الإنقاذ) : ٤٩ .

سينمائي لاقت رواجاً وإقبالاً على مشاهدتها في العالم سنة ١٩٩٣م كان من صناعة أمريكية . وتسيطر مؤسستان أمريكيتان ومؤسستان أوريبتان على الأخبار ونشرها في جميع أرجاء العالم " .

والغريب الذي يدعو الى السخرية أن أشد المنظرين لصراع الحضارات يعزو سبب إقبال الناس على هذه الأشرطة الى سببين ، أحدهما: " الاهتمام البشري بالحب والجنس والعنف والغموض والبطولة والثروة " ، والآخر : " قدرة الشركات المدفوعة بالربح ولاسيما الأمريكية منها على استغلال هذه الاهتمامات لمصالحها الخاصة " (١) . وقد تجاهل - وفقاً لمبدأ خلق الذرائع وقلب الحقائق - أن العكس تماماً هو الصحيح ، فلم لا يكون نشر الفساد لإفساد المجتمعات وتهيئة جيل غير محصن لتقبل ما يخطط له الأمريكيون والأوروبيون لشعوب العالم وربما لشعوبهم من تدمير للقيم الاجتماعية والدينية والإنسانية ، وإحلال قيمهم المادية الحسية الصرفة محلها ؟ والشواهد على ذلك كثيرة ، لعل من أبرزها ما نراه اليوم من تطبيق نظرية (الفوضى الخلاقة) في الشرق الأوسط بغطاء ديني منحرف وبتصدير سلع مافونة بأسماء جوفاء لا معنى لها سوى ارتباطها بالعنف

١ - صدام الحضارات : ١٣١ .

والإرهاب وسفك الدماء وحرية الغاب كالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان والتعددية والفرديّة ... الخ . وحقائق هذه الشواهد تدمغ المعترضين على ذلك بحجة (نظرية المؤامرة) التي شيعت لها أمريكا وأوروبا لطمس مؤامراتهما . أليست السياسات الدولية ولأسيما سياسات الدول المهيمنة تعتمد على (برامج) و (مناهج) وأهداف أساسية وسبل مختلفة للوصول الى هذه الأهداف وتحقيقها ؟ وإذا كان ذلك كله ليس (مؤامرة) فكيف لنا أن نفسر مذابح الشعوب في أماكن دخول الأمريكان والأوروبيين أو تدخلهم فيها !!؟

خلاصة لأهم النتائج :

- ١- مهما تعددت التعريفات بالعولمة فإنها تشتمل على عناصر مشتركة ، أهمها (عالمية) الاتجاهات المختلفة للحياة المدنية ، وتوحيد سبلها ضمن القيم الغربية والأمريكية ، على اختلاف في الأهداف بين احتواء للثقافات الأخرى أو تكامل لها لأيجاد (ثقافة عالمية) مشتركة .
- ٢- إن حقيقة العولمة كما شيعت له جملة من المنظرين تتبنى مبدأ (احتواء الثقافات) غير الغربية وإحلال الثقافة الغربية محلها وفقاً لأطروحة التفوق الحضاري .
- ٣- إن النظريات التي شاعت في العقدين الأخيرين من القرن العشرين تصب في مجرى واحد هو مجرى العولمة . ومن جملة تلك النظريات : (صراع الحضارات) ، و (الثقافة العالمية) ، والكلام على (اللغة العالمية) ، و (الدين العالمي) . وسبق ذلك كله مبدأ (صراع اللغات) على أن إرهابات بعض هذه الأطروحات تمتد الى القرن السابع عشر في أوربا .
- ٤- إذا فهمت مقولة (الحداثة) على أنها مبدأ الاحتواء والإلغاء فإنها جناح من أجنحة العولمة ، وإذا فهمت على أنها الأخذ بـ (التقنية الغربية) وليس الأخذ بـ (النمط الغربي) فستؤدي الى التقليل من نفوذ الغرب وقوته ، ولذلك قال برودل : " من السذاجة أن نعتقد أن الحداثة أو (انتصار الحضارة) سيؤدي الى نهاية التعددية في الثقافات التاريخية

المتجسدة في ثقافات حضارات العالم العظيمة " . ويرى هنتنغتون أن " الحداثة تقوي تلك الثقافات وتؤدي الى هبوط القوة النسبية للغرب . وبطرق جوهرية فإن العالم آخذ في أن يصبح أكثر حداثة وأقل نزوعاً نحو الغرب" (١) .

٥- إن العولمة اللغوية بمعنى سيادة لغة على العالم كله هدف من أهداف العولمة بمفهومها العام ، وقد تحققت عبر التاريخ الحضاري للإنسان بعض المحاولات لفرض لغة على شعوب غير متجانسة من حيث العرق والقومية ، وكان نصيب النجاح أقل بكثير من شيوخ لغات بين شعوب متجانسة أو متقاربة من حيث (الإثنية) كالشعوب الأوروبية . والغزو اللغوي الثقافي أثبت ديمومته أكثر من الغزو اللغوي القسري سواء بالسبل العسكرية أو السياسية .

٦- إن تحقيق عولمة لغوية (أحادية اللغة) في العالم يعد من قبيل الأحلام ، وهو أمر يستحيل حصوله ونفاذه بين شعوب العالم ، ولذلك ستخفق العولمة في تحقيق هذا العنصر المهم من عناصر الحضارة وهو اللغة . وأما حصر العالم في (دين عالمي) واحد مصطنع فهو أمر يفوق حتى الأساطير ومخيلات المجانين . وينبغي أن ننق كثيراً بالعبارات الآتية : (بدأت الحضارات متعددة اللغات والأديان وستنتهي كذلك) .

١ - صدام الحضارات : ١٦٤ .

المبحث التاسع

كلمة (عراق)

في أصولها العربية والسامية

المقدمة :

كلمة (عراق) من الكلمات التي تتسم بأبعاد ثلاثة : البعد التاريخي، والبعد الحضاري ، والبعد اللغوي . ووفقاً لهذه الأبعاد الثلاثة تدور الكلمة في فلكها وتستخلص منها النتائج ؛ فالبعد التاريخي يشير إلى القدم الزمني المتصل بالحضارتين السومرية والسامية في بلاد ما بين النهرين ، ابتداءً بالسومريين والأكاديين (البابليين والآشوريين والكلدانيين) والآراميين وانتهاءً إلى العرب قبل الإسلام وبعده .

وأما البعد الحضاري فهو على صلة وثيقة بالتاريخ ، فهذه البلاد التي سميت فيما بعد (بلاد ما بين النهرين) و (بلاد العراق) شهدت ظهور أولى الحضارات في الشرق الأوسط القديم مزامنة لظهور الحضارة المصرية القديمة في شمال إفريقيا أو بعدها بقليل^(١) .

^١ - تعود الحضارة المصرية القديمة إلى " الوقت الأساسي لتقرير التقويم المصري " أي بين سنة ٤٢٤٥ ق.م وسنة ٤٢٤٢ ق.م. أما حضارة بلاد ما بين النهرين فتعود إلى سنة ٤٠٠٠ ق.م . انظر الجدول الزمني الملحق بالمجلد الأول من كتاب تأريخ الحضارات العام ، ص ٦٥٠ .

ويتعلق البعد اللغوي للكلمة بأصولها اللغوية القديمة الممتدة إلى عمق التاريخ الحضاري لبلاد الرافدين . وترتبط هذه الأبعاد الثلاثة مكملتها بعضها بعضاً أو مستعينة الواحدة بالأخرى . ولذلك كان البحث في المدلول يستدعي النظر في مسائل ثلاث الأصول الاشتقاقية العربية ، والأصول السامية وغيرها ، والحدود الجغرافية .

الأصول اللغوية العربية لكلمة (عرق) :

المتتبع لمادة (عرق) في المعجم يجد أنها تتصرف إلى معانٍ مختلفة ، من أهمها ما يأتي^(١) :

١- العَرَقُ : ما جرى من أصول الشعر من ماء الجُد ... " هو في الحيوان أصل وفيما سواه مستعار " . و " عَرِقَ الحائِطُ عَرَقاً : نَدِيَ ، وكذلك الأرض الثرية إذا نتحَ فيها الندى حتى يلتقي هو والثرى . وعَرَقُ الزجاج ما نتح به من الشراب وغيره مما فيها " .

٢- العَرَقُ : النفع والثواب .

٣- العَرَقُ : اللَّبَنُ ، " سمي بذلك لأنه عَرَقٌ يُتَحَلَّبُ في العروق حتى ينتهي إلى الضرع . و"عَرِقَ السَّقَاءُ عَرَقاً : نتح منه اللبن " .

٤- عِرْقُ كل شيء أصله . والجمع : أعراق وعروق . ورجل مُعْرَق في الحسب والكرم . وأعرق الرجلُ : أي صار عريقاً " وهو الذي له عروق في الكرم . يقال ذلك في الكرم واللؤم جميعاً . ورجل عريق : كريم ، وكذلك الفَرَسُ وغيره . وقد أعرق " .

٥- العُروقُ : عروق الشجر . الواحد : عِرْقُ . وأعرق الشجرُ وعَرَّق وتعرَّق: امتدت عروقه في الأرض .

٦- العِرْقُ : الأرض المِلْح التي لا تثبت .

^١ -انظر ابن منظور : لسان العرب (عرق) : ٢٠/١١٠-١٢٠ .

٧- كل ما اتصل بالبحر من مَرَعَى فهو عِرَاق . " وإبل عراقية منسوبة إلى العِرْق على غير قياس " .

٨- والعراق : بقايا الحَمَص (نبت فيه ملوحة ترعاه الإبل) و "إبل عراقية : ترعى بقايا الحَمَص " .

٩- أعرقتُ الكأسَ وعَرقتها إذا أقللت ماءها ... وعَرقت في السَّقاء والدلو وأعرقت : جعلت فيها ماءً قليلاً . والعُرَاقَة : النُّطْقَة من الماء . والجمع : عُرَاق ، وهي العُرَاقَة .

١٠-العُرَاق : المطر الغزير .

١١-العراق :الطبابه ، وهي الجلدة التي تغطي بها عيون الخرز .
وعِرَاق المَزَادَة : الخَرَز المَثْنِي في أسفلها ... وقيل : عِرَاق القُرْبَة الخَرَز الذي في وسطها .

١٢-العِرَاق : شاطئ الماء ، وخص بعضهم به شاطئ البحر .

١٣-العِرَاق : فناء الدار .

ونستنتج مما تقدم ذكره أن معاني هذه المادة تنصرف - حقيقية ومجازاً - في الأعم الأغلب إلى الماء وشبهه وما يتعلق به كالعرق والندى والمزادة وشاطئ الماء ... الخ. ومن المعاني ما يتعلق بالخصب والزرع والشجر والمرعى .

وأما (العراق) اسماً لإقليم معروف فقد اختلفت أقوال اللغويين المتقدمين في اشتقاقه . ونذكر أهم ما قيل في ذلك^(١) :

- ١- سمي بالعراق لأنه على شاطئ دجلة .
- ٢- سمي عراقاً لقربه من البحر ، " وأهل الحجاز يسمون ما كان قريباً من البحر عراقاً " .
- ٣- وقيل سمي عراقاً لأنه استكفّ أرض العرب ، أي امتد إليها كالكفّ التي تمتد إلى الشيء .
- ٤- وقيل سمي به لتواشج عروق الشجر والنخل به ، كأنه أراد عِرْقاً ، ثم جمع على عراق .
- ٥- وقيل سمي بعراق المزادة ، وهي الجلدة التي تجعل على ملتقى طرفي الجلد إذا خرز في أسفلها ، لأن العراق بين الريف والبر .
- ٦- العراق : شاطئ النهر أو البحر على طوله ، وقيل لبلد العراق عراق لأنه على شاطئ دجلة والفرات مدّاً حتى يتصل بالبحر على طوله .
- ٧- سمي بذلك من عراق القرية ، وهو الخرز المثني الذي في أسفلها ، أي أنه أسفل أرض العرب ، أو لأنه سفلى عن نجد ودنا من البحر .

^١ -انظر : الماوردي : الأحكام السلطانية : ١٧٣ ، والجواليقي : المعرب : ٢٧٩ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان : ٩٣/٤ ، والبغدادي : مرصد الاطلاع : ٩٢٦/٢ ، ولسان العرب (عرق) : ١٢/١١٠-١٢٠ ، والفيومي : المصباح المنير : ٤٠٥ ، والفيروز آبادي : القاموس المحيط : ٢٧٢/٣ .

٨- سمي عراقاً لاستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو وأودية تتخفض ،
والعراق في كلام العرب هو الاستواء .

٩- ويقال هو مأخوذ من عروق الشجر ، والعراق : من منابت الشجر ،
فكأنه جمع عِرْق .

١٠- سمي عراقاً لقربه من البحر ، وأهل الحجاز يسمون ما كان قريباً
من البحر عراقاً .

١١- سمي العراق عراقاً لأنه دنا من البحر وفيه سباخ وشجر .

ونستنتج مما تقدم ذكره أن أغلب المعاني تنصرف إلى الماء والشجر
والشواطئ ، وهي بذلك توافق الأغلب من معاني مادة (عرق) المذكورة
آنفاً.

وسميت الكوفة والبصرة بالعراقيين لأنهما موضع نزول الجند
المسلمين ومعسكرهم فيهما بعد تمصيرهما ، ولكل منهما والٍ يختص بها .

ويرى فوستر^(١) أن كلمة عراق من أرومة عربية استعملت بعد الفتح
العربي الاسلامي في القرن السابع الميلادي وأطلقت على جزء من الوادي

١ - نشأة العراق الحديث : ١٣ .

الذي عرف لدى الأقدمين باسم بلاد بابل أو (كَلدِيا) . ويدفع هذا الرأي استعمال الكلمة بمدلولها البلداناني في الصحيح المروي من الشعر الجاهلي.

الأصول اللغوية المعربة لكلمة (عراق)

اختلفت الأقوال في الأصول اللغوية المعربة لكلمة (عراق) قديماً وحديثاً؛ فنجد اللغويين والبلدانيين العرب المتقدمين الذين رجحوا الأصل المعرب للكلمة يميلون إلى أنها من أصل فارسي هو (إيران) أو من عبارة (إيران شهر)^(١)، والمستفاد من هذه العبارة أنها معربة من (إيران) فقط ، على أنهم قالوا إن عبارة (إيران شهر) معناها في الفارسية (كثرة النخل والشجر) أو (موضع الملوك) . وأشار بعضهم إلى بعد اللفظ عن الأصل كما قال ياقوت : " ... وفيه بُعد عن لفظه ، وإن كانت العرب تتغلغل في التعريب بما هو مثل ذلك "^(٢) .

^١ -انظر : معجم البلدان : ٩١٣/٤ ، والنووي : تهذيب الأسماء واللغات : ٥٥/٢ ، واللسان (عرق) : ١١٨/١٢ ، ومراصد الاطلاع : ٩٢٦/٢ ، والقاموس المحيط : ٢٧٢/٣ ، والخفاجي : شفاء الغليل : ١٥٣ .

^٢ -معجم البلدان : ٩٣/٤ .

وأما ما ذكروه من معنى العبارة في الفارسية فلم يثبت ذلك ولم يصح أنها تعني موضع الملوك أو كثرة النخل والشجر ، وما ورد في المعجم الفارسي أن (إيران شهر) كانت الاسم القديم لمدينة نيسابور^(١) .

ولحمزة الأصبهاني رأيان في أصل كلمة (عراق) نقلهما ياقوت ، أحدهما: أنه معرب (إيره) وهو بمعنى الساحل بالفارسية كما زعم " فعربت العرب لفظ إيره بإلحاق القاف فقالوا : إيراق " ، وتغيرت الكلمة إلى (عراق). والآخر : ذكره في كتابه الموازنة بين الفارسية والعربية ، ومفاده أن " العراق تعريب (إيراف) بالفاء ، ومعناه : مغيض الماء وحدود المياه ، وذلك أن دجلة والفرات وتأمرا تتصب من نواحي أرمينية ويُنَد من بنود الروم إلى أرض العراق وبها يقر قرارها فتسقي بقاعها " . ولم تثبت في المعجم الفارسي أيضاً صحة ما زعمه من اللفظين والمعنيين المذكورين آنفاً ، بل الثابت أن كلمة (راه) تعني (الطريق) . وربما كان المقصود عبارة (آب راه) وهي مركبة من (آب) بمعنى الماء ، و (راه) بمعنى الطريق ، فيكون المعنى المركب : مسيل الماء أو منحدره .

^١ -انظر : ابن خلف تبريزي : برهان قاطع ١٣٥ ، و Steingass : Persian English Dictionary . P.١٢٩ .

وذهب العالم الآثاري (هرتسفلد) Herzfeld إلى أن (عراق) معرب من (إيراك) الفارسية (وتعني البلاد أو الأرض السفلى) . ولم يرد في المعجم الفارسي هذا اللفظ ولا هذا المعنى الذي ذكره .

ومن الآراء التي تعود بالكلمة إلى أصول تبدو غير سامية ما ذهب إليه المؤرخ (أومستيد) ؛ فقد ذكر أن " أول استعمال لكلمة عراق قد ورد ذكره في العهد الكشّي (منتصف الألف الثاني ق.م) في وثيقة تاريخية يرجع زمنها إلى حدود القرن الثاني عشر ق.م. وجاء فيها اسم إقليم على هيئة (إيريقا) أو (أريقا) الذي صار على ما يرى الباحث المذكور الأصل العربي لكلمة العراق أو بلاد بابل"^(١) ، ولكن التثبت من أن هذه الكلمة تعود

^١ -مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٢١ ، ومن تراثنا اللغوي القديم : ١٦٦ . والكشّيون أو الكيشيون Kassite " هم أفراد قبيلة توجهت إلى وادي الرافدين من جبال زاكروس الإيرانية في الألف الثاني ق.م . وتظهر الأسماء الكيشية في نصوص في مستهل القرن الثامن عشر ق.م . ويبدو أن الكيشيين كانوا من أصل قوقازي تزعمتهم طبقة أرسقراطية هندية أوروبية وعلمتهم تربية الخيل وركوبها إذ أدخلوها بدورهم إلى وادي الرافدين . وأقام الكيشيون سلالة لهم بعد الحملة الحثية (حوالي سنة ١٥٩٥ ق.م) التي سببت سقوط سلالة بابل الأولى " . دانيال : موسوعة علم الآثار : ٤٨٨ .

إلى أصل كيشي يحتاج إلى دليل ، وبخاصة إذا علمنا أنهم تبنوا لغة وادي الرافدين وحضارته^(١) .

وأطلقت على العراق أو على جزء منه أسماء قديمة ، كان من أشهرها : (ما بين النهرين) . والتسمية تعود إلى العبارة اليونانية القديمة (ميزوبوتامية) Mesopotamia ، فقد ذكر أغلب الباحثين أن هذه العبارة ترجمة لعبارة (آرام نهرايم) الآرامية الأصل الواردة في التوراة بعد ترجمتها من العبرية إلى اليونانية. ولنا في ذلك رأي آخر سنذكره بعد تفصيل الكلام على هذا الموضوع :

وردت عبارة (آرام نهرايم) أي آرام النهرين أو (بَدن آرام) Paddan aram بمعنى سهل آرام في مواضع مختلفة من الكتاب المقدس . وذكر صاحب قاموس الكتاب المقدس^(٢) أنهما أطلقتا على (الجزيرة) ، إذ ورد في سفر التكوين (٢٤ : ١٠) قوله : " ... ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده . فقام وذهب إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحوز " . وجاء في سفر التثنية (٢٣ : ٤) : " ... من

^١ - موسوعة علم الآثار : ٤٨٨ .

^٢ - ص ٣١ .

أنهم لم يلاقوكم بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر ، ولأنهم استأجروا عليك بلعام بن بعور من قنور أرام النهرين لكي يلعنك ...". وفي المزمور الستين من المزامير: "... شهادة مذهبة لداود للتعليم . عند محاربته أرام النهرين .

وورد في سفر القضاة (٣ : ٨) قوله : " ... فحَمِي غضب الربّ على إسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعائم ملك أرام النهرين " .

وذكر صاحب قاموس الكتاب المقدس أن عبارة (أرام نهرايم) شملت في مواضع آخر من الكتاب المقدس الأراضي الخصبة الواقعة بين دجلة والفرات والمسماة (ما بين النهرين) . ومن هذه المواضع ما جاء في أعمال الرسل (٢ : ٩) : " ... فَرْتَيُون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين " .

وأرخ المرحوم طه باقر ظهور المصطلح الجغرافي اليوناني ميزوبوتامية بما بين القرنين الرابع والثاني ق.م . ومن اليونانية شاع استعماله عند الكتاب الغربيين فيما بعد وأطلق على العراق وما يزال يستعمل بعد شيوع استعمال كلمة العراق .

وذهب طه باقر إلى أن الكتاب (الكلاسيكيين) كانوا غالباً ما يطلقون مصطلح ما بين النهرين على " الجزء الشمالي من العراق ... المحصور ما بين دجلة والفرات إلى حدود بغداد تقريباً ، أي أنه كان يرادف تقريباً مصطلح الجزيرة في استعمال البلدانين العرب " (١) .

واستعمل هذا المصطلح المؤرخ (بوليبيوس) Polybius (٢٠٢ - ١٢٠ ق.م) ، وتبعه الجغرافي الشهير (سترابون) (٦٤ ق.م - ١٩ م) وأطلقه على " الجزء المحصور ما بين دجلة والفرات من الشمال إلى حدود بغداد تقريباً" (٢) .

والظاهر أن مصطلح (ما بين النهرين) كان أقدم من هذا التاريخ بكثير لدليلين ، أحدهما : ما رواه المؤرخ أريان (٦٥ م - ١٧٥ م) الذي اشتهر بتاريخه عن الاسكندر إذ ذكر أنه أحدث ولاية باسم ميزوبوتامية ، وعلق طه باقر على هذه الرواية بقوله : " ومع أن أريان متأخر في زمنه

١ - من تراثنا اللغوي القديم : ١٦٧ ، ١٦٨ . وقارن ب(مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة): ٢٤ . وانظر : حسن النجفي : معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم : ٢١ .

٢ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٢٤ .

بزهاء أربعة قرون عن عهد الإسكندر بيد أن مادة كتابه مأخوذة من مصادر معاصرة لعهد الإسكندر أو قريبة منه " (١) .

والآخر : أن دويلة آرامية يعود تأريخها إلى عصر الآشوريين عرفت بـ(أرام نهرايم) أي آرام ما بين النهرين ، ويقصد بهما الفرات والخابور ، وورد ذكرها في المصادر المسمارية باسم (نهاريننا) . وهذا دليل على أن مصطلح آرام نهرايم عرف منذ عصور قديمة سواء أطلق على الجزء الشمالي من السهول الواقعة بين دجلة والفرات أم على ما بين الفرات والخابور . وسميت به دويلة آرامية سقطت واختفت من الوجود في القرن التاسع ق.م عندما قضى الآشوريون على الدويلات الآرامية في تلك المنطقة (٢) .

وأما بخصوص الترجمة التوراتية إلى اليونانية فقد رجح طه باقر أن النهرين المذكورين في التوراة هما نهرا الفرات والخابور ، أو نهرا الخابور والبالخ ، ثم أردف قائلاً : " ومهما كان الحال فإنه عندما ترجمت التوراة إلى اليونانية ترجم المصطلح المذكور آنفاً بكلمة (ميزوبوتامية) اليونانية ،

١ -مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : هامش ص ٢٤ .

٢ -مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٤٣ .

ثم دخل هذا المصطلح إلى اللغات الأوروبية من بعد ترجمة التوراة اليونانية إلى اللغات الأوروبية ، واتسع مدلوله من القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين إلى إطلاقه على العراق كله " (١) .

ويمكن أن نستدرك على هذا الكلام بما يأتي :

١- إن ترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية قد حصلت سنة ٢٥٠ ق.م بناء على طلب بطليموس فلادلفوس (٢٨٠-٢٤٧ ق.م) ملك مصر من خلفاء الإسكندر المقدوني ، وهي ما تعرف بالترجمة السبعينية (٢) .

^١ -مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٢٤ ، ٢٥ . وقارن بـ(من تراثنا اللغوي القديم) هامش ص ١٦٨ .

^٢ -انظر : أحمد سوسة : مفصل العرب واليهود في التاريخ : ٣٤٩ . وسبب تسميتها بالترجمة السبعينية يعود إلى أن بطليموس أوفد إلى الكاهن الأعلى في أورشليم طالباً تزويده بنسخة من التوراة وإرسال من يقوم بترجمتها إلى اليونانية ، فاستجاب الكاهن لطلبه وأرسل إليه نسخة من التوراة بمعية اثنين وسبعين من علماء الدين واللغويين فترجموا له التوراة اليونانية .

وترجمت التوراة إلى اللغة اللاتينية في القرن الأول الميلادي اعتماداً على الترجمة السبعينية المذكورة آنفاً . وترجمت أيضاً إلى اللغة الحبشية في سنة ٣٢٠ م . قال أحمد سوسة : " يرى المؤرخون المحققون أن المقصود هنا بالتوراة هو الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس المنسوبة إلى موسى : التكوين والخروج واللاويين (أو سفر الأحبار بحسب الترجمة الكاثوليكية) والعدد والتثنية " .

٢- لقد ترجح كما تقدم ذكره أن مصطلح (ميزوبوتامية) ظهر في عصر الإسكندر ترجمة لمصطلح (أرام نهرايم) الذي عرف قبل عصر الإسكندر بقرون . ولما كان حكم الإسكندر يمتد من سنة ٣٣٦ ق.م إلى سنة ٣٢٣ ق.م تبين لنا أن مصطلح ميزوبوتامية ظهر قبل ترجمة التوراة إلى اليونانية بأقل من قرن قليلاً .

٣- قال ياقوت : إن العراق كان يعرف " بميان رودان ، معناه بين الأنهر"^(١). وهذا النص يعضد الترجيح المذكور آنفاً ، لأن عبارة (ميان رودان) في الفارسية مركبة من كلمتين هما : (ميان) بمعنى وسط ، و (رودان) بمعنى الأنهر ، وبذلك تكون قريبة من حيث المدلول إلى ما ترجمته (ما بين النهرين) . وهذه العبارة كانت مستعملة في الفارسية البهلوية أي فارسية العهد الساساني كما يستفاد من نص ياقوت ، وربما انتقلت إليها من الفارسية القديمة . ويبقى السؤال عما إذا كان الفرس الأخمينيون هم الذين وضعوا هذه العبارة ، أو انتقلت إليهم عن طريق الآرامية التي استعملوها لغة لهم وكتبوا بها نقوشهم في العصر الأخميني ؟ " .

وظهر استعمال كلمة (عراق) في أواخر العهد الساساني ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وبدأ استعمالها عند الشعراء العرب الجاهليين واقتربت " لدى شعراء البادية بالرخاء والخيرات " ، وربما اقتربت

^١ -معجم البلدان : ٨٦/٣ (طبع دار إحياء التراث العربي . بيروت . د.ت) .

بخلاف ذلك في بعض النصوص المروية عن الشعر الجاهلي . وتطور مدلولها واتسع عند الجغرافيين العرب المسلمين^(١) .

وتشير الدراسات التاريخية والآثرية للعراق القديم إلى عبارات قريبة من حيث المدلول إلى مصطلح (أرام نهرايم) إذ وردت تسمية بابلية أقدم من هذا المصطلح وهي عبارة (مات بيريتيم) Matbiritim أي أرض (الما بين) وأطلقت على الجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين . وورد كذلك مصطلح (بيريت ناريم) Biritnarim ، ومصطلح (نهارينا Naharina الذي أطلق على المملكة المسماة (ميتاني) في رسائل العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م)^(٢) .

ويرى طه باقر أن لفظ (عراق) قد يعود إلى تراث سومري ، وأنه مشتق من كلمة (أوروك) Uruk أو من كلمة (أونوك) Unug وتعنيان المستوطن أي المكان الذي يستوطن فيه . و (أوروك) هو الاسم القديم لمدينة (الوركاء) السومرية ، بيد أنه يستدرك على ما ذهب إليه بقوله : " ... على أن نقطة الضعف في هذا الرأي هي أن هذا المصطلح لم يطلقه

١ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٢٥ ، و (من تراثنا اللغوي القديم) : ١٦٦ .

٢ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : هامش ص ٢٤ .

سكان العراق القدماء على القطر كله بل على مدينة الوركاء وغيرها" (١) . وهذا لا ينهض دليلاً على ضعف القول بأصالة الكلمة ورجوعها إلى التراث اللغوي السومري لأن بعض الألفاظ ومنها أسماء المدن قد يتسع مدلولها عبر التاريخ فتطلق على القطر كله أو على جزء كبير منه .

ولم يتفق علماء الآثار والباحثون في هذا الميدان على أصول أغلب المدن التاريخية في السهل الرسوبي ، ومنها اسما دجلة والفرات وأصول أسماء حرف كثيرة وعودتها إلى السومرية أو الأكديّة . وهناك عدد من الباحثين يشكّون في رجوع كثير من أسماء المدن إلى التراث السومري والأكادي ويرون أنها تعود إلى أقوام مجهولين سكنوا وادي الرافدين قبل السومريين والأكاديين وسموهم اصطلاحاً بـ(الفراتيين الأوائل) Proto-Euphrateans . ومن جملة هؤلاء الباحثين (لاندزبيركر) Landsberger ، وهو أول باحث أشار إلى هذه المسألة وأطلق تسمية الفراتيين الأوائل على هؤلاء القوم المجهولين . وتابعه فيما بعد الباحث (Gelb) وأضاف إلى ما توصل إليه سلفه أدلة تاريخية ولغوية .

١ - من تراثنا اللغوي القديم : ١٦٦ .

ومن أسماء المدن التي يرى الباحثون أنها تعود إلى الفراتيين : (أوروك)
أو (أونوك)^(١) .

وتعد أوروك أو (الوركاء) كما سميت فيما بعد من مراكز المدن
القديمة في وادي الرافدين . وهي تعود إلى ما قبل السومريين والأكاديين كما
ذكر آنفاً . وأصبحت من المراكز الحضارية عند السومريين والأكاديين .
ويعود زمن استيطانها إلى الألف الخامس ق.م . ويرى حسن النجفي أن
شهرة هذه المدينة أخذت تتسع بمرور الزمن " حتى أنها عدت من أهم
المراكز الحضارية التي أثرت ليس فقط في تاريخ وادي الرافدين وإنما في
تاريخ الأمم الأخرى "^(٢) .

ومما يستدل على قدمها وأهميتها أن اسمها قد ورد في النصوص
المسمارية الأكادية . وورد في هذه النصوص أيضاً ما يشير إلى (آلهة
أورك) و (معبد أوروك)^(٣) .

١ - انظر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٩٥ ، ٩٦ .
٢ - معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم : ٢١٥ .
٣ - لآبات : قاموس العلامات المسمارية : ١٥١ ، ١١٥ .

وفي العهد القديم نكر لهذه المدينة إذ وردت فيه كلمة (إرخ) .
وقيل في التعريف بها : " موقع في بلاد بابل (باب أوروك Bab . Uruk)
ويطلق عليه حديثاً اسم الوركاء . وتقع في الضفة اليسرى لنهر الفرات " (١) .
ويمكن لنا أن نستنتج من خلاصة الآراء والأقوال التي ذكرها العلماء
والاثاريون والباحثون فيما يخص كلمة (عراق) وتأصيلها اللغوي
الملاحظات الآتية :

- ١- استبعاد اشتقاق الكلمة من أصل فارسي هو (إيران) أو (إيرا) أو (إيراف) بالفاء كما ذهب إليه بعض اللغويين والبلدانيين العرب ، أو اشتقاقها من كلمة (إيراك) الفارسية الأصل كما ذهب إليه العالم الآثاري هرتسفلد ، أو من كلمة تعود إلى العهد الكشي هي (إيريكا) أو (أريكا) كما ذكر ذلك المؤرخ أومستيد ، لأن أرض العراق كانت موطناً لحضارات أقدم من الحضارة الإيرانية القديمة والوسيط .
- ٢- لا يمكن ترجيح اشتقاق الكلمة من أصل عربي لقدم حضارة وادي الرافدين وامتدادها إلى فجر السلالات الحضارية الأولى .
- ٣- من المرجح أن تكون كلمة (أوروك) أو (أونوك) أصلاً لكلمة (عراق) ، وهاتان الكلمتان قد تعودان إلى ما قبل السومريين والأكاديين ،

١- Hebrew and English Lexicon . P.٧٤ .

أي إلى الأقاليم المجهولة التي استوطنت جزءاً من وادي الرافدين واصطاح الباحثون على تسميتهم بالفراتيين الأوائل . والأدلة التاريخية والحضارية واللغوية تعضد مثل هذا الرأي .

حدود العراق عند الجغرافيين المسلمين :

كانت حدود العراق على المشهور عند الجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين المتقدمين من حديثة الموصل إلى عبادان طولاً ، ومن عُذَيْب القادسية إلى حُلوان عرضاً (١) . والعُدَيْب " منزل الحاج العراقي قريب من الكوفة " (٢) .

وتوسع في حده بعض الجغرافيين واللغويين والفقهاء فأدخل فيه البحرين كما نقل ياقوت (٣) عن ابن عياش . ونقل عن المدائني ما ذهب إليه آخرون إذ قالوا: " حدّه حفر أبي موسى من نجد وما سَقَل عن ذلك يقال له العراق " (٤) ، فأدخلوا فيه جزءاً من نجد . وبالغ بعضهم في حد العراق فجعله يمتد " من هيت إلى الصين والهند والريّ وخراسان وسجستان

١ - مراصد الاطلاع : ٩٢٦/٢ ، والقاموس المحيط : ٢٧٢/٣ .

٢ - تهذيب الأسماء واللغات : ٥٥/٢ .

٣ - معجم البلدان : ٩٤/٤ .

٤ - معجم البلدان : ٩٤/٤ .

وطبرستان إلى الديلم والجبال" (١) . وقال الحميري : " العراق ما بين هيت إلى السند والصين إلى الريّ وخراسان إلى الديلم ... فحدّ أرض العراق ما بين الخزر (أي طبرستان وشواطئ بحر قزوين) إلى السواد ؛ فسواد الكوفة كسكر إلى الزاب إلى عمل حلوان إلى القادسية ، وسواد البصرة الأهواز وفارس ودهستان . وهذه كلها من العراق " (٢) .

والظاهر أن الذين بالغوا في حدود العراق وتوسعوا فيها إنما نظروا إلى الترتيب الإدارية التي كان يعمل بها في عهد بني أمية ، إذ كانت هذه الأرض الممتدة إلى طبرستان وبحر قزوين يليها والي العراق ، ولذلك نقل ياقوت عن المدائني قوله : " ... وإنما قالوا ذلك لأن هذا كله كان في أيام بني أمية يليه والي العراق لا أنه منه " (٣) .

وأما المعنيون من المستشرقين بدراسة تاريخ العراق وجغرافيته فلم يتجاوزوا كثيراً المشهور مما ذكره الجغرافيون العرب والمسلمون عن حدود العراق. ومنهم على سبيل المثال (فوستر) إذ قال : " وكان العراق على

١ - معجم البلدان : ٩٤/٤ .

٢ - الروض المعطار : ٤١٠ .

٣ - معجم البلدان : ٩٤/٤ .

وجه التقريب يؤلف المنطقة التي تصل إلى أسفل (السور المازي)^(١) ،
ذلك السور الذي يمتد من مدينة (أوفيس)^(٢) على نهر دجلة عند مصب
نهر العظيم فيه إلى جوار (الرمادي) على نهر الفرات ... حتى الخليج ،
ومن الصحراء السورية حتى الجبال الإيرانية^(٣) .

وتشترك مع كلمة (العراق) كلمتان من حيث الحدود الجغرافية هما
(السواد) و (الجزيرة) ، فالسواد يكاد يكون مرادفاً للعراق عند الجغرافيين
المسلمين^(٤) مع فارق يسير . قال ياقوت الحموي : "العراق هو السواد الذي
حدده في بابه ، وهو ظاهر الاشتقاق المذكور آنفاً لا معنى له غير ذلك ،

^١ - السور المازي سور بناه نبوخذ نصر ليكون فاصلاً بين مملكته ومملكة المازيين التي
قامت في شمال إيران وامتدت إلى العراق ، ولذلك عرف عند الآثريين بهذا الاسم .
ويبدأ هذا السور من شمالي بلد عند نهر دجلة إلى الصقلاوية قرب الفلوجة ، وهو
مبني من اللبن ومدعم بأبراج نصف دائرية . وقد عثرت مديرية الآثار العامة العراقية
على أجزاء منه . انظر : نشأة العراق الحديث : هامش المترجم ، ص ١٣ .

^٢ - (أوفيس) Opis : مدينة " كانت تقع عند مصب نهر العظيم في دجلة جنوب
سامراء في المنطقة التي تقوم فيها بقايا حصن القادسية " . نشأة العراق الحديث :
هامش المترجم ، ص ١٣ .

^٣ - نشأة العراق الحديث : ١٣ .

^٤ - انظر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٢٥ .

وهو الصحيح عندي" (١). وحدّ السواد عند الفقهاء لا يختلف إلا يسيراً عن حدّ العراق ، وهو عندهم في الاصطلاح "سواد كسرى الذي فتحه المسلمون على عهد عمر بن الخطاب (رض) من أرض العراق" (٢) . وسمي بذلك لكثرة الزرع فيه ، لأن العرب سمت خضرة الزرع سواداً إذا كثرت .

ويختلف حدّ العراق عند الفقهاء والجغرافيين المسلمين كما بيّن ذلك الماوردي وفصله بقوله : " وحدّ السواد طولاً من حديثة الموصل إلى عبادان ، وعرضه من عُدَيْب القادسية إلى حلوان . يكون طوله مائة وستين فرسخاً^(٣) ، وعرضه ثمانين فرسخاً ، فأما العراق فهو في العرض مستوعب لأرض السواد عرفاً ويقصر عن طوله في العرف لأن أوله من شرقي دجلة العلت وفي غربها حربي ، ثم يمتد إلى آخر أعمال البصرة من جزيرة عبادان ، فيكون طوله مائة وخمسة وعشرين فرسخاً يقصر عن السواد

١ - معجم البلدان : ٩٤/٤ .

٢ - الأحكام السلطانية : ١٧٢ .

٣ - يقدر الفَرَسَخ بثلاثة أميال أو ثمانية عشر ألف قدم . انظر : المعجم الوسيط : ٦٨٨ (مجمع اللغة العربية في القاهرة - طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت د.ت .)

بخمسة وثلاثين فرسخاً ، وعرضه مع ما تبعه في العرف ثمانون فرسخاً
كالسواد (١) .

وأما (الجزيرة) فقد أطلقها المؤرخون والجغرافيون المسلمون على
أرض ما بين النهرين العليا ، أي ما يرادف مصطلح (ميزوبوتامية) في
مدلوله اليوناني القديم . والغالب عند هؤلاء أن الجزيرة تبدأ من شمال الخط
المر من الأنبار (الفلوجة) أو هيت على الفرات إلى (سامراء - تكريت)
على دجلة ، غير أن الحد الفاصل بين العراق والجزيرة في استعمالهم لم
يكن ثابتاً بل تغير تبعاً للعصور المختلفة إذ توسع الجغرافيون المتأخرون
ومدّوا حدّ الجزيرة إلى ما فوق الفلوجة فشمل مدناً أخرى على الفرات إلى
مدينة عانة (٢) .

١ - الأحكام السلطانية : ١٧٣ ، وقارن بمعجم البلدان (طبع دار إحياء التراث العربي)
: ٨٥/٣ .

٢ - انظر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٢٥ ، ٣٨ .

المبحث العاشر

مصطلحات جغرافية مختارة

في مقدمة ابن خلدون

في مقدمة ابن خلدون ألفاظ ومصطلحات جغرافية كثيرة كان الأغلب منها مختصاً بالبلدان والمدن والأمصار والأنهار والخلجان ؛ وهي تمثل في الجغرافية الحديثة مباحث مما يعرف بالجغرافية السياسية والجغرافية الطبيعية . وما ذكره ابن خلدون يعد خلاصة لما ذكره البلدانيون العرب والمسلمون أمثال المسعودي وابن خرداذبة والشريف الإدريسي وابن حوقل وابن بطوطة وابن جبير وابن فضلان وياقوت الحموي الرومي .

ونذكر في مقدمته بعض هذه المصادر وأفاد منها في تسمية كثير من أسماء البلدان والبحار والبحيرات والخلجان والأنهار والجبال والسهول والهضاب والحرات . وكان عمله خلاصة لما اشتغل به السابقون من الجغرافيين والبلدانيين والرحالة .

وارتأيت أن اختار طائفة من المصطلحات المختصة بعلم الجغرافية وطائفة أخرى من الألفاظ المتعلقة بالمحيطات والبحار الكبرى المعروفة لإظهار أهمية هذا المبحث في كتابه الذي جعله مقدمة لتأريخه الكبير .

وفيما يأتي بيان لهذه الألفاظ والمصطلحات ومدلولاتها القديمة مقارناً إياها بما يصطلح عليه في الجغرافية الحديثة :

وردت في المقدمة كلمة (الجغرافيا) للدلالة على علم الجغرافية .
قال ابن خلدون : " ... كما تراه في مصور الجغرافيا " (١) . والجغرافية عند
الجغرافيين المسلمين تعني صورة الأرض ، وتعرف في العلوم القديمة بأنها
" علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة
الأرض وعروض البلدان الواقعة فيها وأطوالها ، وكذا عدد مدننا وجبالها
وبراريها وبحارها وأنهارها الى غير ذلك من أحوال الربع المعمور " (٢) .

وعلم الجغرافية بهذا المدلول والمفهوم ينصرف الى ما يعرف حديثاً
بالجغرافية السياسية والطبيعية . وأما كلمة (جغرافيا) بحسب تلفظها القديم
فتعود الى أصل يوناني (Yeoghrafiya) (٣) .

ومن الألفاظ المتعلقة بالخرائط الجغرافية عبارة (مصور الجغرافيا)
وتعني الخريطة الجغرافية . قال ابن خلدون : " ... كما تراه في مصور
الجغرافيا " (٤) .

١ - مقدمة ابن خلدون : ٤٤ .

٢ - طاش كبري زاده : مفتاح السعادة : ٣٥٧/١ .

٣ - رفائيل نخلة اليسوعي : غرائب اللغة العربية : ٢٥٧ .

٤ - المقدمة : ٤٤ .

وورد مصطلح (خط الاستواء) في قوله : " ... ينتهي من جهة الجنوب الى خط الاستواء " (١) ، وفي قوله : " وخط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب الى المشرق، وهو طول الأرض وأكبر خط في كرتها".

وخط الاستواء عند الجغرافيين المسلمين " هو الخط الذي يقابل معدل نصف النهار ، وهو حيث يرى القطبان الجنوبي والشمالي ملاصقين للأرض ، والليل والنهار مستويان فيه أبداً " (٢) .

ومعدل النهار في مصطلحهم يعني " ... الدائرة العظمى التي تحيط على قطبي السماء اللذين عليهما يتحرك من المشرق الى المغرب دورة كاملة في كل يوم وليلة ، سمي معدل النهار لأن الشمس إذا بلغت اعتدل النهار " (٣) .

وكل من خط الاستواء ومعدل نصف النهار افتراض وهمي لتقسيم خطوط الطول ودوائر العرض . وحركة الشمس الظاهرية وتعاقب الليل والنهار .

١ - المقدمة : ٧٦ .

٢ - الخوارزمي : مفاتيح العلوم : ١٢٥ .

٣ - مفاتيح العلوم : ١٥ .

وورد ذكر القطبين الشمالي والجنوبي في قوله : " ... ثم إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأرض وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساوٍ..."(١) .

وأشار الى دوائر العرض بعبارة (عرض البلد) ، أي وقوعه على دائرة من دوائر العرض الوهمية . قال : " ... وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد"(٢) .

وعرض البلد : " هو بعده من خط الاستواء " ، وطوله : " هو بعده من المشرق أو المغرب " . وخطوط الطول في مصطلح الجغرافية الحديثة خطوط وهمية، و " هي أنصاف دوائر تربط القطبين بعضهما ببعض ، وعددها (٣٦٠) خطاً، تبدأ بالخط الأساسي ودرجته (صفر) ويعرف بخط (غرينتش) . وتتعلق هذه الخطوط من هذا الخط شرقاً وغرباً حتى تقف عند خط (١٨٠) خط الطول الأول " .

وأما دوائر العرض في مصطلح الجغرافية الحديثة - وهي دوائر وهمية أيضاً - فيقصد بها " دوائر كاملة ومتوازية حول الأرض ، وعددها (١٨٠) دائرة أو خط عرض تتقاطع مع خطوط الطول ... تبدأ بخط

١ - المقدمة : ٨٢ .

٢ - المقدمة : ٨٢ .

الاستواء ، ودرجته (صفر) ومنه تتطلق الخطوط بمعدل (٩٠) خطأ باتجاه الشمال وتدعى (العروض) أو (دوائر العرض الشمالية) ، و (٩٠) خطأ باتجاه الجنوب وتدعى (دوائر العرض الجنوبية). والدرجة (٩٠) منها هي نقطة القطب " (١) .

ودلت كلمة (درجة) على معناها الجغرافي ، وهي المسافة المقدرّة على الخريطة وتبلغ خمسة وعشرين فرسخاً كما ورد في قول ابن خلدون : " ... والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً ، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال " (٢) .

ومن المصطلحات الجغرافية النادرة كلمة (الكُنْبَاص) ، وقد ذكرها ابن خلدون ووصفها قائلاً : " والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفي عُدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ماهي عليه في الوجود ، وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ؛ ومهابّ الرياح وممراتها على

١ - فوزي يونان : أطلس العالم والوطن العربي : ١٣ .

٢ - المقدمة : ٧٦ .

اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة، ويسمونها (الكنباص) وعليها يعتمدون في أسفارهم " (١) .

والظاهر أن الكلمة معربة من أصل أسباني (Compas) ، ومعناها في الأصل : (البركار) (٢) على ما ذكر رفائيل نخلة (٣) ، غير أن وصف ابن خلدون المذكور آنفاً لا يطابق هذا المعنى . والأرجح أن كلمة (الكنباص) هي ما يصطلح عليه حديثاً بـ(البوصلة البحرية) وتكون أقرب الى الأسطرلاب الفلكي من حيث الهيئة، بيد أنها تستعمل للبحار . ومن المصادر الجغرافية التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته واعتمد على بعضها ما يأتي :

١- كتاب الجغرافيا لبطليموس . قال : " ... ثم إن المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وما فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والأنهار والقفار والرمال ، مثل بطليموس في كتاب الجغرافيا " (٤) .

١ - المقدمة : ٨٥ .

٢ - البرجل أو البركار أو الفرجار : " آلة مركبة من ساقين متصلتين تثبت إحداهما وتدور حولها الأخرى ، ترسم بها الدوائر والأقواس " . المعجم الوسيط : ٤٦ .

٣ - غرائب اللغة العربية : ٢٨٤ .

٤ - المقدمة : ٧٧ .

٢-كتاب الجغرافيا لأبي عبد الله بن خرداذبة . قال : " ... وقد ذكر عبد الله بن خرداذبة في كتاب الجغرافيا ... " (١) .

٣-كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) : ألفه الشريف الإدريسي وأهداه الى ملك صقلية روجر الثاني . وكان ملكاً لصقلية من سنة (١١١٠م) الى سنة (١١٥٤م) . ذكر ابن خلدون أن الإدريسي ألف الكتاب للملك " عندما كان نازلاً عليه بصقلية . وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة ، "و جمع له كتباً جمة للمسعودي وابن خرداذبة والحوقلّي والقُدريّ وابن اسحاق المنجم وبطليموس وغيرهم" (٢).

وورد ذكر الأقاليم السبعة في مواضع من المقدمة (٣) . والإقليم عند الجغرافيين المسلمين يطلق على مساحة شاسعة من الأرض تضم أمصاراً ومدناً كثيرة، وهو أقرب الى مفهوم (القارة) في المصطلح الحديث .

وقسم البلدان يون العرب والمسلمون المعمور من الأرض في نظرهم على سبعة أقاليم تبعاً لبطليموس الجغرافي اليوناني المعروف . قال

١ - المقدمة : ١٠٩ .

٢ - المقدمة : ٨٤ .

٣ - انظر على سبيل المثال : ٧٦ ، ٧٧ .

الخوارزمي : " المعمورة من الأرض سبعة أقسام تسمى الأقاليم . واحدها إقليم . وكل إقليم يبتدىء من المشرق وينتهي الى المغرب " (١) .

وقال ابن خلدون : " اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال الى الجنوب ، يسمون كل قسم منها إقليماً ، فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم . كل واحد منها آخذ من الغرب الى الشرق على طوله " (٢) .

وقسموا كل إقليم من السبعة على سبعة أجزاء متساوية من الغرب الى الشرق . قال ابن خلدون : " والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة في طوله من المغرب الى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ، ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والأمصار والجبال والأنهار والبحار في كل جزء منها " (٣) .

وأشار المسعودي من قبل الى هذا فقال مبيناً اختلاف المعنيين بهذا الشأن بين الشمال والجنوب من الأرض : " كل ما كان من الأرض معموراً

١ - مفاتيح العلوم : ١٢٧ .

٢ - المقدمة : ٨٣ .

٣ - المقدمة : ٨٤ .

فهو مقسوم بسبعة أقسام يسمى كل قسم منها إقليماً . وقد تنازع من عني من حكماء الأمم وفلاسفتهم بعلم الهندسة ومساحة الأرض في هذه الأقاليم أ السبعة في الشمال والجنوب أم في الشمال دون الجنوب ؟ فذهب الأكثرون الى أن ذلك في الشمال دون الجنوب لكثرة العمارة في الشمال وقلتها في الجنوب . ورأى قوم أن القدماء إنما قصدوا لقسمة الأقاليم السبعة في الجانب الشمالي من خط معدل النهار (شمال خط الاستواء) ولم يقسموا في الجنوبي شيئاً لقلّة قدر العمارة في الجنوب عن الخط^(١) وكلمة (إقليم) تعود الى أصل يوناني : Klima (٢) .

ومن الألفاظ المختصة بالمدن والأمصاّر التي وردت في ثنايا المقدمة كلمة (القَطْر) بمعنى الناحية والجانب^(٣) . واستعملها ابن خلدون أيضاً بمعنى المدينة والمصر . قال : " وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي... " . وقوله : " ... وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار " ^(٤) .

١ - التّبيّه والإشراف : ٢٩ .

٢ - انظر : غرائب اللغة العربية : ٢٥٣ .

٣ - انظر : الرازي : مختار الصحاح : ٣٣٤ ، والفيومي : المصباح المنير : ٥٠٨ .

٤ - المقدمة : ٦٤ .

ووردت كلمة (مدينة) ، وهي : المصر الجامع ، وتجمع على مدن ومدائن^(١) . واستعملها ابن خلدون بمعنى موطن أهل الحضرة ، وهي أكبر من القرية وأصغر من الإقليم . قال : " ... وما يعرض في العمارة من دولة وملة ، ومدينة وحلة " ^(٢) . ومثلها كلمة (كُورَة) . قال ابن خلدون : " واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم " ^(٣) .

والكُورَة تعني المدينة والصقع ، والجمع : كُور (٤) . وهي كما قيل من أصل يوناني (Khora) ، ومعناها في الأصل : ناحية من بلد (٥) .

ووردت كلمة (حِلَّة) بمعنى قرية . قال ابن خلدون : " ... وما يعرض في العمران من دولة وملة ومدينة وحلة " ^(٦) . وأصل معناها :

١ - المصباح المنير : ٥٦٦ .

٢ - المقدمة : ٣٩ .

٣ - المقدمة : ٣٤٤ .

٤ - مختار الصحاح : ٣٥٧ ، والمصباح المنير : ٥٤٣ .

٥ - انظر : غرائب اللغة العربية : ٢٦٨ .

٦ - المقدمة : ٣٩ .

القوم النازلون ، وتطلق على " البيوت مجازاً تسمية المحلّ باسم الحال ، وهي مائة بيت فما فوقها . والجمع: حِلال بالكسر وحِلل أيضاً " (١) .

وذكر عبارة (الأرض الحرّة) في قوله : "... وفيها الأرض الحرّة التي لا تتبت زرعاً ولا عُشباً بالجملة " (٢) .

والحرّة : " أرض ذات حجارة سود . الجمع : حرار " (٣) . وتكثر الحرار في بلاد العرب ولاسيما حول المدينة ، وهي بقايا مقذوفات بركانية ، والفرق بينها وبين (اللابة) أن الحرّة ما كانت مستديرة من حيث الموقع ، واللابة ما كانت مستطيلة . قال البغدادي : " الحرار في بلاد العرب كثيرة . والحرّة : كل أرض ذات حجارة سود نخرة كأنما أحرقت بالنار ، قد ألبستها . وقيل : إذا كانت كذلك وهي مستديرة فهي حرّة ، وما كان مستطيلاً ليس بواسع فهو لابة ... وأكثر الحرار حول المدينة ، وتسمى مضافة الى أماكنها (٤) .

١ - المصباح المنير : ١٢٩ .

٢ - المقدمة : ١١٨ .

٣ - المصباح المنير : ١٢٩ .

٤ - مراصد اللاطلاع : ١ / ٣٩٤ .

ومن الألفاظ المختصة بقياس المسافات ورد في المقدمة ذكر
(الإصبع) و(الذراع) و(الميل) و(الفرسخ) :

١-الإصْبَع : قال ابن خلدون : ((والإصبع ست حبات شعير مصفوفة
مُلصق بعضها الى بعض ظهراً لبطن))^(١). وهذا التعريف مطابق لما
ورد في بعض مصادر اللغة . قال الفيومي : ((... والإصبع ست
شُعيرات بطن كل واحدة الى الأخرى))^(٢) .

٢- الذَّرَاع : قال ابن خلدون : " ... والذراع أربعة وعشرون إصبعا " ^(٣).
وذراع القياس خلاف ذراع اليد ، وتسمى (ذراع العامة) وهي ست
قبضات معتدلات. سميت بذلك لأنها نقصت عن ذراع الملك بقبضة .
والمقصود بالملك أحد الأكاسرة. ويزعم أن ذراعه كانت سبع قبضات^(٤).

٣-المِيل: قال ابن خلدون : " ... لأن الميل أربعة آلاف ذراع " ^(٥) . الميل
في لغة العرب لا يحده مقدار من المسافة وإنما يتسع لمدى البصر .

١ - المقدمة : ٧٦ .

٢ - المصباح المنير : ٥٨٨ .

٣ - المقدمة : ٧٦ .

٤ - انظر : المغرب : ١٧٤ ، والمصباح المنير : ٢٠٨ .

٥ - المقدمة : ٧٦ .

وأما عند أهل الصنعة من علماء الفلك (علم الهيئة) فهو مسافة محددة ، وقد اختلفوا فيه بين ثلاثة آلاف ذراع وأربعة آلاف ذراع .
وفصل الفيومي القول في ذلك كما يأتي: " الميل - بالكسر - عند العرب مقدار مدى البصر من الأرض ... وعند القدماء من أهل الهيئة ثلاثة آلاف ذراع ، وعند المحدثين أربعة آلاف ذراع . والخلاف لفظي لأنهم اتفقوا على أن مقداره ست وتسعون ألف إصبع، والإصبع ست شُعيرات بطن كل واحدة الى الأخرى ، ولكن القدماء يقولون : الذراع اثنتان وثلاثون إصبعاً ، والمحدثون يقولون : أربع وعشرون إصبعاً ، فإذا قسم الميل على رأي القدماء كل ذراع اثنين وثلاثين كان المتحصل ثلاثة آلاف ذراع ، وإن قسم على رأي المحدثين أربعاً وعشرين كان المتحصل أربعة آلاف ذراع ... وإذا قدر الميل بالغلوات (١) وكانت كل غلوة أربعمائة ذراع كان ثلاثين غلوة ، وإن كان كل غلوة مائتي ذراع كان ستين غلوة..."(٢).

١ - الغلوات : جمع غلوة وهي " الغاية ومقدار رَمِيَّة " . مختار الصحاح : ٢٩٩ .

٢ - المصباح المنير : ٥٨٨ .

٤- الفَرَسَخ : قال ابن خلدون : " والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال" (١). وهو مقدار من المسافة تقدر باثني عشر ألف ذراع أو ثلاثة أميال بالميل الهاشمي ، وقدّر بخمس وعشرين غلوة (٢) . والكلمة معربة من أصل فارسي هو فرسنگ (Farsang) أو برسنگ (Parsang) (٣) .

وذكر ابن خلدون في مواضع متفرقة من مقدمته أسماء أشهر المحيطات والبحار والخلجان بحسب مصور الجغرافية القديمة وبأسمائها القديمة كالبحر المحيط والبحر الشامي وبحر القلزم وبحر الهند وبحر فارس... الخ . وذكر للبحر المحيط وغيره أسماء مختلفة بما اصطلح عليه عند البلدانين والجغرافيين المسلمين . وفيما يأتي تفصيل لذلك :

١- البحر المحيط : المحيط مصطلح جغرافي قديم وحديث ، والمحيطات بحسب مفهومها في الجغرافية الحديثة هي " المسطحات المائية الواسعة التي تتفصل عن بعضها بوساطة قارات اليابسة " (٤) . ومفهوم الفصل

١ - المقدمة : ٧٦ .

٢ - انظر : المغرب : ٤٣٨ ، والمصباح المنير : ٤٦٨ .

٣ - انظر : الجواليقي : المعرب : ٢٩٨ ، وأدي شير : معجم الألفاظ الفارسية المعربة : ١١٨ ، وعميد : فرهنك عميد : ٧٦٠ .

٤ - مهدي محمد علي : جغرافية البحار والمحيطات : ٤٧ .

بين المحيطات باليابسة أو بالبحار الخارجية كان مائلاً في أذهان الجغرافيين المسلمين غير أنهم لم يطلقوا كلمة (محيط) إلا على المسطح المائي الشاسع الذي يحيط بالأرض من جوانبها . وهو ما اصطلح على تسميته حديثاً بـ (المحيط العالمي) ويشتمل على أربعة مسطحات مائية كبيرة هي المحيط الهادي والمحيط الأطلسي والمحيط الهندي والمحيط المتجمد الشمالي . وتتحدد هذه المحيطات بعضها عن بعض " بسواحل القارات الواضحة أو البحار الخارجية" (١).

ويعود تقسيم المحيط العالمي الى الجغرافي الهولندي (فارنيوس) ؛ فقد اقترح في سنة (١٦٥٠م) تقسيمه على خمسة محيطات ، وهي : المحيط الهادي والمحيط الهندي والمحيط الأطلسي والمحيط المتجمد الشمالي والمحيط المتجمد الجنوبي (٢) .

وفي سنة (١٨٤٥م) ذهب الجمعية الجغرافية اللندنية الى رأي آخر في تقسيم المحيطات إذ اقترحت الاقتصار على المحيطات الثلاثة الأولى ، وهي : الهادي والهندي والأطلسي .

١ - جغرافية البحار والمحيطات : ٥٦ .

٢ - جغرافية البحار والمحيطات : ٤٧ .

واستقر التقسيم والتسمية في سنة (١٩٣٠م) على أربعة محيطات ، وهي : الهادي والأطلسي والهندي والمتجمد الشمالي (١) . وأخذ بذلك أغلب الجغرافيين المحدثين .

وفيما يأتي حدود المحيطات الثلاثة الأولى التي أشار إليها المسلمون (٢) :

أ- المحيط الهادي : تحده من الشرق قارتا أمريكا الشمالية والجنوبية ، ومن الجنوب القارة القطبية الجنوبية ، ومن الغرب قارتا آسيا وأستراليا . ويجاور المحيط الهادي حدود المحيط المتجمد الشمالي من الشمال وتفصله عنه المضائق العميقة .

ب- المحيط الأطلسي : يقع بين قارتي أوروبا وإفريقيا شرقاً ، وقارتي أمريكا الشمالية والجنوبية غرباً ، والقارة القطبية الجنوبية جنوباً . ويقع المحيط الهندي على جهته الجنوبية الشرقية ، ويحده المحيط الهادي من جهته الجنوبية الغربية ، ويحده من الشمال المحيط المتجمد الشمالي .

ج- المحيط الهندي : يقع بين " قارتي إفريقيا وآسيا وأستراليا والقارة القطبية الجنوبية ، ويتصل من جهته الشمالية الشرقية بالمحيط

١ - جغرافية البحار والمحيطات : ٤٨ .

٢ - انظر : جغرافية البحار والمحيطات : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

الهادي ، وبالمحيط الأطلسي من الجهة الغربية . ولا يتصل هذا المحيط بالمحيط المتجمد الشمالي إذ تحيط به اليابسة من الشمال". وتبلغ المساحة المائية للمحيط العالمي (٣٦١,١) مليون كم^٢ . وأكبر المحيطات مساحة المحيط الهادي ، ثم يليه المحيط الأطلسي ، ثم المحيط الهندي ، ثم المحيط المتجمد الشمالي . ومساحة هذه المحيطات الأربعة كما يأتي (١) :

١-الهادي : (١٧٩,٧) مليون كم^٢ .

٢-الأطلسي : (٩٣,٤) مليون كم^٢ .

٣-الهندي : (٧٤,٩) مليون كم^٢ .

٤-المتجمد الشمالي : (١٣,١) مليون كم^٢ .

واستفاد العرب والمسلمون قديماً من الملاحة البحرية في التجارة . واقتصرت الملاحة عندهم على بحرين منفصلين هما البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي لأن برزخ السويس كان حائلاً دون اتصال هذين البحرين ، ومن أراد الوصول الى الهند عن طريق البحر الأبيض أو شرق

١ - انظر : الجدول في جغرافية البحار والمحيطات : ٥٠ .

آسيا اضطر الى حمل بضاعته براً في الصحراء الى البحر الأحمر وينقلها بعد ذلك بواسطة السفن (١) .

وورد ذكر (البحر المحيط) وبعض أسمائه في المقدمة (٢) ، كقوله : " ... بحراً يسمى البحر المحيط " ، وقوله : " ... ويقال له (أي للبحر المحيط) البحر الأخضر والأسود " ، وقوله : " ويسمى أيضاً لنبالة بتفخيم اللام الثانية " ، وقوله : " ... ويسمى أوقيانوس " .

وذكر له الحميري (٣) من الأسماء : البحر المحيط وأقيانوس والبحر الأخضر والبحر الأعظم وبحر أقيانس وبحر الظلمات وبحر الظلمة والبحر الكبير والبحر المحيط الغربي والبحر المظلم الغربي والبحر المظلم المحيط ونبالية ونبالة.

ويعود اختلاف هذه الأسماء للبحر المحيط الى اختلاف أجزائه وارتباطها بالخلجان والمضائق والمداخل والمخارج والبلدان والأمصار .

١ - انظر : آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : ٤٢٦ .

٢ - انظر : ص ٧٦ .

٣ - الروض المعطار : ٣٢ ، ٥٢ ، ٦١ ، ١٠٤ ، ١٦٦ ، ٢٧٥ ، ٢٩٤ ، ٣٣٤ ، ٣٤٧ ، ٣٦٠ ، ٣٨٠ ، ٤٣٩ ، ٥٠٩ ، ٥٥٩ ، ٦٠٢ ، ٦٢١ .

وتدل بعض الألفاظ على أوصاف له من حيث الاتساع وما يكتنفه من الضباب كبحر الظلمات ، وبعضها الآخر يتخذ من الألوان صفات له كالبحر الأخضر والبحر الأسود .

وقال البغدادي في صفته مبيناً بعض المضائق والخلجان والمداخل:
"البحر المحيط : بحر محيط بالأرض من كل جوانبها يتصل به البحران الشرقي والغربي وهما له كالخليجين . ويسمى عند فوهة البحر الغربي عند بطليموس : أوقيانوس. وسماه قوم البحر الأخضر . ويسمى المدخل الى البحر الغربي منه : الزقاق ، بين البر الأعظم من بلاد البربر وبين جزيرة الأندلس " (١) . ويقصد بالزقاق ما يسطح عليه في الجغرافية الحديثة ب(مضيق جبل طارق) .

وتسميته بـ(لَبْلَابَة) هي تسمية لأهل البحر والمسافرين فيه كما ذكر الحميري . ويسمى أيضاً ببحر المغرب " وهو البحر الغربي المسمى بحر الظلمات، وهو البحر الذي لا يعلم أحد ما خلفه " (٢) .

١ - مرصد الاطلاع : ١/١٦٦ .

٢ - الروض المعطار : ٥٠٩ .

ويسمى أيضاً : أوقيانوس . وضبطها البغدادي بالفتح ثم السكون وقاف مكسورة وياء وألف ونون وواو وسين . وقد يحور اللفظ الى (أقيانس) أو (قيانوس)^(١) . والتسمية بـ(أوقيانوس) هي الواردة في جغرافية بطليموس كما أشار الى ذلك البغدادي .

وتطلق هذه التسمية على الجزء الغربي من البحر و "هو اسم البحر المحيط من جهة الغرب الذي يخرج من الخليج المتصل بالروم والشام"^(٢) .

وكلمة (أوقيانوس) Okéanos يونانية ، وهي اسم لإله البحر عند اليونانيين القدماء ، وتعني المحيط ^(٣) . وتعود التسمية الى الميثولوجيا الإغريقية وأساطير الآلهة ، إذ ذهبت الأسطورة الى أن (زيوس) Zeus كبير آلهة الأولمب كان له أخ يدعى أوقيانوس أي المحيط ، " وهو ذلك النهر العظيم الذي يحتضن العالم ويدور حول أطرافه التي تشرق منها الشمس والنجوم ثم تعود فتغرب فيها ، وهو الذي يحتوي أسراراً وغوامض في أعماقه ينبثق منها الآلهة والبشر . وكان الإغريق يصورونه أحياناً في

١ - الروض المعطار : ٥٠٩ .

٢ - مرصد الاطلاع : ١٣٣/١ .

٣ - انظر : غرائب اللغة العربية : ٢٥٤ .

هيئة شيخ مسنّ قوي البنيان رحيم ذي لحية كثة وشعر طويل تحيط به مخلوقات البحر ، وأحياناً بقرون تعلو رأسه... " (١) .

ويرجح أن مفهوم (البحر المحيط) عند البلدانين والجغرافيين المسلمين ينصرف الى المحيط الأطلسي وأجزاء من المحيط الهادي ، ولا يقتصر على الأطلسي حسب كما يتوهم . ويستنتج ذلك من وصف بعض الجغرافيين لهذا المحيط كوصف البغدادي إياه بأنه " بحر محيط بالأرض من كل جوانبها " . ومما ورد في مصور جغرافية العالم للشريف الإدريسي ذكر لأرض (يأجوج ومأجوج) (٢) .

إذ يستفاد من هذا المصور أن أرض يأجوج ومأجوج تقع في أقصى الشمال الشرقي للصين عند الجزر اليابانية وكوريا الشمالية . ومن المعلوم أن بحر اليابان متفرع من المحيط الهادي . وأشار ابن خلدون الى ما يمكن أن يفهم منه أن البحر المحيط وأسماءه العامة المختلفة قد أطلق على المحيطين الأطلسي والهادي . قال : " وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم (الإقليم الخامس) أرض يأجوج ومأجوج متصلة فيه كله إلا قطعة من

١ - ثروت عكاشة : المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية : ٣٣٢ .

٢ - انظر : الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي : ٧ .

البحر المحيط غمرت طرفاً في شرقيه من جنوبه الى شماله ، وإلا القطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل (قُوقيا) حين مرّ فيه ، وما سوى ذلك فأرض يأجوج ومأجوج " (١) .

٢- بحر (نيطش) : قال ابن خلدون : " ثم يخرج من قُوهه عرضها ستة أميال ، فيمد بحر نيطش ، وهو بحر ينحرف من هناك " (٢) .

ذكر الجغرافيون المسلمون لهذا البحر ألفاظاً متقاربة ، فهو (نيطش) و (نيطس) و (بُنطُس) و (نطاش) . وتدل كلها على ما يعرف في الجغرافية الحديثة بالبحر الأسود الواقع في شمالي تركيا الى شرقيها . وسماه المسعودي (بُنطُس) إذ قال : " والبحر الرابع وهو بحر بنطس هو بحر البُرغَر (البلغار) والروس وغيرهم من الأمم . يمتد من الشمال من ناحية المدينة التي تدعى (لاذقة) وذلك وراء القسطنطينية . طوله ألف ميل وثلاثمائة ميل في عرض ثلاثمائة ميل " (٣) . ووردت تسميته في مصور الجغرافيا للشريف الإدريسي بـ (بحر نطاش) (٤) ، وهو عند الحميري (نيطس)

١ - المقدمة : ١٠٦ .

٢ - المقدمة : ٧٨ .

٣ - التنبيه والإشراف : ٥٨ .

٤ - الأطلسي التاريخي للعالم الإسلامي : ٧ .

ونقل ما ذكره المسعودي . قال : " بحر نيطس متصل من جهة جنوبه ببلاد اللازقة الى أن يتصل بالقسطنطينية . وطوله ألف ميل وثلاثمائة ميل . وعرضه ثلاثمائة ميل . وأعرض موضع فيه يكون أربعمائة . وبحر نيطس هو بحر أمم الترك والبرغر والروس وغيرهم " (١) . وضبطه البغدادي (٢) هكذا أيضاً بالباء الموحدة ثم النون الساكنة وضم الطاء والسين المهملة .

والظاهر أن ألفاظ (نيطش) و (نيطس) و (نطاش) تحوير لكلمة (بُنطُس)، وهي كلمة معربة من اليونانية (Pontus) وكانت تطلق على مملكة بنطس القديمة الواقعة في الشمال الشرقي من آسيا الصغرى (٣) .

٣- البحر الشامي أو البحر الرومي : ورد ذكرهما في المقدمة (٤) ، والمشهور عند الجغرافيين المسلمين من حيث التسمية (بحر الروم) ، وله تسميات تبعاً للمدن والأمصار الواقعة حواليه والأمم والشعوب الساكنة بقربه . قال المسعودي : " والبحر الثاني وهو الرومي ، هو بحر

١ - الروض المعطار : ٥٨٥ . وانظر : ٢٢١ ، ٣٤٠ ، ٣٨٤ .

٢ - مرصد الاطلاع : ١٦٥/١ .

٣ - غرائب اللغة العربية : ٢٥٥ .

٤ - انظر : ٤٤ ، ٧٨ .

الروم والشام والمغرب والأندلس والإفرنجة والصقالبة ورومية وغيرهم من الأمم " (١) .

وذكر له الحميري من الأسماء : بحر الشام والبحر الشامي والبحر الرومي وبحر الروم وبحر الزقاق والبحر الزقاقي (٢) ، وأطلق الاسمان الأخيران عليه لاتصاله بالمحيط الأطلسي عن طريق ما يعرف بـ(مضيق جبل طارق) ، فهو كالزقاق إليه . قال الحميري : " بحر الزقاق هو الداخل من البحر المحيط الذي عليه سبّطة الذي يضيق من المشرق الى المغرب حتى يكون عرضه ثلاثة أميال ، وهو بساحل الأندلس الغربي بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من أرض المغرب وبين الأندلس ، ثم يتسع الزقاق كلما امتد حتى يصير الى ما ذرع له ولا نهاية ، وهو مخرج بحر الروم المتصاعد الى الشام " (٣) .

١ - التتبيه والإشراف : ٥٠ .

٢ - انظر على سبيل المثال الروض المعطار : ٣٢ ، ٣٤ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ١٢٧ ، ١٧٣ ، ٢٥٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣١٤ ، ٤٥٥ .

٣ - الروض المعطار : ٢٩٤ .

٤-بحر البنادقة : قال ابن خلدون : " والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سَمْت الشمال" (١). ويسمى هذا البحر في الجغرافية الحديثة بـ(البحر الأدرياتيكي) أو (البحر الأدرياتي) ، وهو المحاذي لشرق إيطاليا من الشمال الى الجنوب ، ومنه يتصل بالبحر الأبيض المتوسط .

٥-بحر الهند : قال ابن خلدون : " ... فبحر الهند من الجنوب " (٢) ، وذكر من أسمائه تبعاً لما يحاذيه من البلدان : البحر الصيني والهندي والحبشي (٣). وذكر الحميري من أسمائه : بحر هرkend وبحر الهند والبحر الهندي (٤) . ووصفه البغدادي بقوله : " ... هو قطعة كبيرة من البحر الشرقي ، فيها جزائر كبيرة وعلى سواحلها مدن كثيرة تتصل ببلاد

١ - المقدمة : ٧٨ .

٢ - المقدمة : ٤٤ .

٣ - انظر : المقدمة : ٧٨ .

٤ - انظر : الروض المعطار : ٨٨ ، ٩٣ ، ١١٧ ، ١٧٨ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٤٠ ، ٤٦٥ ، ٤٩٦ ، ٥٥٨ ، ٥٩٦ .

الصين " (١). وأطلق عليه (بحر الزنج) أيضاً إذ قال : " بحر الزنج : وهو بحر الهند ، والزنج في جنوبه ، والهند في شماليه " (٢) .

وبحر الهند وأسمائه الأخرى المذكورة آنفاً هو ما يسمى في الجغرافية الحديثة بالمحيط الهندي .

٦- بحر القلزم : قال ابن خلدون : " ... ويسمى بحر القلزم وبحر السويس" (٣) . وسمي بحر السويس نسبة الى مدينة السويس ، وذكر ابن خلدون ذلك قائلاً : "و بحر السويس الهابط منه الى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب" (٤).

ووصف البغدادي (بحر القلزم) قائلاً : " شعبة من بحر الهند ، أوله من بلاد البربر والسودان والحبش من جهة الجنوب ، ومن جهة الشمال

١ - مرصد الاطلاع : ١٦٦/١ .

٢ - مرصد الاطلاع : ١٦٥/١ .

٣ - المقدمة : ٧٨ .

٤ - المقدمة : ٤٤ .

عَدَنُ وبلاد العرب حتى يقطع آخره عند القلزم ، وهي مدينة صغيرة على أرض مصر " (١) .

والظاهر أن القلزم كان بلداً قديماً أصابه الخراب وبنيت في موضعه مدينة السويس (٢) . وبحر القلزم هو الاسم القديم لما يعرف حديثاً بالبحر الأحمر .

٧-بحر فارس : قال ابن خلدون : " وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من المشرق" (٣) . وسماه في موضع آخر : (الخليج الأخضر) . قال : "والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي، ويسمى الخليج الأخضر" (٤) . وأطلق عليه الحميري : (بحر فارس) و (البحر الفارسي) (٥) .

١ - مراصد الاطلاع : ١/١٦٦ .

٢ - انظر : المعجم الوسيط : ٧٦٠ .

٣ - المقدمة : ٤٤ .

٤ - المقدمة : ٧٩ .

٥ - انظر : الروض المعطار : ٩ ، ٤ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ ، ٢٤٩ ، ٣٣٣ ، ٣٤٠ ، ٣٧٠ ، ٤٩١ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ .

والخليج في مصطلح الجغرافيين المسلمين يطلق على " كل نهر صغير يخرج من النهر الأعظم أو البحر " (١) . والخليج من البحر يطلق في العربية على " شَرْم (شَقّ) منه ، وهو أيضاً النهر . وقيل : جانباه خليجاه " (٢) .

واتسع مدلول (البحر الفارسي) عند بعض البحريين المسلمين ليشمل ما يعرف حديثاً بخليج عدن وبحر العرب وخليج عمان عند مدخل مضيق هرمز . وكانت عدن عند هؤلاء مبدأ البحر الفارسي الذي يحيط ببلاد العرب " حتى يصل الى خليج فارس وينتهي على مقربة من المكان الذي تبتدئ عنده بلوجستان ، أما ما بعد ذلك فكانوا يعدونه من المحيط الهندي " (٣) .

وبحر فارس أو خليج فارس يطلق على ما يصطلح عليه في الجغرافية الحديث بـ(الخليج الفارسي) أو (الخليج العربي) . ووصفه البغدادي وبيّن حدوده قائلاً : " شعبة من بحر الهند الأعظم ، وحدّه من البر

١ - المشترك وضعاً والمفترق صقلاً : ١٥٩ .

٢ - مختار الصحاح : ١٢٣ .

٣ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : ٤٣٦ .

من نواحي مُكْران الى عبادان، وهو فوهة دجلة التي تصب فيه . أول سواحل من جهة البصرة الى بليدة تسمى المحورة (لعلها المحمّرة) في طرف جزيرة عبادان . تتفرق دجلة عنده فرقتين تأخذ إحداها ذات اليمين فتصب في هذا البحر عند سواحل أرض البحرين . وفيه تسافر المراكب الى البحرين وبرّ المغرب . وتمتد سواحله نحو الجنوب الى قَطْر وِعْمَان والشَّحْر . وتأخذ الفرقة الأخرى ذات الشمال وتصب في البحر من جهة فارس . وتصير عبادان - لانصباب هاتين الشعبتين في البحر - جزيرة بينهما" (١) .

وزعم الأب رفائيل نخلة اليسوعي (٢) أن كلمة (خليج) معربة من الفارسية . ولم تثبت صحة هذا الزعم ؛ فالكلمة عربية النجاد كما يبدو ، ولذلك بين عميد في معجمه معناها قائلاً : " خليج - عربية - : لسان من البحر يمتد في اليابسة . في الفارسية : شَاخَابَة وشَاخَايَه وشَاخَاوَه" (٣) .

١ - مرصد الاطلاع : ١/١٦٦ .

٢ - غرائب اللغة العربية : ٢٢٦ .

٣ - فرهنك عميد : ٤٤١ .

٨-بحر الخَزَر : قال ابن خلدون : " ... وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بَلَجَر يجوزها هناك قطعة من جبل سياه كوه المنعطف مع بحر الخزر " (١). وسماه في موضع آخر بحر (جرجان) و (طبرستان) (٢) . وأطلق عليه المسعودي : البحر الخزري و بحر الخزر والباب والأبواب وأرمينية وأذربيجان وموقان والجبل والديلم وآبسكون وطبرستان وخوارزم والبحر الخراساني (٣) تبعاً لأسماء المدن والأمصار التي تقع على هذا البحر . وسماه الحميري بحر الخزر و بحر باب الأبواب و بحر آذربيجان و بحر جرجان و بحر طبرستان (٤) . وورد عند البغدادي باسم بحر طبرستان و جرجان و آبسكون و الخراساني و الجيلي و الدوارة الخراسانية . ووصفه قائلاً: " بحر واسع عظيم لا اتصال له بشيء من البحار . وهو الخراساني و الجيلي . وربما سماه بعضهم الدوارة الخراسانية " (٥) .

١ - المقدمة : ١٠٨ .

٢ - المقدمة : ٧٩ .

٣ - انظر : التتبيه والإشراف : ٥ ، ٧ ، ٩ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٩٣ ، ١٢١ .

٤ - انظر : الروض المعطار : ١١ ، ٧٨ ، ١٦٢ ، ١٨٥ ، ٢١٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٨٤ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥٨٥ .

٥ - مرصد الاطلاع : ١/١٦٥ .

ويطلق عليه في الجغرافية الحديثة (بحر قزوين) ويقع في شمالي إيران وتشترك في سواحله كلُّ من تركمانستان وأذربيجان وكازاغستان وروسيا الاتحادية.

٩-بحيرة خوارزم : قال ابن خلدون : " والجزء الثامن هذا الإقليم الخامس كله مجالات للغرّ من أمم الترك ، وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون ... وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرْعرن" (١) .

وتطلق (البحيرة) في مصطلح الجغرافيين المسلمين على كل ماء مجتمع عظيم لا اتصال له بغيره ، فيكون ملحاً وعذباً ، وهي تضاف الى بلدانها " (٢) .

١ - المقدمة : ١٠٥ .

٢ - مرصد الاطلاع : ١٦٧/١ .

ووردت (بحيرة خوارزم) في مصور الجغرافيا للإدريسي (١) .
وبحيرة خوارزم هي (بحر آرال) في الجغرافية الحديثة ، ويقع على الحدود
الغربية من كازاغستان والحدود الشمالية لأوزبكستان في وسط آسيا (٢) .

١٠- بحيرة الجرجانية : قال ابن خلدون : " ... ثم يخرج منها الى بلاد
خوارزم في الجزء الثامن من الإقليم الخامس فيصب في بحيرة الجرجانية
التي بأسفل مدينتها" (٣). ولعل هذه البحيرة هي بحيرة خوارزم نفسها كما
يظهر من وصف ابن خلدون المذكور آنفاً .

١١- بحيرة عَرغُون : قال ابن خلدون : " ... وفي الجهة الشمالية
الشرقية منه بحيرة عرعون " (٤) . ولعل هذه البحيرة هي بحيرة (جاجون)
كما في مصور العالم للإدريسي (٥) . وربما هي بحيرة (بالكاش) أو
(بلكاش) الواقعة في كازاغستان كما في الجغرافية الحديثة (٦) .

١ - الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي : ٧ .

٢ - انظر : أطلس العالم والوطن العربي : ٨٢ ، ٨٣ .

٣ - المقدمة : ٨٠ .

٤ - المقدمة : ١٠٦ .

٥ - الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي : ٧ .

٦ - انظر : أطلس العالم والوطن العربي : ٨٣ .

المبحث الحادي عشر

تقسيم الألوان في العربية
دراسة في ضوء علم اللغة الحديث

تمهيد

مجال الألوان من المجالات المهمة ذات البعد التحليلي والتفسيري لربط اللغة بالعالم الخارجي ، وغالباً ما يشار في هذا العنوان الى مجالين هما الألوان والتقسيم العائلي أو الأسري .

ويضاف الى مسألة الربط مسألة أخرى هي البنية التقسيمية الدلالية للألوان داخل اللغة نفسها ، ويستفاد ذلك أيضاً من مقولة الربط بين الشيء في وجوده الخارجي واللغة من حيث الانعكاس الفكري والحضاري ومجمل المفاهيم الثقافية والاجتماعية لكي يطرح السؤال المهم وهو كيف تنظر الى الأشياء من خلال عالمنا الداخلي المتمثل باللغة ؟ أو كيف تبدو لنا لغتنا من خلال نظرتها الى العالم الخارجي وتفسيرها للأشياء .

وللألوان في العربية تقسيمات بحسب الأنواع والتدرج واللمعان أو النصوص تعكس طبيعة العربي الذي استوطن البادية وتنتقل فيها ، وما فيها من أفق رحب وسماء ممتدة مع الأرض ونحلية الرمال وشدة البصر وحدة النظر ... الخ من القضايا الطبيعية والنفسية والاجتماعية للمبتدي في الصحراء . وموضوعنا في الألوان يتناول هذه القضايا وما يرتبط بها من السمات والصفات وبيان أسبابها اللغوية وغير اللغوية .

التعريف باللون :

اللون عند أهل المنطق والفلسفة من العرب والمسلمين عَرَضٌ وليس جوهرًا ، أي هو قابل للتغير بخلاف الجوهر الذي لا يتغير في عرفهم .
ونكرت المعجمات العربية تعريفات متعددة باللون يجمعها الفَصْل والصفة والهيئة والتكيف . وهي صفات للشيء تجعله عرضاً قابلاً للزوال .
ومن هذه التعريفات ما يأتي:

- ١- اللون : هيئة كالسواد والحُمْرة .
- ٢- لون كُلِّ شيءٍ ما فصل بينه وبين غيره . والجمع : ألوان . وقد تَلَوَّن ولَوَّن ولَوَّنَه .
- ٣- اللون : ما فصل بين الشيء وغيره .
- ٤- اللون : صفة الجسد من البياض والسواد والحمرة وغير ذلك ، فيقال : لونه أحمر ... الخ .
- ٥- اللون : تكيفُ ظاهرِ الأشياءِ في العين .
- ٦- اللون : هو الكيفية المُدْرَكة بالبصر من حُمْرة وصُفْرَة وغيرهما .
وللون في مفهومه العلمي علاقة بالنور أو الضوء ، فقد استنتج علمياً أنه صفة للنور والضوء ، ومن غيرهما ليس له وجود خارجي ، ولذلك عُرِّف في مدلوله الفني بأنه (صفة مادية يَكيفها البصر) . ويُقَوِّم اللون بصفات ثلاث:

١- صِبْغته : كالأحمر والأخضر والأصفر ... الخ .

- ٢- حدّته ، وهي نسبة نقائه وتشبعه وبلوغه ذروته .
- ٣- قَدْرُهُ أو قيمته ، بمعنى قُرْبِهِ أو بعده عن أن يكون داكناً أو فاتحاً ، ويعني أيضاً الضوء الذي يعكسه أو ينعكس عليه .

اللغة وتقسيم ألوان الطيف :

من مزايا اللغة تقسيم الأشياء على وفق المعايير الدلالية لكل لغة ، سواء أكانت تلك الأشياء من المنظور المحسوس أم من الأفكار والمعاني الذهنية . وتتحكم في هذه المعايير مجموعة من المؤثرات ، منها لغوية صرفة ترتبط بالبنية كالأصوات والوحدات الصرفية والتراكيب النحوية والمعاني المعجمية ، ومنها غير لغوية ترتبط بالقضايا الثقافية والاجتماعية والنفسية . ومباني التقسيم في اللغة وإن كانت متعلقة بالمعاني غير أنها لا تتسق مع المنطق وواقع الأشياء في كثير من الموارد ؛ فتأنيث غير المؤنث جنساً في الفصائل النحوية العربية كالشمس ، أو تذكير غير المذكر جنساً كالقمر لا يعتمد على فرز منطقي واقعي لحقيقة الشمس والقمر ، وإنما حصل ذلك لأسباب لغوية لا تمت الى الحقيقة بشيء .

ومن هذا القبيل تصنيف الألوان وتقسيمها بحسب الطيف إذ يعود الفضل في ذلك الى اللغة ؛ فبواسطتها حصل التقسيم والتمييز بين الألوان ، أي بدلائلها اللفظية ، ولولاها لما أمكننا التمييز بين الأجزاء ولعادت تلك الأجزاء الى الاختلاط والفوضى .

وهذه المقولة تنطبق على اللغات جميعاً على اختلاف مستويات التصنيف والتقسيم فيها ، ومنها العربية ، فالعقل الإنساني هو الذي يرتب سلسلة الألوان في نظام معين ، ولذلك اضطر الى أن يفرض عليها أنموذجاً خارجاً عنها ، أي يفرض أنموذجاً لا يتطابق مع حقيقتها في العالم الخارجي . ولقد سبقت الإشارة الى أن حقيقة الألوان تعتمد على عنصري الظلمة والنور ؛ فالألوان لا وجود لها إلا عن طريق الباصرة لانعكاسها عليها وتمييزها بين الألوان للصبغة اللونية الموجودة في تشريح العين . وهذه من الحقائق الطبية ، ولذلك كثيراً ما يوصف من فق هذه الخاصية التشريحية ب(عمى الألوان) ؛ فالمصاب لا يرى إلا الأسود والأبيض بخلاف من أصيب بأمراض الكلام وفقد التمييز بين ألوان الطيف لأن هذه المسألة لا ترتبط بالتشريح العضوي لأنها ليست مرضاً عضوياً وإنما ترتبط بفقدان القدرة اللغوية على التصنيف .

لقد ذهب (وورف) وأتباعه من القائلين بنظرية اختلاف اللغات باختلاف انعكاس العالم الخارجي عليها الى أن العالم ينعكس بأشكال مختلفة على اللغات المختلفة . وينطبق ذلك على بعض المفاهيم (السرمدية) مثل المكان والزمان إذا أصبحت لها تسميات متنوعة بتنوع اللغات ، وإن أكثرها وضوحاً الاختلاف في (تسميات الأشياء والألوان والحوادث والصفات) ؛ فهذا كله من الحقائق التي ترد في علم اللغة ولا يمكن دحضها ولكنها قد تفسر بأساليب مختلفة) .

وعلى الرغم مما تعرضت له هذه النظرية من نقد غير أنها ثبتت حقيقة واحدة وهي قابلية اللغات لتكييف عالم الحقائق والأفكار المجردة على وفق مستويات مختلفة أو متشابهه وربما متناقضة أحياناً ، ولذلك رأينا اختلاف اللغات في تقسيمها لألوان الطيف، ففي لغة (الزوني) - Zuni - مثلاً تستعمل كلمة واحدة للدلالة على اللونين البرتقالي والأصفر إذا ما قورنت باللغة الانكليزية ، ولكننا نجد في الوقت نفسه أن كلمة (Glas) التي تعود الى اللهجة البولندية (نسبة الى ويلش) تطلق في الانكليزية على الأخضر والأزرق والرمادي .

ونستنتج من هذا التباين في مستوى من المستويات والتقارب في مستوى آخر أن التصنيف لم يجر على حقيقة الشيء كما هو في الخارج ، وإنما اللغة هي التي اصطنعت مثل هذا التقسيم فجعلت اللونين (البرتقالي والأصفر) في مستوى لفظي واحد، يقابله مستويان لفظيان آخران ، في حين استعملت الانكليزية (الأخضر والأزرق والرمادي) في مستوى لفظي واحد مستعار من إحدى اللهجات .

ويتولد الطيف بانكسار الضوء الأبيض ، وصوره المرئية سبع صور تمثل ما يعرف بألوان الطيف ، وهي على الترتيب : الأحمر فالبرتقالي فالأصفر فالأخضر فالأزرق فالنيلي (نسبة الى النيل وهو ما يصبغ به ولونه أزرق غامق) فالبنفسجي . وما خلا هذه الألوان الأساسية هناك ما يسمى

ب(ظلال الألوان) ، وهي كثيرة تتولد من الألوان المذكورة سابقاً بنسب متفاوتة منها من حيث التدرج .

وما نلاحظه في اللغات من تقسيمات مختلفة لمجموعات الألوان لا يبنى على ترتيب واقعي كما سبقت الإشارة الى ذلك ، وإنما هي تقسيمات تتبع منطق اللغة نفسها وليس منطق الأشياء في واقعها الخارجي ، وقد تقترب من هذا العالم أو تبعد عنه بمقدار المعطيات الدلالية للغة نفسها . ولنضرب مثلاً لأسماء الأوان في بعض اللغات استدلالاً على ما ذكرناه :

تقسم الألوان في اللغتين الانكليزية والألمانية على النحو الآتي :

الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجي . ونجد في اللغة الروسية أن اللون الأزرق يقسم الى قسمين لكل واحد منهما تسميته الخاصة به ، وهي تقابل : الأزرق الفاتح والأزرق الداكن . وفي لغة أحد شعوب ليبيريا تقسم الألوان على مجموعتين ، أحدهما : ما يعرف عند الرسامين بالألوان الدافئة Warm ، وهي : الأحمر والبرتقالي والأصفر ، والأخرى : ما يعرف عندهم بالألوان الباردة Cold ، وهي : الأخضر والأزرق والبنفسجي .

وأما اللونان الأبيض والأسود فيمثلان الحالة المحايدة لتصنيف الألوان بين المجموعتين المذكورتين آنفاً ، وهما اللذان يتحكمان بقيمة اللون .

ويعود هذا التصنيف الفني لمجموعتي الألوان الى أبحاث الرسامين الانطباعيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وهو تصنيف مبني على الانطباع الفني للألوان وليس على حقيقتها لأنها ليست من الحقائق

المادية القابلة للحرارة والبرودة ؛ فالأثر النفسي الذي تتركه الألوان الدافئة تختلف عما تتركه الألوان الباردة . وهذه المسألة من القضايا الفنية البحتة ولا علاقة لها باللغة إلا من حيث التسمية ، أي من حيث الظلال الدلالية الانطباعية لكلمتي (الحرارة) و (البرودة) . ولها تأثير آخر وهو خداع البصر إذ تبدو الألوان الدافئة والفاخرة للناظرين أكبر مساحة من مساحتها الحقيقية وأقرب مكاناً من مكانها الحقيقي على خلاف الألوان الباردة والغامقة إذ تظهر للناظرين أصغر مساحة وأبعد مسافة من حقيقتها . وهذه المسألة لا علاقة لها أيضاً باللغة وإنما ترتبط بقيمة اللون والتحكم فيه وبما يتركه من أثر بصري .

صفات الألوان :

للألوان صفات ثلاث هي التدرج والضياء والتشبع ؛ ويقصد بالتدرج ترتيب الألوان من حيث التمايز والتصنيف كالأحمر والأصفر والأخضر والأزرق ... الخ ، والضياء هو مقدار الضوء المنعكس بصرف النظر عن التدرج . وأما التشبع فيقصد به شدة تدرج لون ما مقارنة بلون آخر متعادل ، له ضياء مماثل . وتعد ألوان الطيف أكثر الألوان شدة وأعلاها تشبعاً ، وتتفرع منها ظلال ألوان كثيرة مختلفة الصفات .

وعلاقة الصفات باللغة تظهر من حيث التسمية للانطباع البصري لها ، ومن حيث التصنيف القائم على هذه الصفات ، وهي من العلائق

الدلالية ، ويمكننا أن نلاحظ ذلك في مجموعات من أسماء الألوان في العربية كترتيب البياض من حيث التدرج في قولهم : (أبيضٌ يَبْقُ ، ثم لَهَقُ ، ثم واضحٌ وناصح ، ثم هِجَانٌ وخالص) .

ويستعمل هذا التدرج للأبيض في صفات الإنسان ، فيقال : الأَمْهَقُ : (الرجل الأبيض بياضاً لا يخالطه شيء من الحُمْرَة وليس نَيْرٍ ولكنه كلون الجص) .

والأزهرُ : (إذ كان أبيض بياضاً محموداً يخالطه أدنى صفة كلون القمر) .
والأقهبُ و الأقهدُ : (إذا علتة حُمْرَة يسيرة) .
والأعفرُ والأغثرُ : (إذا علتة غُبْرَة) .

وأما ترتيب السواد في العربية من حيث التدرج - وهو كالبياض من الألوان الحيادية بحسب التقسيم الفني للألوان - فعلى النحو الآتي : (أسودٌ وأسحمُ ، ثم جَوْنٌ وفاحمٌ ، ثم حالِكٌ وحانِكٌ ، ثم حُنْكَوكٌ وسُحْكَوكٌ ، ثم خُدَارِيٌّ ودَجُوجِيٌّ ، ثم غَرْبِيٌّ وعُذَافِيٌّ) .

ويقال في ترتيب سواد الإنسان :

الأسمرُ : (إذا علاه أدنى سواد) .

والأصحمُ : (إذا زاد سواده مع صُفْرَة تعلوه) .

والآدمُ : (إذا زاد سواده عن الصُفْرَة) .

والأسحمُ : (إذا زاد على ذلك) .

والأدهمُ : (إذا اشتدَّ سواده) .

والضياء من الصفات الثلاث للون ، ويعبر عنه في العربية بمجموعة من الألفاظ ، منها:

البريق : بَرَقَ الشيءُ يَبْرِقُ بَرَقًا وَبَرِيقًا : لمع وتلألأ .

اللمعان : لَمَعَ الشيءُ يَلْمَعُ لَمَعًا وَلَمَعَانًا : أضاء وبرق .

اللُّهْبَة : إشراق اللون من الجسد .

التوقُّد : توقَّدَ الشيءُ : تلألأ .

التألُّق : أَلَقَ البَرَقُ يَأْتِقُ أَلِيقًا وتَأَلَّقَ : لمع وأضاء .

التَّلَاطُؤُ : تلألأ البَرَقُ والنارُ والنجمُ ، ولألاً : لمع وأضاء .

الوَهْجُ : البريق .

الإشراق : أشرقت الشمسُ : أضاءت .

ويقال في صفاء اللون ونقائه وخلوصه :

الصابي : نقيض الكدر ، وهو كل ما خالص من الألوان .

الناصع والنَّصِيع : كل ما خَلَصَ من الألوان ، وأكثر ما يقال في

البياض . وقد يُبالغ فيه فيقال : أحمرُ ناصعُ أي قانئٌ ، وأصفرُ ناصعٌ ،

وأبيضُ ناصعٌ .

البهيم : لون بهيمٌ : لا يخالطه غيره . وقيل : هو كل لون خالص لا

يخالطه غيره سواداً كان أو بياضاً .

المُصَمَّت : ما لا يخالط لونه لوناً آخر .

العاتك : الخالص من الألوان والأشياء .

الفاقع : الخالص الصافي من الألوان .
وصفه (الإشباع) من صفات اللون أيضاً ، ويعبر عنه في العربية
بألفاظ ، منها : أسودُ حالكُ ، وأبيضُ يَقْفُ ، وأصفرُ فاقعُ ، وأخضرُ ناضرُ ،
وأحمرُ قانيُّ .

ومن ألفاظ الحُمْرة في هذا المجال :

الأزْجوان : الأحمرُ ، والحُمْرة ، وصَبْغُ أحمرُ شديد الحُمْرة .
القنوء : اشتداد الحُمْرة .
المُشَبَّع : أشد درجات الحُمْرة .
النَّقَابة : اشتداد الحمرة .
الشَّرْق : اشتداد الحمرة .
الحَنْط : شدة الحمرة .

ويعد اللونان الأبيض والأسود وما يتعلق بهما من الصفات والألفاظ
من أكثر الألوان شيوعاً في العربية ، وبما أنهما يمثلان الحالة الحيادية المؤثرة
في قيمة اللون كما ذكرنا ذلك سابقاً فإن كثرة ألفاظهما في العربية يمكن
تفسيرها بموجب هذا المنظور .

ومن أمثلة البياض من حيث أنواعه :

النَّعْجُ : البياض الخالص .
العُرْبَة : بياض صُرْفَة ، وهو أقبح البياض .

المَهَقُ : البياض . والأَمَهَقُ : الأبيض الشديد البياض الذي لا يخالط
 بياضه شيء من حُمْرَة وليس بَنِيْر لكنه كالجَصِّ ونحوه .
 اليُقُوقة : البياض ، وأبيض يَقَقُّ إذا كان شديد البياض .
 اللَّهَقُ : بياض ليس بذى بريق .
 الفَقَعُ : شدة البياض .
 الفُضْحَة : الأفضح : الأبيض ليس بشديد البياض .
 المُرْهَة : البياض لا يخالطه غيره .
 الصُّهْبَة : صَفْرَة تضرب الى الحمرة والبياض .
 الزُّهْرَة : البياض الناصع وشفاء اللون . والأزهر : كل لون أبيض
 صاف مُشرق مضيء .
 القُمْرَة : شدة البياض ، ومنه اشتقاق القمر . والأقمر : الأبيض .
 العُزْرَة : البياض . والأغرُّ : الأبيض من كل شيء .
 ومما يوصف به الإنسان وغيره من لون البياض قولهم :
 رَجُلٌ أزهر ، وامرأة رُعْبُوْبَة ، وشَعْرٌ أشمط ، وفَرَسٌ أشهب ، وبعيرٌ
 أعيس ، وثَوْرٌ لَهَقٌ ، وجمار أقمر ، وكَبْشٌ أملح ، وظَبْيٌ آدمٌ ، وثوب أبيض ،
 وفضة يَقَقُّ ، وماءٌ صافٍ .
 ومن أمثلة البياض في أشياء مختلفة :
 التَّقَا : الرمل الأبيض .
 الصَّبِير : السحاب الأبيض .

الْوَثِيرُ : الورد الأبيض .

الرَّيْمُ : الظبي الأبيض .

النَّوْرُ : الزَّهْرُ الأبيض .

ومن أمثلة السواد وأنواعه :

الدُّهْمَةُ : السواد .

الكُهْيَةُ : الدُّهْمَةُ .

السُّخْمَةُ : السواد .

الطُّلْسَةُ : لون بين السواد والغبرة .

الْقُتْمَةُ : سواد ليس بشديد .

الكَلْحُ : السواد .

الصُّهْمَةُ : سمرة تجاوزت الى السواد .

الحُمَّة : السواد

الرُّمَكَةُ : سواد مُشْرَب كُدْرَةَ .

الفُحُومَةُ : أسود فاحم للشديد السواد.

الدُّعْجَةُ : شدة السواد.

الدُّجَّةُ : شدة الظلمة .

الدَّجْدَاجُ : الأسود من كل شيء ، والشديد الظلمة.

الدُّجْنَةُ : السواد والظلمة.

السُّدْفَةُ : الظلمة . والسَّدْفُ : سواد الليل .

الحُبَّة : سواد صِرْف.

ومما يوصف بالسواد قولهم : لَيْلٌ دَجْجُوجِيٌّ ، وَسَحَابٌ مُدْلِهَمٌّ ، وَشَعْرٌ فَاحِمٌ ،
وَقَرَسٌ أَدَهْمٌ ، وَعَيْنٌ دَعَجَاءٌ ، وَشَقَّةٌ لَعَسَاءٌ ، وَنَبْتُ أَحْوَى ، وَوَجَّةٌ أَكْلَفٌ ،
وَدُخَانٌ يَحْمُومٌ.

ومن أمثلة السواد في أشياء مختلفة : الحاتم : العُراب الأسود ،
والسَّلاب : الثوب الأسود تلبسه المرأة في حِدادها ، والوَيْن : العنب الأسود ،
والحال : الطين الأسود .

القلة النسبية في بعض أسماء الألوان :

تصنف الألوان في اللغة على وفق إطار عام اصطنعته اللغة نفسها،
ويبدو هذا الإطار أمراً طبيعياً بالنسبة إلينا ، وخلافه يبدو لنا غير طبيعي .
ولولا التصنيف اللغوي المصطنع للألوان لأمكننا التمييز بين عدد أكثر أو
أقل من التصنيف الرئيس المألوف لدينا . وثمة ظلال للألوان كثيرة لا تدخل
ضمن التصنيف المصطنع .

وخلاصة هذا التحليل أن اللغة اصطنعت تصنيف الألوان ، ونحن
نشعر بأن هذا الأمر طبيعي ، وأي وضع لم تألفه يجعلنا نشعر بأنه غير
طبيعي ، وحقيقة المسألة أن للألوان ظلالاً لا نهاية لها .

وبموجب هذا التحليل لدينا مثال ، وهو استنتجه (كلادستون)
Gladston وكان من المعنيين بالدراسات اللغوية إذ وجد في لوحة الشاعر

الإغريقي (هومر) عدداً من الألوان أقل كثيراً من العدد الذي نألفه فافتراض أن الشاعر كان مصاباً ب(عمى الألوان). والحقيقة ليست كذلك ؛ فالشاعر لم يكن مصاباً بهذا المرض ولكن التصنيف اللغوي للألوان في الإغريقية واللاتينية قلل نسبياً من أسماء الألوان في كل منهما.

وبموجب هذا الافتراض أيضاً يمكن أن نعلل لقلّة أسماء بعض الألوان وظلالها في العربية قياساً بألوان أخرى ولاسيما البياض والسواد ؛ فمن الخُضرة وأنوعها على سبيل المثال قولهم :

الخُضرة : لون بين السواد والبياض .

النُضرة : شدة الخُضرة .

الخُضب : الخُضرة تظهر في الشجر .

المَهَق : خُضرة الماء .

الخُلُسة : أخلس النبات : كان بعضه أخضر وبعضه أبيض .

ومن أنواع الزُّرقة قولهم :

الزُّرقة: خُضرة في سواد العين ، وقيل هو أن يتغشى سوادها بياض.

الزُّرُقم : الشديد الزرقة ، للمذكر والمؤنث .

ومن الصفرة وأنوعها قولهم :

الصُّفرة : لون دون الحمرة .

الفُقوع : شدة الصُّفرة.

اهتزاز مدلول الألوان :

العلاقة بين اللفظ ومدلوله من المسائل المعروفة في علم الدلالة ،
والرابط بين (الرمز) الذي يمثل (اللفظ) ومدلوله في عالم الأشياء الخارجي
هو العقل أو الفكر . والألوان تخضع كغيرها من الأشياء الى هذه القاعدة ؛
فإذا كانت العلاقة بين اللفظ الدال على لون ما ومدلوله مستقرة عند الإنسان
أصبحت لديه ملكة التخصيص والتمييز من حيث إطلاق اللفظ . وأما إذا
اضطربت هذه العلاقة فقد الملكة وخلط بين مسميات الأشياء من دون أن
يفقد التمييز الإدراكي بينها.

وأجرى بعض علماء اللغة وعلماء علم النفس الأوربيين جملة من
الاختبارات في هذا الشأن وتعرضوا الى ما اصطلح عليه بـ(الأفازيا) Aphasia
أو (عيوب الكلام) Speech Defects , وكان الدكتور (هيد) Head رائد
البحث في هذا المجال ، وهو عالم بريطاني عني بمرضى عيوب النطق
والكلام وأجرى تجارب على مرضاه ، وكان من جملة تجاربه اختبار الألوان
إذ طلب من أحد المرضى أن يصنف الألوان الموضوعة أمامه على المنضدة
تصنيفاً لفظياً ، ولكنه خلط بين المسميات فسمى الأبيض أخضر ، والأسمر
أحمر ، والأخضر أزرق . ومثل هذا الخلط قد يوهم بأن المريض مصاب
بعمى الألوان من حيث ظاهر الحال ولكنه لم يجد صعوبة حين طلب منه
أن يختار من مجموعة الألوان الموضوعة أمامه اللون الذي سبق أن عرض
عليه .

وتفيد هذه التجربة أن المريض فقد (آلية التصنيف) اللغوي لمجموعة الألوان ولذلك خلط بين أسمائها ، ولو كان مصاباً بعمى الألوان لما اختار بسهولة اللون الذي عرض عليه . وأجرى العالم النفسي (كلب) Gelb سلسلة من التجارب على مريض قد نسي نسياناً تاماً أسماء الألوان في حين (احتفظ بإحساس مرهف بما يتعلق بالفروق اللطيفة بينها) . ولما طلب من هذا المريض أن يختار من الخيوط الملونة التي كانت أمامه المجموعة المتجانسة التي تلتقي في مجموعة واحدة عجز عن ذلك ، لأن كل الخيوط كانت في نظره مختلفة الألوان . وهذا يعني تماماً (أن هذا المريض حين فقد أسماء الألوان أي الرموز اللفظية التي ترمز إليها فقد كذلك المبدأ الذي ينبني عليه تقسيم الألوان الى مجموعات) .

ونجد في العربية خليطاً من مسميات الألوان ، وهي مسميات متداخلة، بعضها قد يدل على تفريق بين ظلال الألوان ، وهذا أمر حسن مقبول من حيث الاستعمال اللغوي ، ولكن ألفاظاً أخرى يصعب فهمها من حيث اختلاط الألوان ، ومثل هذه الألفاظ قد نجد لها تفسيراً في اهتزاز مدلولاتها أو اضطرابها عند رواة اللغة ولاسيما ما أخذ منها مشافهة في الجيل الأول من الجمع والتدوين المعجمي وأثبتها اللغويون في رسائلهم وكتبهم وتناقلوها خلفاً عن سلف .

والأمثلة والنظائر في هذا المجال قد يستدل بها على هذا التفسير ،
منها ما قيل عن الألوان المتقاربة :
الصُّهْبَة : حُمْرَة تضرب الى بياض.

- . الكُهْبَة : صُفْرَة تضرب الى حمرة .
- . القُهْبَة : سواد يضرب الى خضرة .
- . الدُّكْنَة : لون الى العُبْرَة بين الحمرة والسواد .
- . الكُمْدَة : لون يبقى أثره ويزول صفاؤه .
- . الشُّرْبَة : بياض مُشْرَبٌ بحُمْرَة .
- . الشُّهْبَة : بياض مُشْرَبٌ بأدنى سواد .
- . العُفْرَة : بياض تعلوه حُمْرَة .
- . الصُّحْرَة : عُبْرَة فيها حمرة .
- . الصُّحْمَة : سواد الى حمرة .
- . الدُّبْسَة : بين السواد والحمرة .
- . القُمْرَة : بين البياض والغبرة .
- . الطُّلْسَة : بين السواد والغبرة .
- . ومن أمثلة البياض المختلط بالسواد قولهم :
- . الأُدْمَة : لون بين البياض والسواد .
- . السُّعْرَة : لون يضرب الى السواد .
- . الوُرْقَة : بياض يضرب الى السواد ، وهي لون الرماد .
- . المُلْحَة : بياض يخالطه سواد .
- . الكُلْفَة : لون بين البياض والسواد .
- . العُبْسَة : بياض فيه كُدْرَة ، وهي لون الرماد .

المبحث الثاني عشر

ألفاظ ومصطلحات ولهجات محلية في كتاب
(سفرنامه) لناصر خسرو القبادياني المروزي

مقدمة :

هذا بحث في ألفاظ مختارات من كتاب (سفرنامه) لناصر خسرو القُبَادِيَانِيّ المَرْوَزِيّ^(١) ، بعضها ألفاظ فارسية أصيلة قديمة ، وبعضها الآخر من باب اللهجات المحلية سواء أكانت من أرومة فارسية أم من أصول عربية ، لأن ناصر خسرو الذي بدأت رحلته في سنة (٤٣٧هـ) واستغرقت سبع سنين^(٢) قد طوّف ببلدان كثيرة في المشرق ، وانتهى به المطاف الى القدس فمكة ثم مصر في خلافة الفاطميين . وثبت في رحلته هذه ما رآه من عادات وتقاليد وظواهر اجتماعية مختلفة للأقوام التي مرّ عليها ، ووصف البلدان والمدن والقرى وصفاً حقيقياً من حيث البناء والعمران والآثار والأسوار والنظم والتراتب الاقتصادية والإدارية .

^١ - الحكيم أبو معين ناصر بن خسرو بن الحارث القُبَادِيَانِيّ البَلْخِيّ المَرْوَزِيّ. ولد في شهر ذي القعدة من سنة (٣٩٤هـ) في قُبَادِيَان من نواحي بَلْخ . وتوفي في سنة (٤٨١هـ) في (مكان) من أعمال بَدَخْشَان. انظر ، ذبيح الله صفا : تاريخ ادبيات در ايران - ٤٤٣/٢ .

^٢ - ابتدأت رحلته في سنة (٤٣٧هـ) وانتهت في سنة (٤٤٤هـ) . زار فيها شمال شرق بلاد فارس وشمال غربها وجنوب غربها ووسطها ، وبلاد أفغانستان وآسيا الصغرى وحلب وطرابلس الشام وسورية وفلسطين وجزيرة العرب ومصر والقيروان وبلاد النوبة والسودان . انظر : تاريخ ادبيات در ايران : ٤٤٩/٢ .

ويعد كتابه (سفرنامه) أي (كتاب الرحلة) من أوثق المصادر الجغرافية والتأريخية في القرن الخامس الهجري ، وهو مفيد نافع للأديب واللغوي أيضاً لما تضمنه من أخبار و نوادر أدبية وألغاز لغوية قلما نجد لها نظائر في المصادر الأخرى.

ذكر ناصر خسرو في كتابه معلومات مهمة ، وضمنه أخباراً دقيقة عن المدن والأمصار والأقاليم التي مر عليها . ودون تلك المعلومات والأخبار بأسلوب واضح خال من التكلف مختصر في مواضع مفصل في مواضع أخرى وفقاً لما يتطلبه الحال والمقام .

ونجد في هذا الكتاب البالغ الأهمية ألفاظاً من الفارسية الأصلية واللهجات المحلية تحكي جانباً من تأريخ الفارسية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري.

وأهم ما يستفاد من هذا البحث هو ما يمكن أن نستدركه أو نضيفه من ألفاظ مستحدثة الى المعجمين الفارسي والعربي.

وبعد استقراء الألفاظ في الكتاب أمكن تقسيمها الى تسع مجموعات كانت العاشرة شتاتاً من ألفاظ متفرقة لا يجمعها جامع على التفصيل الآتي:

- ١- الألفاظ المختصة بالجيش في الخلافة الفاطمية ، وبعض الألفاظ المتعلقة بدار الخلافة .
- ٢- الألفاظ المختصة بإنباط المياه والريِّ وأنواع السفن والموانئ البحرية.
- ٣- الألفاظ المختصة بالبيت وفرشه وأثاثه ومستلزماته.
- ٤- ألفاظ الملابس .
- ٥- الألفاظ المختصة بالنقود والمقاييس والموازين.
- ٦- بعض الألفاظ المختصة بالطبيعة .
- ٧- الألفاظ المختصة بالطعام والثمار.
- ٨- الألفاظ المختصة بالمعادن والفلزات.
- ٩- ألفاظ مختصة بإحداث الخنادق والموانع لحماية المدن.
- ١٠- ألفاظ متفرقة.

الجيش والبلاط في العصر الفاطمي :

سافر ناصر خسرو إلى مصر مرتين وأفاد في كتابه شرحاً مفصلاً لما شاهده فيها ولأسيما وصفه لمدينة القاهرة التي امر ببنائها المعز لدين الله الفاطمي وسميت بعد ذلك بـ(قاهرة المعز) . بنى المعز لدين الله هذه المدينة الكبيرة واتخذها عاصمة للفاطميين وبقيت كذلك مدة حكمهم .

ومن الأوصاف الدقيقة الواردة في رحلة ناصر خسرو وصفه للجيوش الفاطمية من حيث التنظيم والترتيب والتقسيم وعدد الجند وأصولهم وأجناسهم . ويعد هذا الوصف بحسب ما ذكره (إدوارد براون) من أكثر الأوصاف دقة للجيوش الفاطمية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري .

قسم ناصر خسرو الجيوش الفاطمية على الأقسام الآتية :

١. سَرَايِبَان : " كانوا رَجَالَة جِيءَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ وِلَايَة ... عِدَّتُهُمْ عَشْرَة الْأَف رَجُل " (١) .
٢. مَصَامِدَة : " .. هُمْ سُود مِنْ بِلَادِ الْمَصَامِدَة وَيُقَالُ إِنْ عِدَّتُهُمْ عَشْرُونَ أَلْفَ رَجُلٍ " (٢) وورد ذكرهم في موضع آخر من سفرنامه على النحو الآتي : " .. وَمِنْ جِنْسِهِمْ فِي مِصْرَ جُنُودٌ كَثِيرُونَ . صُورَهُمْ قَبِيحَةٌ وَهِيَ أَكْلُهُمْ عَظِيمَةٌ وَيَدْعُونَ مِصَامِدَة .. " (٣) .

١ - سفرنامه : ٨٣ .

٢ - سفرنامه : ٨٣ .

٣ - سفرنامه : ٧٤ .

٣. باطليان : " .. وجماعة تدعى باطليان " . من أهالي المغرب قدموا الى مصر قبل قدوم السلطان . قيل إن عدتهم خمسة عشر ألف فارس " (١) .
٤. مَشَارِقَة : " .. هم من الترك والعجم . وسبب التسمية أنهم كانوا من أصول غير عربية .. قيل إن عدتهم بلغت عشرة آلاف رجل عظيمي الهياكل " (٢) .
٥. كتاميان : " .. هم من القيروان جاءوا لخدمة المعز لدين الله ... قيل إن عدتهم عشرون ألف فارس " (٣) .
٦. بدويان: " .. ناس من الحجاز . كانوا جميعاً من المقاتلة بالرمح قيل إن عدتهم خمسون ألف خيال " (٤) .
٧. زنوج : " ... كانوا جميعاً من المقاتلة بالسيوف ... قيل إن عدتهم بلغت ثلاثين الف رجل " (٥) .
٨. عبيد الشراء : " .. كانوا من العبيد بالشراء .. قيل ان عدتهم ثلاثون الف رجل " (٦) .

١ - سفرنامه : ٨٣ .

٢ - سفرنامه : ٨٣ .

٣ - سفرنامه : ٨٣ .

٤ - سفرنامه : ٨٣ .

٥ - سفرنامه : ٨٤ .

٦ - سفرنامه : ٨٤ .

٩. أستاذان : .. كانوا خداماً سودان وبيضان . شروا للخدمة . وعدتهم ثلاثون ألف فارس " (١) .

ومن الوظائف المهمة في البلاط الفاطمي ما يدعى بـ (صاحب السَّتر)^(٢) وهي عبارة عربية ووظيفة سلطانية تطلق على حاجب الخليفة وصاحب السر . ويرادف هذه الكلمة في المصطلح كلمة (حاجب) في التنظيمات السياسية الشرقية وكانت تستخدم المدلول نفسه في البلاط العباسي ثم طرأ عليها تغير دلالي في التنظيمات السياسية والإدارية للدولة الأموية في الاندلس وأصبحت قريبة المدلول من كلمة (وزير) .

وورد في سفرنامه ذكر (العوانين والغمازين) . أشار إليهم ناصر خسرو فقال : " .. وكانوا كلهم في أمان من السلطان لذلك لم يخشوا من العوانين والغمازين " (٣) .

ويستفاد من هذه الإشارة مطلبان أحدهما : استخدام الفاطميين للعيون والجواسيس لأن كلمتي (العوانين والغمازين) من الكلمات العربية

١ - سفرنامه : ٨٣ .

٢ - أشار الى ذلك ناصر خسرو في سفرنامه (ص٩٧) وقال : ((.. قال)) للبرّده دار) الذي يقال له (صاحب السَّتر) ..)) .

٣ - سفرنامه : ٦٩ .

التي ينصرف مدلولها إلى التجسس والرصد ولا يخفى أنهما جمع لـ(عَوَان) و (غَمَّاز) .

المياه وأنواع السفن والمباني البحرية:

أَبْكَير: .. في المسجد أحواض وخزانات ماء كثيرة" (١) . وذكر الأَسدي الطوسي في معجمه (٢) معنى (أَبْكَير) على أنه موضع خزن الماء وذكر ابن خلف التبريزي من معاني هذه الكلمة : الحوض الكبير والحفرة الكبيرة التي يتجمع فيها الماء وزقاق مغلق يركد فيه الماء" (٣) ويبدو أن معنى هذه الكلمة في سفر نامه ينصرف إلى معنى خزان للماء أو حفر يتجمع فيها الماء لأنها ذكرت مع كلمة الأحواض .

مَصَانِع: .. وبنوا أحواضاً كبيرة تتحدر إلى باطن الارض وأطلقوا عليها مصانع.. (٤) .

١ - سفرنامه : ٤٥ .

٢ - لغت فرس : ٤٩ .

٣ - برهان قاطع : ٢٦ .

٤ - سفرنامه : ٤٩ .

(مَصَانِع) ومفردتها : مَصْنَعَة أو مَصْنَع من الألفاظ العربية الأصلية وقد وردت في الشعر الجاهلي مراراً ومنه شعر لبيد بن ابي ربيعة . ومعنى (مَصْنَعَة) أو (مَصْنَع)^(١) في المعجمات العربية الحوض ومجمع الماء الذي يجمع فيه الماء من مياه الأمطار والسيول ونحوها ويحفظ فيه للإفادة منه وقت الحاجة.

كاريزها: " ... إلا إذ كان الماء فيه قليلاً واقتصر على السواقي في باطن الأرض"^(٢) .

كلمة (كاريز) في الفارسية مركبة من (كَاه) بمعنى التبن ، و(ريز) الجذر من (ريختن) بمعنى الجريان ويستفاد من علم (إنباط المياه) أنه تحفر ساقية في باطن الأرض لخرنه ويستخدم التبن لتعيين مقدار الماء وسيره . وقد ورد في بعض المعجمات الفارسية ما هو قريب من هذا

^١ - ((المَصْنَعَة - بفتح الميم وضم النون وفتحها - كالحوض يجمع فيه ماء)) . مختار الصحاح : ٣٧١ . وفي المصباح المنير : ٣٤٨ : ((المَصْنَع : ما يصنع لجمع الماء نحو البركة والصَّهْرِيح ، والمَصْنَعَة - بالهاء - لغة ، والجمع : مَصَانِع))

^٢ - سفرنامه : ٥ .

المعنى، منها معجم (لغة فرس) للاسدي الطوسي^(١) قال في معنى كلمة (كاريز) : " ماء يكون في الأرض يستخرج من موضع) .

وذكر في برهان قاطع^(٢) . أن الكلمة تطلق على " ساقية تحفر في باطن الأرض ليجري فيها الماء " . وورد في معجم (نوبهار)^(٣) أن الكلمة مركبة من كلمتين كما ذكر آنفاً وأشير صراحة إلى استخدام التبن لسبر عمق الماء وجريانه.

نايره: " ... فوارات ماء من نحاس مخلوط بالرصاص ظاهرة في الحوض " ^(٤) . وتعني كلمة (نايره)^(٥) في الفارسية : أنبوب الإبريق وأنبوب كل شيء آخر^(٦) ومن معانيها في معجم نوبهار ^(٧) الناي الصغير والناي الأجوف.

١ - ص : ٥٣ .

٢ - ص : ٨٧٢ .

٣ - ص : ٦٥٠ .

٤ - سفرنامه : ١٤ .

٥ - فرهنگ نوبهار : ٨٠٤ .

٦ - برهان قاطع : ١٢٥ .

٧ - ص : ٨٠٣ .

بُوصِي: " .. وجلسنا في سفينة كبيرة تسمى البُوصِي (١) و(بُوصِي) من الكلمات المعربة القديمة فقد ذكرها طرفة بن العبد في معلقته إذ قال:

كسْكَانِ بُوصِيٍّ بِدِجْلَةَ مُصْعَدٍ

وتطلق كلمة (بُوصِيٍّ) في العربية على ضرب من الزوارق أو السفن أو رُبَانِ السفينة . ويستفاد من قول طرفة المذكور آنفاً أن هذا النوع من الزوارق والسفن كان معروفاً في نهر دجلة في العصر الجاهلي ويحتمل أن الكلمة كانت من لهجات أهل العراق القديم ولاسيما القاطنين منهم بجانب نهر دجلة واختلف اللغويون في هذه الكلمة المعربة من حيث أصلها فذكر الجواليقي (٢) أن أصلها في الفارسية (بُوزِي) وزعم أدي شير (٣) أن أصلها (بور) بمعنى الحرب البحرية وأفاد انه لم يطلع على مثل هذا المعنى في المصادر التي توافرت لديه فيكون رأيه هذا ضرباً من الحدس والتخمين ورجح نقلاً من صاحب المعجم (الكلداني) أن الكلمة من أصل آرامي ، وقد وردت باللهجة (الربانية) وترجيح الأصل الآرامي للكلمة هو

١ - سفرنامه : ١٦١ .

٢ - المعرب : ١٠٢ .

٣ - معجم الألفاظ الفارسية المعربة : ٣٢ .

أقرب إلى الصواب لذكرها في شعر طرفة وقدمها وكونها من لهجة القاطنين بدجلة وكان العراق في ذلك العصر موطناً للآراميين .

جُودِي: مر ناصر خسرو في رحلته بمدينة حيفا ودون مشاهداته في هذه المدينة ومن جملتها صناعة السفن التي كانت تدعى الواحدة منها (الجُودِيّ) في لهجة أهل حيفا . قال : ((... وكان هناك صنّاع السفن يصنعون سفناً كبيرة وتلك السفن البحرية كانوا يسمونها الجودي...)) (١) .

ومن المعروف أن (الجُودِيّ) من ألفاظ القرآن الكريم ولها علاقة بقصة نوح (ع) والطوفان والسفينة التي صنعها . وورد في القرآن الكريم أن سفينة نوح قد استوت على الجُودِيّ بعد انحسار الطوفان . قال تعالى (واستوت على الجُودِيّ) (٢) وذهب أغلب المفسرين الى أن الجُودِيّ جبل قريب من الموصل .

(خشاب) : كان من المباني البحرية التي شاهدها ناصر خسرو في خليج عبادان ووصفه على النحو الآتي : " عبارة عن هيكل خشبي عظيم

١ - سفرنامه : ٣١ .

٢ - قوله تعالى : (وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) . هود : آية ٤٤

محاط بالخشب من جهاته الأربع وضع على هيئة المنجنيق . قاعدته مربعة واسعة وطرفه ضيق. يرتفع عن سطح الماء (٤٠) كزاً^(١) . صف أعلاه بالفخار والحجر، وربط بالخشب على هيئة الأعمدة بني عليها قبة لها أربعة أضلاع مفتوحة الجوانب اتخذ عليها دَيْدَبَان (مرقب ومرصد) ... وكان الغرض من هذا المبنى البحري أمرين ، أحدهما : أن في حدود تلك الجهة تراباً رخواً والبحر ضيق فاذا ما بلغته سفينة كبيرة ارتطمت بالأرض ، والآخر : رصد الناس ومراقبتهم وكشف اللصوص ومعرفتهم . ويضاء فوق المبنى بمشاعل مغطاة بالزجاج لكي لا تنطفئ وليراها الناس من بعيد ويحتاطوا بسفنهم وينحرفوا بها عن المسير " (٢) .

الألفاظ المختصة بالبناء والمباني ولوازمهما :

مَشْهَد : تعنى البيت على مثل الرِّبَاط (بيت يتخذه أهل التصوف) والكلمة من لهجات أهل طرابلس الشام . ويبنى هذا البيت ملاصقاً للمسجد الجامع أو منفصلاً عنه . قال ناصر خسرو بعد زيارته لمدينة طرابلس : "

^١ - في فرهنگ عميد ص: ٨٧٣ : كَزْ (gaz) " مقياس طول يساوي (١٦) عقدة ، ويطلق عليه في العربية : ذراع ."

^٢ - سفرنامه : ١٦٢ .

وبنوا هناك بيوتاً على مثال الرَبْطُ ولكن لم يَقم أحد فيها وسمي الواحد منها
مَشْهَدًا.. " (١) .

ونسنتج من هذا الكلام أن كلمة (مشهد) بهذا المدلول كانت تعد
من لهجات أهل طرابلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري .

أشكوب: " وكانت اكثر العمارات مبنية من خمسة (أشكوبات) أو
سته " (٢) . وقال في موضع اخر : " وفي الأشكوب الأسفل الخياطون وفي
الأعلى الرفأون " (٣) .

(أشكوب) أو (أشكوب) - بالمدّ - : "الطبقة من طبقات البيت " (٤)
أو "سقف البيت وما يغطيه " (٥) . وجاء في برهان قاطع : "اشكوب بمعنى

١ - سفرنامه : ٢١ .

٢ - سفرنامه : ٧٩ .

٣ - سفرنامه : ٩٧ .

٤ - فرهنك نوبهار : ٣٥ .

٥ - فرهنك نوبهار : ٥٨ .

السماء وسقف البيت وما يغطي كل طبقة من البيت كما يقال إن هذه العمارة تشتمل على ثلاثة أشكوبات بمعنى ثلاث طبقات" (١) .

ويستنتج من الموضعين اللذين ذكرت فيهما الكلمة في سفرنامة أن مدلولها ينصرف الى طبقة من طبقات البيت أو العمارة . ويجدر بالذكر أن كلمة (اشكوب) تعد من الكلمات الفارسية الأصلية إذ وردت في البهلوية (aškōp) بمعنى السقف والسطح (٢) .

رَسْتَه: " ... ولكل جمع رَسْتَه منفصلة" (٣) . ورد في معجم (لغت فرس) (٤) : " .. رَسْتَه بمعنى دكاكين أهل الحرف تكون على صف واحد ويطلق على كل صف رَسْتَه " وذكر ابن خلف (٥) كلمة (رأسْتَه) ومن معانيها : " .. كل صف من شيء كصف الأسنان وصف الأسواق والبيوت التي تقع على صف واحد" .

١ - ص: ٤٤ .

٢ - انظر : فرهنك بهلوي : ٥٢ .

٣ - سفرنامه : ٣٦ .

٤ - ص: ٦٦ .

٥ - برهان قاطع : ٥٤١ .

ويدل النص الذي ورد في سفرنامه آنفاً أن الكلمة تطلق على صف من صفوف الحرفيين في السوق ولأهل كل حرفة منهم صف منفصل .

خَرْبُشْتَه (xarpošta) : .. وسطح هذا المسجد بطاق كبير" (١) .

خربشته كما وردت في برهان قاطع (٢) تعني : الخيمة والنطاق والإيوان ونحوها. وردت الكلمة في سفرنامه بمعنى الطاق المرتفع وسطحه المنخفض طرفه (٣) .

حصير مغربي: " وزين أرض هذا الرباط وحيطانه بالفرش الثمينة والحُصُر المغربية " (٤) .

الحصير المغربي: ضرب من الحصر المغربية نسبة الى المغرب . وكلمة (حصير) عربية (٥) وتعني الباريّة وتعمل من حُوص النخيل أو سُوق الأرزّ .

١ - سفرنامه : ١٤ .

٢ - ص : ٥٤١ .

٣ - انظر : فهرس اللغات لمحقق سفرنامه : ص ٣٢٩ .

٤ - سفرنامه : ٥٨ .

٥ - ((الحصير: الباريّة)) . مختار الصحاح : ١٣٩ . وفي المصباح المنير : ١٣٩ :

((الحصير : الباريّة ، وجمعها : حُصُر ... وتأنيتها بالهاء عامي)) .

الألفاظ المختصة بالملابس :

جامه رومي: " ..مشاة كلهم يلبسون الأقبية المزركشة الرومية" (١) .

يصف ناصر خسرو في هذا النص عساكر الخليفة الفاطمي .
والقَبَاء الرومي هو المنسوج في بلاد الروم المجلوب منها . وأصل الكلمة
تعني "القماش المنسوج غير المخيط وتطلق على القباء أيضاً" (٢) . لان
لبس الأقبية كان متعارفاً في ذلك الزمان (٣) .

ديباى رومي: " .. واذا كان الحرير الرومي بهذا المقدار فاعلم أنه
لم يثمن لنا قيمته " (٤) .

وقال في موضع آخر : " وزينوا الكنيسة بالحرير الرومي " (٥) .
الحرير الرومي هو الحرير المنسوج في بلاد الروم . وتطلق كلمة (ديبا)
ومعربها (ديباج) على ضرب من النسيج الحريري الملون (٦) .

١ - سفرنامه : ٨٦ .

٢ - برهان قاطع : ٣٣٩ .

٣ - استعارت الفارسية كلمة (قَبَا) من العربية وأطلقتها على ضرب من اللباس الطويل
المختص بالرجال . انظر : فرهنك عميد : ٧٨٤ .

٤ - سفرنامه : ٥٩ .

٥ - سفرنامه : ٦٢ .

٦ - انظر : فهرس اللغات لمحقق سفرنامه : ص ٣٢١ .

دُرَاعَة - دَبِيقِي: " .. وكان يلبس ثوباً أبيض ... ويسمى بالفارسية دُرَاعَه. وقيل إن ذلك الضرب من الثياب يسمى الدَّبِيقِي أيضاً " (١) .

يصف ناصر خسرو في هذا النص الثوب الذي كان يلبسه الخليفة الفاطمي وهو من رسوم دار الخلافة في ذلك العصر.

وكلمة (دُرَاعَة) وردت في بعض المعجمات العربية وذكرها دوزي في كتابه (٢) وتطلق الكلمة على "ضرب من اللباس، ولباس المتصوفة ، واللباس الطويل يرتديه الزهاد والمشايخ" (٣) .

والدَّبِيقِيّ أيضاً من الكلمات الواردة في بعض المعجمات العربية ذكرها دوزي في معجمه (٤) ونسبها الفيومي في المصباح المنير (٥) الى مصر ونقل عن الأزهري نسبتها الى قرية اسمها دَبِيق وهي من قرى مصر.

١ - سفرنامه : ٥٨ .

٢ - تكملة المعاجم العربية : ٤٣٤ ، ومعجم أسماء الألبسة عند العرب : ١٧٨ .

٣ - فهرس اللغات لمحقق سفرنامه : ص ٣٣٢ .

٤ - ص : ٤٠٤ .

٥ - ص : ١٨٩ .

بِلاَس (pelās): وربط على ظهره قطعة ممزقة من قماش صوفي يتقي بها
البرد" (١) .

بِلاَس كما وردت في برهان قاطع (٢) تعني " قماشاً من الصوف
الخشن يلبسه الدراويش " . وما ورد في سفرنامه هو بهذا المعنى . ومن
معاني الكلمة في معجم نوبهار (٣) : " فرش قطني أو صوفي ملون ..
وقماش منسوج من الصوف الخشن " .

سَفَن: " ... ورأيت في هذه المدينة جلد سمك يسمى في خراسان
السفن" (٤) . كلمة (سفن) كما يستفاد من هذا النص من لهجات أهل
خراسان؛ ومعنى الكلمة جلد السمك أو الحوت (٥) ويبدو أن الخراسانيين
كانوا يتخذونه للباس أو للصناعات الجلدية في القرن الخامس الهجري .

١ - سفرنامه : ١٥٤ .

٢ - ص : ٢٦٥ .

٣ - ص : ٧٥ .

٤ - سفرنامه : ١١٦ .

٥ - انظر : فهرس اللغات لمحقق سفرنامه : ص ٣٤٥ .

الألفاظ المختصة بالعملة والمقاييس والمكاييل :

دينار مغربي - دينار نَيْشَابُورِي: ورد ذكر الدينار المغربي والدينار النَيْشَابُورِي في مواضع عديدة من سفرنامه ، ومن جملتها المواضع الثلاثة الآتية :

- ١- ((... قيل إن ذلك المُصَلَّى (السجادة) في مصر اشتروه بثلاثين ديناراً مغربياً)) (١) .
 - ٢- ((.. ويصنعون في مدينة طَبْرِية حصيماً يُتَّخَذُ مُصَلَّى (سجادة) للصلاة ويشترونه هناك بخمسة دنانير مغربية)) (٢) .
 - ٣- ((... يشترونه بثلاثة دنانير مغربية وهي تساوي ديناراً نيسابورياً ونصف الدينار...)) (٣) .
- الدينار عملة ذهبية والدرهم عملة فضية ولهما وزن مخصوص يختلف باختلاف البلدان الإسلامية القديمة ، وهما وزنان شرعيان أيضاً المذكوران في كتب الفقه على اختلاف بين الفقهاء .

١ - سفرنامه : ٥٥ .

٢ - سفرنامه : ٣٠ .

٣ - سفرنامه : ٩٣ .

ولكل بلد دينار يختص به من حيث الوزن والضرب كالدينار المغربي نسبة الى بلاد المغرب والدينار الخراساني نسبة الى بلاد خراسان... الخ .

وبينت بعض المصادر أوزان الدينار وأنواعه على النحو الآتي (١) :

- ١- دينار = (٧١) حبة شعير ونصف حبة .
 - ٢- دينار = (٦٠) حبة شعير .
 - ٣- دينار = (٦٦) حبة شعير أي نحو ٤,٢٥٠ غم.
 - ٤- الدينار الخراساني : كل دينار يساوي (٤) دراهم . ودرهمه على قسمين ، أحدهما يعادل (٨) فلوس ، والآخر يعادل (٤) فلوس .
 - ٥- الدينار المعزي : نسبة الى المعز لدين الله الفاطمي . وقد أمر بضربه في القاهرة قائد الخليفة المشهور جوهر الصقلي وطبع عليه اسم الخليفة. وهذا الدينار كان يعادل (١٥) درهماً ونصف الدرهم .
- كَزْ (= gaz) مَلِك - كزشايبكان: " .. والعرض (٤٥٥) بقياس (كَز مَلِك الذي يدعى في خراسان كَزشايبكان) ، والواحد منه يعادل أَرَشاً (ذراعاً) ونصف الأرش أو شيئاً أقل .. " (٢) .

١ - المصباح المنير : ٢٠١ ، ومعجم الاقتصاد الإسلامي : ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٦ .

٢ - سفرنامه : ٣٨ .

(كز ملك) يسمى (كزشايكان) في لهجة أهل خراسان كما أشار الى ذلك ناصر خسرو في النص المذكور آنفاً ويساوي ذراعاً ونصف الذراع . والأرْشُ مقياس للطول ويسمى في العربية الذراع ويقصد به ذراع إنسان مستوي الخلقة^(١) وقال ابن خلف في برهان قاطع ^(٢) :

الأرْشُ : مقدار ما بين الإصبع الوسطى من اليد اليمنى والاصبع الوسطى لليد اليسرى اذا انبسطت اليدان مستقيمتين . وقال بعضهم هو مقدار ما بين الإصبع الوسطى لليد ومرفقها . وهذا هو الأصح)) .

رَطْلٌ ظاهري : كان من موازين السوق في حلب وقد رآه ناصر خسرو في سنة ٤٣٨هـ ووزنه . قال : ((... ومعيار الوزن فيها (أي في حلب) الرطل الظاهريّ . ويزن (٤٨٠) درهما)) ^(٣) .

^١ - في فرهنگ عميد ص ٨٠ : "أرْشُ : مقياس للطول من طرف الإصبع الوسطى الى مفصل الذراع ، ويساوي نحو نصف متر ، وقيل (رَش) أيضاً " .

^٢ - ص : ٧٤ .

^٣ - سفرنامه : ١٧ .

والرَّطْلُ من الألفاظ العربية وهو معيار للوزن يختلف بين بلد وآخر .
وزنة الرطل المعروف بالبغدادي مثلاً : (١٢) أُوقِيَّة ، والأوقية : أَسْتَار
وتُثْلُت أَسْتَار ، والأَسْتَار : (٤) مثاقيل ونصف المثقال (١) .

ألفاظ متعلقة بالطبيعة :

كُورَهَائِي مِصْر : ((... ويطلبون في حُفْر مصر الكنوز والدفائن)) (٢) .
ورد في برهان قاطع : ((كور - بفتح الأول وسكون الثاني - تطلق على
منخفض من الأرض والحفرة)) (٣) . وتطلق (كُورَة) على الأرض التي
حفرها السيل أيضاً (٤) .
دِيُولَاخ : ((.. وفيه مشاتٍ وأماكن باردة)) (٥) . تدل كلمة (ديولاخ) في
الفارسية على عدة معانٍ ، منها ((المَشْتَى والمَمْلَحَة)) (٦) .

١ - انظر المصباح المنير : ٢٣٠ .

٢ - سفرنامه : ١٠٧ .

٣ - ص : ٩٤٩ .

٤ - برهان قاطع : ٩٥٠ .

٥ - سفرنامه : ١٢٤ .

٦ - لغت فارس : ٢٨ .

والكلمة مركبة من (ديو) بمعنى العفريت ، و(لاخ) بمعنى المكان ، والمعنى المركب من هاتين الكلمتين ((مكان العفاريت ومقامهم))^(١) . أو ((المكان الذي يكثر فيه العفاريت))^(٢). وهذا كله من باب المجاز والتشبيه.

باليز : ((وسدّوا الماء في ذلك المكان وأقاموا فيه بساتين ومزارع))^(٣) .

باليز تعني ((البُسْتان والمزرعة بعامة ، وتطلق على مزرعة البَطِيخ بخاصة))^(٤) ، ووردت معاني هذه الكلمة في معجم نوبهار^(٥) على النحو الآتي : ((البستان والمزرعة ومزرعة البطيخ ومزرعة الخيار ونحوها)) .

ريك مكّي : ((.. وفي الطريق رمل كثير ومنه ما يعرف بالرمل المكّي الذي يتخذ الصاغة في بلاد العجم لصناعتهم))^(٦) .

١ - برهان قاطع : ٥٢٧ .

٢ - فرهنك نوبهار : ٤٠٠ .

٣ - سفرنامه : ١٢٢ .

٤ - برهان قاطع : ٢٣٥ .

٥ - ص : ١٧٥ .

٦ - سفرنامه : ٣١ .

ريك (rīg) مكي: ضرب من الرمل يتخذه الصاغة في تدويب الذهب والفضة .

كلمتان متعلقان بالطعام والفاكهة :

١- جاشت (=čāšt) خواران: ((وصلتُ الى سِمْنَانَ عن طريق توافر لي فيه الشراب والطعام مجاناً)) (١) .

معنى (جاشت) كما ورد في برهان قاطع (٢) : ((الحِصَّة الواحدة من أربع حِصَص اليوم . ويطلق عليها في الهند (بَهْر) ، والطعام الذي يؤكل في كل حصة من تلك الحِصَص)) . وفي معجم نوبهار (٣) وردت كلمة (جاشت) بمعنى الطعام الذي يؤكل في وسط اليوم .

٢- (رَزَّارْمَانُوش) : رأى ناصر خسرو ضرباً من العنب في مدينة (أَرَزْنَ) من توابع (مِيَّافارقين) يسمى (رَزَّارْمَانُوش) وذكر لنا سعر بيعه . قال : ((.وكان يباع فيها في شهر آخر من شهور الفرس مائتا مَنَّ من العنب

١ - سفرنامه : ٤ .

٢ - ص : ٣٦٨ .

٣ - ص : ٢٨٨ .

بدينار ويسمى هذا النوع من العنب رَزَّارْمَانُوش))^(١) . ومعاني كلمة (رَزُّ) في الفارسية : ((شجر العنب وهو شجر الكَرْم بالعربية ، والعنب نفسه ، وتطلق على كل بستان بعامة ، وعلى بستان العنب بخاصة))^(٢) .

كلمتان متعلقتان بالمعادن والفلزات

- ١- (أَرزِيز) : ((وكانت أرض المسجد مبلطة بالحجر المرزوز بالرَّصَّاص))^(٣) . أَرزِيز : (الْقَلْعِيُّ ويسمى الرَّصَّاص بالعربية))^(٤) و الْقَلْعِيُّ ضرب من الرصاص .
- ٢- بَرِنج دمشقي : ((.. ورأيت أكوازاً كبيرة معمولة من البرنج الدمشقيّ يسع الواحد منها ثلاثين منّاً من الماء))^(٥) .

١ - سفرنامه : ١١ .

٢ - ص : ٥٣٩ . وانظر فرهنك نوبهار : ٤١٠ .

٣ - سفرنامه : ٣٨ .

٤ - برهان قاطع : ٧٣ .

٥ - سفرنامه : ٩٤ .

البرنج سبيكة مخلوطة من النحاس والرصاص والأشرب الأصفر
(وهو ضرب من الرصاص) . يصنع منها أدوات وآلات مختلفة (١) .
والبرنج نسبة الى دمشق . والمَنْ : مقدار من الوزن يساوي رطلين .

كلمتان متعلقتان بخندقة الولايات :

- ١- سكر : ((.. وبنوا سَدًّا من أول الولاية الى آخرها)) (٢) . تطلق الكلمة في الفارسية على " السدّ وحافة مرتفعة من التراب تسد نهر الماء)) (٣) .
- ٢- كَنْدَه : ((... حَفَرُوا خَنْدَقًا عَظِيمًا ووضَعُوا عَلَيْهِ بَابًا مُحْكَمًا مِنْ حديد)) (٤) . ومعنى كلمة (كَنْدَه) في الفارسية ((ساقية أو حفرة مستطيلة تحفر حول القلعة أو معسكر الجيش لتمنع العدو من الولوج فيهما . ومعربها : خَنْدَق)) (٥) .

ألفاظ متفرقة

-
- ١ - فهرس اللغات لمحقق سفرنامه : ص ٣١٣ .
 - ٢ - سفرنامه : ٦٩ .
 - ٣ - فهرس اللغات لمحقق سفرنامه : ص ٣٤٥ .
 - ٤ - سفرنامه : ٢٠ .
 - ٥ - ص : ٩٤١ .

نَمَاز حُفَّتَن : ((.. وبعد صلاة العِشاء خرب بعض المدينة))^(١) . نماز
خفتن : هي صلاة العِشاء .

بَهِيمَة زِينِي : ((.. قالوا كانت خمسين ألف بهيمة يُكْرُونَهَا مُسْرَجَة في كل
يوم))^(٢) .

بهِيمه زِينِي : البهائم كالجياذ والحمير والبغال مُسْرَجَة أو مُبْرَدَعه تُكْرَى
مهياًة.

رَبَان أَهْل دَيْلَم : ((... وكان يتكلم الفارسية بلسان أهل الدَيْلَم))^(٣) .

دَيْلَم او دَيْلَمَان : تطلق كما ذكر ياقوت الحموي^(٤) . على قرى أَصْفَهَان
ونواحي خرجان .

^١ - سفرنامه : ٩ .

^٢ - سفرنامه : ٩٥ .

^٣ - سفرنامه : ٤ .

^٤ - معجم البلدان : ٥٤٤/٢ .

كُوفَجَان: ((... وإذا أغار لصوص الجبال في كرمان لقطع الطريق أرسل إليهم ضباط حرس الأمير الكيلكي للقبض عليهم واسترجاع ما سرقوه ثم قَتَلَهُمْ))^(١) .

ورد في برهان قاطع: ^(٢)((كوفج - على وزن كَوْسَج - اسم جماعة تسكن جبال كرمان ... ويقال أيضاً كُوفَجَان على وزن بُوسْتَان - بمعنى كُوفَج)) .

زَيْتٌ حَارٌّ : عد ناصر خسرو عبارة (زيت حار) من لهجات أهل مصر (أهل القاهرة) في القرن الخامس الهجري . وشرح معنى هذه العبارة على النحو الآتي: ((وزيت السُّرْج في ذلك المكان (مصر) يتخذ من بذور الفِجْل والشَّلْغَم ويسمونه بـ(زيت حار) ..))^(٣) .

^١ - سفرنامه : ص ١٦٧ . و (كيلكي) - بالكاف الفارسية - نسبة الى (كيلان) من بلاد فارس ، ومعربها : جيلان .

^٢ - ص : ٩٥٣ ، وقارن بـ(فرهنگ نوبهار) : ٦٧٣ .

^٣ - سفرنامه : ٩٥ .

حارة : ((تنقسم مدينة القاهرة على عشر محلات وتدعى المحلة عندهم حارة))^(١) .

نستنتج من هذا الكلام أن كلمة (حارة) كانت من لهجات أهل مصر في القرن الخامس الهجري .

خَفِير وَقَلَاوُوز : ((ومن كل قوم خفير (حارس حام مجير) لكي يعبر ذلك الحدّ، وهو خفير دلالة (الدلالة على الطريق) ويدعى (القالووز) أيضاً))^(٢) .

^١ - سفرنامه : ٨٨ .

^٢ - سفرنامه : ٤٢ .

(الخَفِير) من الكلمات العربية (١) ويقابلها بالفارسية (قلاووز) ، وفي برهان قاطع (٢) القلاووز بمعنى : ((الفُرْسَان الذين يحافظون على الجيش ويكونون خارجه ووردت الكلمة أيضاً بتخفيف الواو)) . وأشار ابن خلف إلى الأصل التركي للكلمة . ويفهم من كلام ناصر خسرو أمران ، أحدهما أنه استخدم كلمة خفير ومرادفها القلاووز بمعنى الحارس والحامي بعامية سواء أكان لجيش أم لغيره. والآخر : أن قلاووز وهي كلمة فارسية تركية الأصل كانت فاشية الاستعمال في لهجة أهل مصر .

سادات وشائرة: ((.. وكانوا يسمون هؤلاء السلاطين بالسادات ويسمون وزراءهم بالشائرة)) (٣) .

الكلام في هذا النص على بعض السلاطين في الأحساء بالجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري . وكان هؤلاء يحكمون حكماً عشائرياً . وهاتان الكلمتان عربيتان .

١ - ((الخَفِير: المُجِير ، تقول : خَفَر الرَّجُلُ ، أي أجاره ، وكان له خَفِيرًا)) مختار الصحاح : ١٨٢ . وفي المصباح المنير : ١٧٥ : ((خَفِير ، والاسم : الخفارة - بضم الخاء وكسرهما ، والخفارة - مثلثة الخاء - جُعِلَ الخفير)) ، أي أجره .
٢ - ص : ٨٦٠ .

٣ - سفرنامه : ١٤٩ .

(فالسيد) يجمع على (سادة) ، أو يجمع جمعاً قياسياً بالألف والتاء فيقال (السادات)، وأما (الشائرة) فهي جمع (شائر) صيغة اسم الفاعل من (شار يشور) فالشائر وردت بمعنى المشاور وهو ما ينصرف الى بعض معاني الوزير.

مطالبيّان: ((وكان هذا خادماً لأمير المطالبيّين .. والمطالبيّون هم الذين يبحثون عن الكنوز والدفائن في حُفر مصر ومنخفضاتها)) (١) .

المطالبيّي وجمعها في الفارسية (مطالبيّان) من لهجات المصريين كما أشار إلى ذلك ناصر خسرو . وفي خبر نقله (المناوي) عن المقرئزي إشارة الى هؤلاء وهذا الخبر له صلة بأحمد بن طولون سلطان مصر في عهد الطولونيين وضرب السكة المعروفة بالدينار الأحمدي (٢) .

١ - سفرنامه : ١٠٧ .

٢ - ورد هذا الخبر في كتاب المناوي (محمد بن عبد الرؤوف بن تاج العارفين) الموسوم بـ(النقود والمكايل والموازين) : انظر : ص ٩٥ (طبع بغداد ١٩٨١) ونص الخبر كما يأتي : ((... أنه ركب يوماً الى الأهرام فأتاه الحُجّاب بقوم عليهم ثياب صوف ومعهم المساحي والمعاول ، فسألهم عمّا يفعلون ، فقالوا : نحن قوم نتبع الكنوز والمطالبيّ)) .

المصادر والمراجع

- ١- إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية - القاهرة ١٩٦٥ .
- ٢- إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٢ .
- ٣- ابن خلف تبريزي : برهان قاطع - طهران ١٣٤٤ هـ - ش .
- ٤- ابن فارس (أبو الحسن أحمد) : الصحابي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها - تحقيق مصطفى الشويمي - المكتبة اللغوية العربية - بيروت ١٩٦٤ .
- ٥- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مُكْرَم) : لسان العرب - بولاق - مصر ١٣٠٠ هـ .
- ٦- أحمد الشرباصي : المعجم الاقتصادي الإسلامي - دار الجيل - بيروت ١٩٨١ .
- ٧- أحمد سوسة : مفصل العرب واليهود في التأريخ - وزارة الثقافة والإعلام (سلسلة دراسات) - بغداد ١٩٨١ .
- ٨- أحمد مختار عمر : علم الدلالة - مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع - الكويت ١٩٨٢ .
- ٩- أدي شير : معجم الألفاظ الفارسية المغربية - مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٠ .
- ١٠- أسدى طوسى : لغت فرس - به كوشش محمد دبیر سياقى - طهران ١٣٣٦ هـ - ش .

- ١١- إِيَاد (مرسيا) : المقدس والعادي - ترجمة عادل العوا - دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ٢٠٠٩ م .
- ١٢- أوستلر (نيقولاس) : إمبراطوريات الكلمة ، تأريخ اللغات في العالم - ترجمة محمد توفيق البجيرمي - دار الكتاب العربي - بيروت ٢٠١١ م .
- ١٣- أولمان (ستيفن) : دور الكلمة في اللغة - ترجمة كمال بشر - المطبعة العثمانية - القاهرة ١٩٧٢ .
- ١٤- إيمار (أندريه) ، وأوبوايه (جانين) : تأريخ الحضارات العام - بإشراف موريس كروزيه - ترجمة فريد (م) داغر ، وفؤاد (ج) أبو ریحان - دار منشورات عويدات - بيروت ٢٠٠٦ م .
- ١٥- بارتولد (ف) : تأريخ الحضارة الإسلامية - ترجمة حمزة طاهر - منشورات وزارة الثقافة (الجمهورية العربية السورية) - دمشق ٢٠٠٤ م .
- ١٦- باي (ماريو) : أسس علم اللغة - ترجمة أحمد مختار عمر - منشورات جامعة طرابلس (ليبيا) - كلية التربية ١٩٧٣ .
- ١٧- باي (ماريون) : لغات البشر (أصولها - طبيعتها - تطورها) - ترجمة صلاح العربي - مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر (القاهرة - نيويورك) ١٩٧٠ .

- ١٨- البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق) : مرصد
الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - تحقيق محمد البجاوي- دار
إحياء الكتب القديمة - القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٤ م.
- ١٩- بهرام فره وشى : فرهنك بهلوى - طهران ١٣٤٦ هـ. ش .
- ٢٠- بونت (بيار) ، وإيزار (ميشال) وآخرون : معجم الإثنولوجية
والأنثروبولوجيا - ترجمة مصباح الصمد - المؤسسة الجامعية للدراسات
والنشر والتوزيع - بيروت ١٣٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م.
- ٢١- التتوي (عبد الرشيد بن عبد الصبور الحسيني المدني) :
المعربات الرشيدية - ترجمة نور الدين آل علي وأمين عبد المجيد بدوي
- القاهرة ١٩٧٩ .
- ٢٢- تقى آزاد أرمكى : العولمة وأثرها على الهوية الإيرانية - ترجمة
علي طاهر الحمود - بيت الحكمة - بغداد ٢٠١٢ م.
- ٢٣- ثروت عكاشة : المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية -
مكتبة لبنان - بيروت د.ت.
- ٢٤- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد) : فقه اللغة وسر
العربية - طبعة مصورة عن الطبعة الكاثوليكية - نشر دار الكتب
العلمية بيروت د.ت.
- ٢٥- جعفر نجم نصر : الأنثروبولوجيا التاريخية : الأسس والمجالات
في ضوء مدرسة الحوليات الفرنسية - نشر دار أوما للطباعة والنشر
(بغداد) ، والانتشار العربي (بيروت) ٢٠١٣ م.

- ٢٦- الجواليقي (أبو منصور موهوب بن أحمد) : المعرب من الكلام
الأعجمي على حروف المعجم - تحقيق أحمد محمد شاكر دار الكتب -
القاهرة ١٩٦٩ .
- ٢٧- جوزيف (جون) ، وولف (نايجل) ، وتيلر (تولبت) : أعلام
الفكر اللغوي (التقليد الغربي في القرن العشرين) - دار الكتاب الجديد
- المتحدة : بيروت ٢٠٠٦م .
- ٢٨- حسن النجفي : معجم المصطلحات والأعلام في العراق القديم
- الدار العربية - بغداد ١٩٨٢ .
- ٢٩- حسين موسى وعبد الفتاح الصعيدي : الإفصاح في فقه اللغة
- مطبعة المدني - القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م .
- ٣٠- الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله) : كتاب
المشترك وضعاً والمفترق صقاً - طبع أوربا (كوتنكن ١٨٤٦م) .
- ٣١- الحموي (ياقوت) : معجم البلدان - دار صادر - بيروت
١٩٧٧ .
- ٣٢- الحميري (محمد بن عبد المنعم) : كتاب الروض المعطار في
خبر الأقطار - تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٧٥ .
- ٣٣- الخفاجي (أحمد ، شهاب الدين) : شفاء الغليل فيما في كلام
العرب من الدخيل - المطبعة الوهبية - القاهرة ١٢٨٢ هـ .
- ٣٤- خليل أحمد خليل : معجم الرموز (سلسلة المعاجم العلمية) -
دار الفكر اللبناني - بيروت ١٩٩٥م .

- ٣٥- خليل أحمد خليل - معجم المصطلحات الدينية (سلسلة المعاجم العلمية) - دار الفكر اللبناني - بيروت ١٩٩٥.
- ٣٦- الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد) :
 أ. مفاتيح العلوم - إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة ١٣٤٢ هـ.
 ب. مفاتيح العلوم - تحقيق إبراهيم الأبياري - دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٩.
- ٣٧- دانيال (كلين) : موسوعة علم الآثار - ترجمة ليون يوسف - وزارة الثقافة والإعلام (سلسلة المأمون) - بغداد ١٩٩٠ .
- ٣٨- دوزي (رينهارت) : معجم أسماء الألبسة عند العرب (مصورة عن طبعة أوروبا سنة ١٨٤٣ م) - مكتبة لبنان - بيروت .
- ٣٩- دوزي (رينهارت) : تكملة المعاجم العربية - (مصورة عن طبعة أوروبا سنة ١٨٨١ م) - مكتبة لبنان - بيروت .
- ٤٠- سوسير (فرديناند) : علم اللغة العام - ترجمة يوثيل يوسف عزيز - دار آفاق عربية - بغداد ١٩٨٥ .
- ٤١- ذبيح الله صفا : تاريخ ادبيات در ايران - طهران ١٣٣٩ هـ.ش.
- ٤٢- الرازي (محمد بن أبي بكر) :
 أ. مختار الصحاح - دار الكتاب العربي - بيروت د.ت.
 ب. مختار الصحاح - عني به محمد نبيل طريفي - دار صادر - بيروت ٢٠٠٧ م.

- ٤٣- رفائيل نخلة اليسوعي : غرائب اللغة العربية - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٠.
- ٤٤- رمضان عبد التواب : فصول في فقه اللغة - مكتبة الخانجي - القاهرة (طبعة مصورة عن طبعة ١٩٧٣) .
- ٤٥- رمضان عبد التواب : المدخل الى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٨٥.
- ٤٦- سامي عياد وآخرون : معجم اللسانيات الحديثة - مكتبة لبنان (ناشرون) - بيروت ١٩٩٧.
- ٤٧- سميث (شارلوت سيمور) : موسوعة علم الإنسان : المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية - ترجمة مجموعة من الباحثين بإشراف محمد الجوهري - المركز القومي للترجمة - القاهرة ٢٠٠٩م.
- ٤٨- سهيل قاشا (الأب) : تأريخ الفكر في العراق القديم - التنوير للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ٢٠١٠م.
- ٤٩- شابيرو (ماكس) ، وهندريكس (رودا) : معجم الأساطير - ترجمة حنا عواد - دار علاء الدين - دمشق ٢٠٠٨م.
- ٥٠- طاش كبري زاده : مفتاح السعادة - دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م.
- ٥١- طه باقر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة - دار الوراق - بيروت ٢٠٠٩م.

- ٥٢- عبد المنعم الحفني : معجم مصطلحات الصوفية - دار المسيرة
- بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٥٣- علي ثويني : معجم عمارة الشعوب الإسلامية - منشورات بيت
الحكمة- بغداد ٢٠٠٥م.
- ٥٤- علي عبد الواحد وافي : علم اللغة - دار نهضة مصر - القاهرة
١٩٦٧.
- ٥٥- علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة - دار نهضة مصر (الطبعة
السادسة) - القاهرة د.ت.
- ٥٦- فندريس (جوزيف) : اللغة - ترجمة عبد الحميد الدواخلي
ومحمد القصاص- مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة ١٩٥٠.
- ٥٧- فوستر (هنري): نشأة العراق الحديث - ترجمة سليم طه
التكريتي -بغداد ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٥٨- الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) : القاموس المحيط
- قدم له وعلق على حواشيه الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني - دار
الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٧م.
- ٥٩- الفيومي (أحمد بن محمد بن علي المقرئ) : المصباح المنير
في غريب الشرح الكبير للرافعي - المكتبة العلمية - بيروت د.ت.
- ٦٠- كالفني (لويس جان): حرب اللغات والسياسات اللغوية - ترجمة
حسن حمزة - المنظمة العربية للترجمة - بيروت ٢٠٠٨م.

- ٦١- الكتاب المقدس (كتب العهد القديم والعهد الجديد) - دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط - بيروت ١٩٨٨.
- ٦٢- كلوكهون : الأنثروبولوجي الحضاري (ضمن مجموع آفاق المعرفة) - ترجمة شاكر مصطفى سليم - مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر- بغداد - نيويورك ١٩٦٢ (منشورات دار مكتبة الحياة).
- ٦٣- كوندرا توف (أ) : أصوات وإشارات - ترجمة أدور يوحنا - وزارة الإعلام (سلسلة الكتب المترجمة) - بغداد ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.
- ٦٤- لابات (رينيه) : قاموس العلامات المسمارية - ترجمة الأب ألبير أبونا وآخرين - منشورات المجمع العلمي العراقي - مطبعة المجمع العلمي - بغداد ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.
- ٦٥- لتشنر (فرانك) وبولي (جون) : العولمة : الطوفان أم الإنقاذ، الجوانب الثقافية والسياسية والاقتصادية - ترجمة فاضل جتكر - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ٢٠٠٤ م.
- ٦٦- لوتز (جون) : علم اللغة (ضمن مجموع آفاق المعرفة) - ترجمة صفاء خلوصي - مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بغداد - نيويورك) ١٩٦٢ - منشورات دار مكتبة الحياة.
- ٦٧- لوروا - غوران (أندريه) : أديان ما قبل التاريخ - ترجمة سعاد حرب - مجد (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع) - بيروت ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.

- ٦٨- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد): الأحكام السلطانية والولايات الدينية - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
- ٦٩- متز (آدم): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده - مكتبة الخانجي (القاهرة) - دار الكتاب العربي (بيروت) - ١٩٦٧.
- ٧٠- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : التنبيه والإشراف - دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف - القاهرة ١٣٥٧ هـ.
- ٧١- مجموعة من الباحثين : مقالات في الثقافة الاستراتيجية - ترجمة هناء خليف غني - بيت الحكمة - بغداد ٢٠١١ م.
- ٧٢- محمد حسن البرغثي : الثقافة العربية والعولمة ، ضمن (أسس التحديث والتنمية العربية في زمن العولمة) - نشر مؤسسة عبد الحميد شومان (عمان - الأردن) ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت) ٢٠٠٩ م.
- ٧٣- محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى علم اللغة - القاهرة ١٩٨٣.
- ٧٤- محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب في الجاهلية ودلالاتها - دار الفارابي (بيروت) ، ودار محمد علي للنشر (صفاقس - تونس) (٢٠٠٥ م.

- ٧٥- محمد علي الخولي : معجم علم اللغة النظري - مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٢.
- ٧٦- محمود السعران : علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) - دار النهضة العربية - بيروت د.ت.
- ٧٧- محمود فهمي حجازي : اللغة العربية عبر القرون - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٨.
- ٧٨- مسلان (ميشال) : علم الأديان : مساهمة في التأسيس - ترجمة عز الدين عناية - نشر هيئة (أبو ظبي) للثقافة والتراث (كلمة)، والمركز الثقافي العربي (بيروت ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م).
- ٧٩- المُطْرَزي (أبو الفتح ناصر بن عبد السيد) : المغرب في ترتيب المغرب - نشر دار الكتاب العربي في بيروت (نسخة مصورة عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند ١٣٩٧ هـ).
- ٨٠- مهدي محمد علي : جغرافية البحار والمحيطات - دار الكتاب للطباعة والنشر (جامعة الموصل) - ١٩٨٢.
- ٨١- موسكاتي (سبتينو) : الحضارات السامية القديمة - ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر - دار الكتاب العربي - القاهرة د.ت.
- ٨٢- ميشال زكريا : الألسنية (علم اللغة الحديث) : المبادئ والأعلام - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت ١٩٨٠.
- ٨٣- النابلسي (الشيخ عبد الغني) : تعبير الأنام في تعبير المنام - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م.

- ٨٤- ناظم عبد الواحد الجاسور - موسوعة المصطلحات السياسية والفلسفية والدولية - دار النهضة العربية - بيروت ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- ٨٥- ناظم عبد الواحد الجاسور - موسوعة المصطلحات السياسية والفلسفية والدولية - دار النهضة العربية - بيروت ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- ٨٦- نايف خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة - (سلسلة عالم المعرفة) - الكويت ١٩٧٨ .
- ٨٧- نخبة من اللغويين العرب : معجم مصطلحات علم اللغة الحديث - مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٣ .
- ٨٨- نوبهار : فرهنك نوبهار - طبعة قديمة في إيران .
- ٨٩- نور الدين خليل : قاموس الأديان الكبرى الثلاث اليهودية والمسيحية و(الإسلام) - مؤسسة حورس الدولية - مصر (الإسكندرية) ٢٠١٠ م.
- ٩٠- نوري جعفر : اللغة والفكر - مكتبة النومي - الرباط (المغرب) ١٩٧١ .
- ٩١- النووي (أبو زكريا محيي الدين شرف) : تهذيب الأسماء واللغات - إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة د.ت.
- ٩٢- هارمان (هارالد) : تأريخ اللغات ومستقبلها - ترجمة سامي شمعون - المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث - قطر (الدوحة) ٢٠٠٦ م.

- ٩٣- هاكس (جيمز) : قاموس كتاب مقدس - ترجمة وتأليف مستر هاكس- تهران - انتشارات أساطير (جاب دوم) ١٣٨٣ ه.ش.
- ٩٤- هدرسن (د) : علم اللغة الاجتماعي - ترجمة محمود عبد الغني عياد - دار الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٨٧.
- ٩٥- هرميه (غي) وآخرون: قاموس علم السياسة والمؤسسات السياسية - ترجمة هيثم اللمع - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
- ٩٦- هنتنغتون Huntington (صموئيل) : صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي - ترجمة مالك عبيد أبو شهيوه ومحمود محمد خلف - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام - مصراته (ليبيا) ١٩٩٩م.
- ٩٧- هيغوك (ريتشارد) : العولمة والأقلمة (اتجاهان جديان في السياسات العالمية) - مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية - أبو ظبي ١٩٩٨.
- ٩٨- ياكو بسون (رومان) : الاتجاهات الأساسية في علم اللغة - ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم - المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء - المغرب ، بيروت - لبنان) ٢٠٠٢م.
- ٩٩- Crystal , (David) : Linguistics. London 1973.
- ١٠٠- Gesenius (William) : Hebrew and English Lexicon- Oxford 1979.
- ١٠١- Palmer , (F.R) : Semantics , a new outline . London 1977.

- ۱۰۲- Steingass (F) : Persian – English dictionary ,
London 1977.
- ۱۰۳- Ullman , (Stephen) : Semantics , An
introduction to the science of meaning , New York ,
1962.